السيد عباس نورالدين

سفر إلى الملكوت

بحث حول منهج الإسلام في تربية الإنسان

مركز بـاء للدراسات


بسم الله الرحمن الرحيم

سفر إلى الملكوت
السيد عباس نورالدين
مركز باء للدراسات
بيت الكاتب للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة بيروت 2009
www.baabooks.com
009611477233



سفر الى الملكوت

بحث حول منهج الإسلام في تربية الإنسان

السيد عباس نور الدين

مركز باء للدراسات
قسم الدراسات الأخلاقية والسلوكية



المحتويات





مقدمة:

الحمد لله الذي أضاء قلوب المجاهدين بنور حكمته فأبان لهم الطريق وهداهم سبله. والصلاة والسلام على المبعوث إلى العالمين الذي يتنزّل كل خير من فيضه، وعلى آله مرائي جماله وجلاله..

لهذا الكتاب قصة تشبه مسيرة حياة الإنسان.. نطفة ثم علقة ثم جنينا ثم طفلا، ولعله يكون قد بلغ أشده!

لا زلت أذكر قبل أكثر من عشرين سنة عندما كان إقبال الشباب المتدين على المعارف الأخلاقية والتعاليم المعنوية في أوجه، كانت مكتباتنا تكاد تخلو من أي كتاب يلبي الحاجة ويروي الظمأ. لم يكن الأربعون حديثا قد ترجم أو طبع، ولم يكن ثمة أحد قد سمع عن العلامة الجوادي وأسلوبه العذب. فكان لا بد من وضع كتاب منهجي تعليمي يلاحظ الثورة المعنوية المنبثقة من روح العرفان الخميني.

في تلك الأيام ورغم أن الرؤية الكونية العرفانية لم تكن معروفة حتى في مبادئها الأساسية، فإن التوجه والإقبال على كل ما يمت إلى العرفان بصلة كان مشهوداً بوضوح بين الشباب الذي كان يسعى لمزج حياته بالجهاد والمسؤولية. ولم يكن خافياً على أحد أن وراء ذلك كله تلك الروح العرفانية العابقة التي انبعثت من جانب الشرق، حينما حمل

معه تباشير العزة والحرية.

وصحيح أن التجربة الروحية والمعنوية كانت مطلباً ورغبة، لكن الأصل والخلفية الحاكمة كانت الإرتباط بالإمام الخميني وكل ما يتصل به. فلم يكن التوجه الأصلي نحو العرفان أو الروحانية، بل نحو العزة المصاحبة لتعاليم هذا الإنسان العظيم.

في الواقع كان الإمام هو الأصل، وكانت الأمور الأخرى بالتبع.

من خلال هذا الإمام تعرفنا على روعة السير والسلوك وأهمية مجاهدة النفس ومعنى مواجهة الأنانية والإنية. ومن خلاله صار للعرفان قداسة خاصة في نفوسنا.

كان لا بد أن يتحول هذا الإقبال إلى إلتزام واقعي، وأن تصبح تلك التوجهات معارف راسخة؛ فكان لا بد من المنهج والخط الواضح. وهكذا انعقدت نطفة هذا الكتاب.

لقاح أفكار الإمام مع واقع الشباب وتطلعاته ولّد منهجا تدريسياً كان له أن ينتشر على نطاق واسع.

ومن خلال التدريس المتواصل، احتكت أفكاره بالأفكار الأخرى؛ فترعرت في بيئة مساعدة ونمت ضمن ظروف الحاجة والتقدير. وكبرت مع ردود الفعل والآثار الكبيرة التي شهدها. ولهذه الأخيرة قصة أخرى لا يمكن ذكرها هنا.

لم يكن "سفر إلى الملكوت" الذي عرف لسنوات تحت عنوان دروس في تهذيب النفس مجرد أفكار تنمو وتترعرع في ذهن كاتب؛ فهو تجربة تعليمية تفاعلية لعلنا لا نجد تجربة بحجمها. فقد وضعت أفكاره وطريقته ومنهجيته في قاعات الصفوف لمئات المرات وعرضت على آلاف الطلاب وهي تحصل كل مرة على التغذية الراجعة والملاحظات النافعة. وكانت كل دورة تدريسية للكتاب تضفي عليه المزيد من الملامح

وتبلور شخصيته أكثر فأكثر.

ولا أخفي على أحد بأن التعابير والألفاظ كانت دوماً متأخرة عن المعاني؛ فمع كل مراجعة للكتاب كنت اكتشف كم أن المقصد ما زال مبهماً. ولولا الأثر الطيب الذي كان يحدثه لكنت يئست من بلوغ المطلب وحصول المقصد. وكنت كلما نظرتُ إلى الواقع واحتياجاته والفراغ الكبير الذي كان يسده وخصوصاً على صعيد التدريس المنهجي علمت أن الأولى أن أنشره.

منذ انطلاقة الكتاب الأولى بدأت فورة نشر الكتب الأخلاقية والسلوكية التي تحمل نسائم العرفان؛ ولم تمض برهة من الزمن حتى نُشر سيد الكتب ورئيسها بلا منازع: شرح الأربعين حديثاً للإمام الخميني قدس سره، الذي أكمل ثورة الإمام وثبّت أركانها.

ومع عظيم ما تضمنته بعض تلك الكتب والمؤلفات، لا زالت الحاجة إلى تقديم رؤية شاملة ذات منهجية واضحة تبين أصول هذا العالم ومبادئه من المنطلق إلى الغاية والقواعد الكلية والمراحل الأساسية مشهودة.

لهذا يبدو بوضوح وبعد مرور كل هذه السنوات، أن لسفر إلى الملكوت موقعه المطلوب في المسيرة التعليمية الهادرة.

ورغم أن الكتاب يصنف من بين الكتب الأخلاقية ذات الأصول العرفانية، إلا أنه لا يعتمد أسلوب الوعظ والتذكير إلا في موارد محدودة؛ حيث تم التركيز على الهدف الأساسي وهو بناء رؤية واضحة وشاملة للمنهج الإسلامي في التربية والتكامل. إنه كتاب للبناء وهو يبدأ من القواعد. وقواعد كل بناء أخلاقي وقيمي في المدرسة الإلهية هي العقل. ولعل الحديث المشهور أن الله تعالى ما بعث نبياً قط حتى أكمل له العقل إشارة إلى هذا المطلب.

ورغم النقص الحاصل في مثل هذا البناء وبقاء الحاجة إلى لغة تخاطب الروح والقلب وتعظ النفس والفكر، فإن إقبال الشباب وشوقهم إلى

هذه المعارف كان يسد هذا النقص ويضفي على تعاليم الكتاب روحاً خاصة، لم يتمكن الكاتب ـ ورغم إعادة تحرير الكتاب عدة مرات ـ من تدوين أو تسجيل انعكاس تلك الروح الشفافة بالقلم والحبر.

إن خطاب العقل بالنسبة لمن يعيش قدرا معتدا به من الإقبال والصفاء (وهو حال معظم شبابنا) لا ينحصر في إطار التأثير النظري. فغالبا ما كان الكشف العلمي عند هؤلاء سبباً في تحولات معنوية مميزة. وفي المقابل كان الإفتقاد إلى الرؤية السلوكية الواضحة يعد عائقاً كبيراً أمام نشوء وتشكل الشخصية السلوكية الروحانية.

إن التوجهات المعنوية المتمثلة بالدرجة الأولى في الإقبال على الله والرغبة الشديدة في توثيق عرى الإرتباط به تعد من الأمور الفطرية البارزة في الشباب. وهذا الإقبال أقوى بكثير من الرغبة أو النزوع إلى التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل الذي بطبيعته يتطلب مجاهدة وجداً ليسا من خصائص هذه المرحلة العمرية في مجتمعاتنا.

ولهذا فإن الحديث عن العرفان والسير والسلوك كتجليات حضور الله والإرتباط به لا زال يلقى تجاوباً منقطع النظير. ومثل هذا التجاوب والإقبال يمثل أحد حصون القيم الدينية والمسلكية في عالم تجتاحه الشهوات الرخيصة والقيم الدنيوية الدنية.

ولهذا وغيره، لا ينبغي أن نحكم بشكل نهائي على التجربة المعنوية للشباب لمجرد عدم ظهور آثار العرفان وتجلي السير المعنوي في أخلاقهم وطباعهم. فالمجاهدة والمواجهة المريرة مع النفس الأمّارة ومخالفة الطباع السيئة لا تحصل دفعة واحدة وفي بيئة بعيدة عن قيم السعي والمثابرة والجدية.

كثيرا ما شاهدنا أن تعظيم هذه القيم المعنوية والعرفانية رغم ضآلة أثره على مستوى السلوك والأخلاقيات، يعود مجدداً لينقذ صاحبه ولو بعد حين.

إن هوية كل إنسان تنبع بالدرجة الأولى من القيم التي يعظّمها ويتبناها، وإن شخصيته تتبلور من خلال التجارب التي يعيشها على مدى عمره. فإذا كان أحدنا للقيم المعنوية معظماً ولها في نفسه موقعاً ولمقامات العارفين وحالاتهم غير منكر، فإنه يوشك أن يكون بحكم أحب الصالحين ولست منهم.

الأمل في أن يساهم هذا الكتاب في طبعته الثالثة التي شجعني عليها شهداء أحياء أرسلوا لي من عالم الغيب رسالة في بيان الرؤية العرفانية للسلوك وبناء النفس وتبني الروحانية الأصيلة. وأن يكون خطوة أساسية على صعيد التكامل والتقرب إلى الله تعالى.

هذه الطبعة الثالثة شهدت مراجعة مستفيضة وتعديلات كثيرة تجعلها مختلفة بشكل كبير عن الطبعات السابقة. وبالنسبة للكاتب تجعل هذه الطبعة ما سبقها من طبعات بحكم المنسوخ.

والحمد لله رب العالمين

عربصاليم آخر شعبان 1429

السيد عباس نورالدين

anourdin@gmall.com



روح البرنامج العملي
الارتباط بالله تعالى



روح البرنامج العملي الإرتباط بالله

مع نهاية هذا الفصل تكون قد تعرّفت على:

- هدف الكتاب ودوره في بيان المنهج القويم.
- المسائل الأساسية التي ترسم معالم النهج المعنوي.
- أن عالم المعنويات الإسلامية لا ينحصر ببعض الملكات النفسانية.
- أن الإسلام بكل أبعاده يمثل المنهج التربوي.
- أن عالم المعنويات في الإسلام يدور حول محور الارتباط بالله تعالى.
- أن كل فضيلة أو رذيلة تقاس على أساس الارتباط بالله.
- أن الله تعالى يفيض على كل مخلوقاته بالفيض المطلق.

نقطة البدء: النقاط المشتركة

قبل أن تتعرّف إلى ما سيقدّمه الكتاب مما ظهر في عنوانه، لا بأس بالوقوف على ما يمكن أن يشكّل الخطوة الأولى في هذا الميدان.

إن الميدان الذي يجول فيه الكتاب، وهو يدعوك إلى الدخول إليه، هو ميدان الأفكار التي تدور حول قضية قد تعتبرها - كما الكاتب - قضية مصيرية وفي غاية الأهمية. وربما لا تكون بالنسبة إليك كذلك، إلاّ أنه من المؤمل أن يكون لها هذه الموقعية في حياتك. والأمل معقود على قراءتك لهذه الأوراق بعناية وذهن متجرّد. إنها قضية معرفة منهج الإسلام في تربية الإنسان وصناعته وتكميله. وهي القضية التي تختصر هدف بعث الأنبياء وإرسال الرسل بالشرائع ونزول الكتب المقدّسة. إنها قضية بَذَل من أجلها أولياء الله العظام كل ما يمكن بذله في هذا العالم، وهي التي عبَّر عنها إمامنا الخميني بقوله: "لقد جاء الأنبياء لصناعة الإنسان. ولم يكن لديهم مهمة أخرى".

ولكن الدخول إلى هذا الميدان الفكري بالحيوية المطلوبة لقطف ثماره، يتطلب بداية أن يكون بينك وبين أفكار وطروحات هذا الكتاب نقطة إلتقاء واشتراك أو أكثر، لتكون سبباً لإقبالك على قراءته والتعرف إلى مضامينه.

هذه النقطة المشتركة هي التي تبعث على التفكر، والتفكر يدل على التذكر، والتذكر يأتي بالمزيد من التفكر، حتى يفتح الله عز وجل عليك أبواب هدايته وسبل رحمته.

فهل أنت باحث عن السعادة؟ أو يهمّك معرفة حقيقتها؟

أو أنك ممن يبحث عن الطريق الموصل إليها؟

أو أنك مهتم بإصلاح نفسك وتهذيبها والتخلص من صفاتها الرذيلة؟

مثل هذه الأسئلة تشكّل أهم النقاط المشتركة التي تربطك بهذا الكتاب بصورة وثيقة. فإذا كنت ممن يعيش هاجس البحث عن أجوبتها أو التدقيق فيما تعرفه عنها، فقد جعلت بينك وبين الأفكار التي سَتُعرض أمامك وصلةً تكاد تكون سبباً في الوصول وبلوغ المرام.

أما إذا كنتَ ـ لا سمح الله ـ من الذين يبحثون عن العلوم والمعارف لأجل التزيّن بها واستخدامها لجلب قلوب الناس أو إرضاء النفس وإشباع الهوى، أو أنك تنظر إلى المسائل المعنوية والأخلاقية نظر اشمئزاز أو إعراض وإنكار، فمن المرجّح أن الاستفادة المرجوّة من هذا الكتاب لن تتحقّق وستكون أفكاره سبباً للمزيد من الضياع والخيبة والحسرة؛ ولعلّ الاستشهاد بهذه الآية المباركة يشير إلى هذه المسألة حينما يكون أعظم كتاب للهداية سبباً للضلالة بالنسبة للبعض:

﴿.. يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾

إن سبب هذا الأمر يرجع في الحقيقة إلى أن الحقائق المعروضة فيه ليست من سنخ الحقائق المتعلّقة بعالم الحس والمادة، والتي يكفي مجرّد توجيه الحواس للتسليم بها، كشروق الشمس واستدارة البرتقالة وأمثالها. إن هذه الحقائق ترتبط بجانب الغيب من وجود الإنسان

وحياته، وتتناول أموراً ليست بمتناول الحس المادي. وإذا أضفنا جهة أخرى إليها، وهي أنها غريبة في مجتمعاتنا، ولا تطرح في الأوساط العلمية إلا قليلا، وكانت في بعض الأزمان مستهجنة، وفي بعضها الآخر منبوذة مجهولة، لعلمنا أن المتوقّع أن تثير في أذهان العديد من الذين لم يطرقوا أبوابها ولم تسنح لهم الفرصة لدخول عالمها أسئلة كثيرة مُحيِّرة.

فأمام هذه المصاعب والعوائق التي تجتمع مع النزعة المادية والإعراض عن الآخرة، يصبح التعرف إلى الحقيقة صعباً جداً، ربما لا يحصل إلا لمن وفقه الله تبارك وتعالى وسبقت له منه الحسنى!

لقد حثّ القرآن المجيد جميع الناس، والرسول يتلو عليهم آياته، أن يتفكروا. وأمر الله تعالى رسولهﷺ أن يُقدِّم للناس موعظة أساسية هي مبدأ المواعظ فقال له:

﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾

ومثل هذا التفكر لا يمكن أن يتحقق بصورته الصحيحة إلاّ إذا أعطى المتفكّر لنفسه الفرصة التي يحتمل فيها الخطأ أو الجهل والغفلة.

فإذا كنت تمتلك نقطة مشتركة مع الكتاب كتلك التي ذكرناها، وسلكت فيه مسلك التفكر الهادئ الواعي، تكون قد وضعت قدمك الأولى في ميدانه الرحب الذي يشمل مجموعة كبيرة من الأفكار العميقة.

إن أية رسالة إلهية تمثل في بعدها التغييري والإصلاحي منهاجاً خاصاً يرتبط بالزمان والقوم الذين يرسل النبي إليهم: ﴿لكل منكم جعلنا شرعة ومنهاجا﴾. حتى إذا جاءت رسالة لاحقة نسخت منهاج الرسالة السابقة وصارت بديلة عنها في أطروحتها التغييرية، وذلك لاختلاف الزمان ومقتضياته. وبقي الأمر على هذا المنوال حتى بُعث رسول الله صلى الله عليه وآله فكانت رسالته خاتمة الرسالات والمهيمنة عليها جميعاً وذلك لصلاحها لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة. ﴿وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه﴾ وقال تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس﴾. فشريعته هي الشريعة الباقية كما قال نبي الإسلام(صلى الله عليه وآله وسلّم): "حلال محمد حلال إلى يوم القيامة وحرامه حرام إلى يوم القيامة".

مقدمات الكتاب

إن المحور الذي ستدور حوله أفكار الكتاب والمبادئ التي ستنطلق منها هي تلك المعارف المودعة في العقيدة والرؤية الكونية الإسلامية. وسيسعى للاستفادة القصوى من الحقائق الوجودية والتعاليم السلوكية

والعملية التي جاء بها الإسلام. وستكون هذه الحقائق بمنزلة المقدِّمات الضرورية لفهم الصورة الكلِّية والمشهد الكامل الذي يرسمه.

تلك المقدمات التي ما فتئ علماء الإسلام الأصيلون يكشفون عنها ويذودون عنها بالبراهين والأدلة القاطعة. بل وبذل أغلى الأشياء وتقديم أعظم التضحيات من أجل بيانها وإيضاحها للناس.

ولقد استطاع العرفاء الشامخون الذين سلكوا مسلك الطهارة وتصفية القلوب والتنزه عن الدنيا والإعراض عن هذا العَرَض الأدنى أن يُبَيِّنوا هذه الحقائق بأبهى صورة وينفوا عنها كل تحريف وتأويل مبطل أو تفسير ناقص. فإنّ الحقائق الرفيعة والمعارف السامية التي هي سرّ كمال القلوب لا تكون من نصيب القلوب المتكدّرة والعقول المشوبة، وما كان نوراً خالصاً لا يشوبه الكدر والظلام، وهيهات لمن انطفأ نور فطرته أن يبصر سر خلقته أو يتسلّق قمم معرفته.

ولا بأس هنا أن نذكر جملة من هذه الحقائق التي هي بمنزلة الأسس والقواعد التي يقوم عليها بحثنا حول منهج الإسلام في تربية الإنسان:

ـ فمنها وأهمها وأعظمها: مبدأ التوحيد، وفق ما حققه أهل الله من العرفاء المكاشفين الذين استطاعوا أن يقتربوا من منبع النبوة ومشكاة الولاية. والتوحيد العرفاني الذي هو توحيد الإسلام، يعني أن الله تعالى هو حقيقة الوجود والكمال، وإن كل ما سواه قائم به ومظهر وشأن من شؤوناته.

ومنها حقيقة الإنسان الكامل أو الولي الأعظم الذي أصبح مظهراً تاماً لأسماء الله وصفاته. وقد جعله الله كذلك لمقام عبوديته التامة وزوال أنانيته وفناء إنيته في محضر الحق سبحانه.

ومنها أن هذا الدين هو الدين الكامل والخالد الذي يشمل بتعاليمه كل جوانب الحياة ويقدِّم للبشرية برنامج الوصول إلى السعادة المطلقة.

ومنها أن فيض الله بالكمال والخير دائم لا انقطاع له، ومطلق لا حد له؛ وأنه تعالى في عطائه قريب وفي جوده لا يغيب، ولا يزال فيضه المطلق متصلاً بكل قريب وبعيد سواء في أصل الخلق وبدء الإيجاد أو ما بعده. فكل موجود إنما بفيضه وجد، وبه يبقى ويتكامل.

ومنها أن المبيّن والناطق بلسان هذا الدين وهو العروة الوثقى والحبل الممدود من السماء إلى الأرض قد ظهر في هذا العالم بصورة الثقلين: القرآن الكريم والعترة الطاهرة.

ومنها أن الإسلام ليس دين الفرد والعلاقة الخاصة بين الإنسان وربّه، بل هو دين بناء المجتمع وسعادته ورقيّه؛ وأن بناء المجتمع لا يتحقق بدون حكومة صالحة عادلة تطبّق الأحكام الإلهية. وأن المسؤولية الاجتماعية المجعولة في الإسلام هي أعلى أنواع المسؤوليات وأجلّها وأخطرها عند الله تعالى. هذه المسؤولية التي تجلت بفريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصارت عنواناً مميزاً لتفضيل أمة الإسلام على سائر الأمم:

﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر..﴾

ومنها أن حقيقة الإنسان بروحه لا بجسده، وأن نفسه المجرّدة تستخدم الجسد كوسيلة ومركب في عالم الطبيعة والدنيا تعبر به إلى عالم الآخرة: إن خيرا فخير وإن شرا فشر. وقد أعطى الله هذه النفس من القابلية ما لا يُحد بحد حتى قال الحكماء: "إن الحقيقة الإنسانية تقبل من الصور ما لا يتناهى". قال تعالى: ﴿في أي صورة ما شاء ركّبك﴾؛ فإلى أيٍّ مقام وصل، وفي أية صورة تشكّل، يبقى استعداده قائماً للوصول إلى ما هو أعلى والتشكل بشيء آخر.

إن هذه الحقائق التي هي بمنزلة المقدمات لفهم الكثير من أفكار هذا الكتاب، يمثّل الاعتقاد بها وفهمها بشكل صحيح قاعدة بناء الشخصية. ومع القليل من التدبر قد نوفّق في طيات فصوله للإشارة إلى العلاقة الوثيقة بين هذه المقدِّمات والنتائج التي يخلص إليها؛ أما تحصيل

البراهين التفصيلية والاطلاع على النقاشات العلمية التي تدور حولها فينبغي أن يُطلب من الكتب الحكمية المفصّلة.

الإسلام هو البرنامج

وحيث أن جوهر البحث يدور حول البرنامج الذي يقدّمه الإسلام لإعداد وتربية الإنسان وتحقيق سعادته، يلزم أن نلتفت بدايةً إلى أن هذا البرنامج المطلوب ليس جزءاً من أحكام الإسلام أو فرعاً من فروعه الكثيرة المتشعبة. بل هو الإسلام كله؛ والإسلام هو البرنامج بكل تعاليمه وأحكامه. وقد تكون بداية الخطأ والإنحراف اعتبار التعاليم التربوية والمبادئ السلوكية فرعا خاصاً إلى جانب الفروع الأخرى كالفقه والعقيدة وغيرها.

فالإسلام الذي يمكن النظر إليه من جهة بأنه مجموعة كبيرة من التعاليم والمعارف، له بُعدان أساسيان. الأول: ما يتعلّق بالحقائق الكونية ـ الوجودية التي يكشف قسم مهم منها عن الواقع الغيبي. والثاني: تلك الأحكام العملية التي ترتبط بسلوك الإنسان وتصرفاته وعلاقاته مع كل الموجودات.

لقد قدّم لنا الإسلام رؤية عميقة حول الوجود عنوانها الأبرز الكشف عن عالم الغيب أو الحقائق والموجودات التي تقع فوق مجال عمل الحواس الظاهرة والأدوات المادية، وأراد لأتباعه أن يرفضوا بشدّة كل خرافة أو وهم يرتبط بالوجود، ودعاهم إلى سبر أغواره للوصول إلى كشف كل الحقائق وفضح كل الأساطير حتى يصلوا إلى مقام، يُعبّر عنه الحكماء والفلاسفة الإلهيون بمقام: "صيرورة الإنسان عالماً عقلياً مضاهياً للعالم العيني".

إن الحقيقة ـ بأي شيء تعلّقت ـ هي المقصد النهائي في مسائل وأبحاث الرؤية الكونية الإسلامية. وكلّما ارتقى الإنسان في سُلّم

الحقائق وكشف الموجودات وأسرارها، كانت مسيرته وفق النظرة الإسلامية تكاملية صعودية.

بيد أن الإسلام حدد لأتباعه الذين يريدون أن يستفيدوا من برنامجه العملي حداً أدنى من المعرفة بهذه الحقائق لا ينبغي الإكتفاء بأقل منه أو إهمال بعضه. وقد بحث علماء الإسلام عن هذا الحد الأدنى طويلاً ولا زالوا، واتّفقت كلمة الفقهاء على أن أصول هذا الدين (التي هي مجموع ما ينبغي أن يعتقد به كل من أراد الالتزام بأحكام الدين وتحصيل فوائدها المرجوّة في الدنيا والآخرة) هي ثلاثة التوحيد والنبوة والمعاد يتفرع منها إثنان هما العدل والإمامة.

إن البرنامج العملي الذي طرحه الإسلام عبارة عن مجموع الأحكام والإرشادات العملية التي تتعلق بكل شؤون الإنسان وحياته. والسمة الأبرز لهذا البرنامج هي تحقيق حالة التسليم والخضوع للإله الواحد الأحد. فإن الإلتزام بهذه الأحكام، وإن كان له آثار طيبة في محلها، إلاّ أن الفائدة الجوهرية التي هي المقصد الأسمى من نزول الشريعة هي إيصال الملتزم إلى مقام العبودية الكاملة التامة لله سبحانه، والذي به ينال الإنسان كماله ويحقق سعادته.

وعلى هذا الأساس، يعتبر الأخذ بالإسلام ككل واحد مترابط شرطاً أساسياً. وبهذه الطريقة يتحقق الالتزام ببرنامجه الإعدادي البنائي. هذا الأخذ ينبغي أن يكون على مستوى النظر والاعتقاد، وعلى مستوى التطبيق والعمل. كلاً بحسب شروطه التي ذكرت في مجالها؛ قال الله تعالى:

﴿.. أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلاّ خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى اشد العذاب﴾، ﴿ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون﴾.

إن النظرة التجزيئية إلى الدين والتي قد تكون مبررة من الناحية

إن كل موجود نتصوره إذا تساوت نسبة الوجود والعدم بالنسبة إليه عُدّ ممكناً. وما كان ممكن الوجود بذاته يستحيل أن يتبدل إلى موجود واجب الوجود يكون الوجود لازماً ذاتياً له ولا ينفك عن تصوره. ولما نظرنا إلى الخارج ووجدنا ما كان ممكن الوجود تصورا، موجوداً علمنا أن وجوده لم يكن من ذاته. أما الموجود الذي لا ينفك الوجود عن تصوره، فإن وجوده لا يمكن أن يكون محدوداً؛ والا لزم أن لا يكون ذاتياً له، لضروره أن الحد والتحديد ليس من فعله وإرادته، ولا يختار الموجود أن يكون محدوداً من تلقاء نفسه.. وعليه يكون وجوده المحدود من غيره، فيلزم منه أن لا يكون الوجود ذاتيا له وهو خلاف ما فرضناه. فصار لزاماً أن يكون الوجود كله له، وهذا هو معنى الوجود المطلق وانحصار الوجود به سبحانه.

التحليلية والتعليمية، لا ينبغي أن تحكم رؤيتنا للإسلام كبرنامج شامل ومترابط. فعندما يُطرح الزهد في الرؤية الإسلامية وتُبين آثاره العظيمة وفضائله التي لا حصر لها، لا ينبغي أن نسرع إلى اعتباره منهج الإسلام وطريقته، بل ينبغي أن ندرسه على ضوء سائر التعاليم والقيم لنصل في النتيجة إلى الرؤية الشاملة.

إن الإسلام هو الحب في الله وفي نفس الوقت هو البغض في الله، وهو الجهاد والمعرفة والزهد والتولّي والتبرّي والعبادة والإحسان والعمل السياسي والخلوة مع الله والدعاء و.. وإن إهمال أي مبدء من مبادئه لصالح مبدء آخر سيؤدّي إلى إحداث ما يشبه التشوه في بناء الشخصية. إن الإلتزام بتعاليم الإسلام يحتم رعاية طبيعة العلاقة التي تربط بينها. فهناك ما هو مبدأ وأصل، وهناك ما يكون فرعاً لأصل. وهنا الظاهر وهناك الباطن وهكذا.. ولعل التحدي الأكبر لكل الباحثين عن النبع الزلال للإسلام المحمدي الأصيل يكمن في معرفة هذا النسيج، والقدرة على تصوير هذا الترابط.





أولئك الذين تعاملوا مع الإسلام يمكن تصنيفهم إلى عدّة فئات:

- منهم من رفض الإسلام كدين إلهي واعتبره نتاجاً بشرياً صرفاً.
- ومنهم من قبل ببعضه ورفض البعض الآخر (جهلاً أم عمداً).
- ومنهم من أخذه كله ولكنه لم يراعِ طبيعة العلاقة بين تعاليمه.
- وقليل من أدرك هذا النسيج الذي يربط هذه التعاليم ليشكّل اللوحة البديعة للإسلام.

إن فهم الإسلام واستيعاب رؤيته الشاملة هو أول مقدمة في طريق إصلاح الذات وبنائها وإصلاح المجتمع وتكامله. وأولئك الذين بدأوا سلوكهم المعنوي ورياضاتهم القلبية انطلاقاً من دراسة الأخلاق الإسلامية فقط، أو تطبيق نصائح العرفاء في مجال السير والسلوك دون

أي شيء آخر، فمن المتوقع أن يتعرضوا لشبهات وأخطاء بالغة. أجل، غالباً إن ما ينجي أمثال هؤلاء تلك النوايا الطيبة التي مثلت دوافعهم الأساسية للسيرالمعنوي؛ وربما تشفع لهم يوم الفاقة إن شاء الله.

بيد أن بحثنا لا يدور حول الحكم على مصير الناس والطيّبين، بل يركّز على المبادئ والقوانين التي جعلها الله تعالى شروطاً حقيقية لبلوغ الغايات. وقد تجسدت بأسرها وبكل أبعادها في حياة وسيرة المعصومين ، الذين أضحوا لنا قدوة وأسوة وميزاناً نميّز به الحق من الباطل ونعرف به المنهج القويم من المعوج.

فلا ينبغي أن يغيب عن أذهاننا أن لكل حكم في الإسلام أثراً طيباً في الدنيا حتى لو طبَّقه الكافر. وعلى سبيل المثال، قد يسلم الكفار من مرض جنون البقر لو التزموا بالذبح الشرعي الإسلامي. وهكذا إذا جئنا إلى الأذكار والعبادات الإسلامية والمناسك المختلفة؛ فمن المحتوم أن من واظب على إقامة الصلاة بحضور قلبي ستشع في باطنه أنوار قدسية وتصفو همته وتعلو، وربما يشاهد من الحقائق الغيبية ما لا يحصل للمجاهد المحارب في سبيل الله. هذا، بالرغم من أن هذا المصلي قد يكون تاركاً لأعظم الفرائض وأجَلِّها كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر! وما يعنيه هذا الترك من جلب سخط الله ونقمته.

الذين اعتبروا أن غاية السلوك الإسلامي أو صحته تتوقف على حصول الكرامات ونيل الكمالات المحدودة كانوا عرضة للوقوع في هذا الاشتباه الخطير؛ ويتصورون أنه ما دام العبد من أهل الكمالات الروحية أو الحالات القلبية أو القدرات الغيبية، فهو على حق ومن أهل التوفيق. وقد يتصور قليل العلم أو ضعيف الخبرة أن عدم ظهور هذه الكمالات عليه دليل على الخطأ في المسير؛ علماً بأن من الفتن الكبرى والإختبارات العظمى أن يحجب الله تعالى عن عبده الكثير مما وصل إليه من كمال، مع كونه سالكاً طريق الصواب وماشياً على الصراط

المستقيم، بل ويظهر له كمالات غيره ممن أخذ ببعض الإسلام وترك بعضه الآخر..

كل ذلك ليرى هل أنه يعبده حقاً لأنه أهل للعبادة أم يعبده لأجل نيل حظوظ النفس وكمالاتها.

والواقع أن من أدرك الروح الحقيقية للإسلام التي تتمثل في العبودية التامة والتسليم المطلق، لن يقع في مثل هذا الاشتباه أبداً. لأن همّه الأكبر سيكون منصرفاً عن حظوظ النفس مهما كانت عظيمة، إلى معرفة الدين وتطبيق أحكامه في مختلف شؤون حياته.

ولا شك بأن لسلوك طريق الحق والصراط المستقيم علامات وآثار عظيمة في النفس والروح؛ وإن أعظم ما فيها أن يدرك العبد السالك معني العبودية ويعيشها بقلبه وسرّه، ويأنس بذكر الله ولا يقدم عليه شيئاً، ويعلم أن الدعاء أعظم من إجابة الدعاء، وأن الصلاة أهم من نيل الكمالات..

المحور المركزي: الارتباط بالله تعالى

ليس من المبالغة في شيء إذا اختصرنا الإسلام كلّه بهذا العنوان. فكل من له أدنى إلمام بتعالم الإسلام وأحكامه يعلم بأن الأصل الأولي والمحور المركزي الذي تدور حوله هذه التعاليم هو تحقيق الارتباط الصحيح والعميق بالله تعالى؛ ولعله بعبارة أدق: معايشة حقيقة هذه الرابطة الإلهية. وأن تعابير الإخلاص والقرب ولقاء الله والولاية وأمثالها، والتي هي نقاط مركزية بالغة الأهمية في الدين، هي تجليات هذه الحقيقة المحورية.

فإذا جئنا إلى حقائق العالم وكائناته، وكل ما فيه وأسراره، نجد أنها جميعاً بمنزلة الآيات الدالّة على الله سبحانه. فالجنة والنار والآخرة

والأنبياء والأوصياء والعوالم الطبيعية والمجردة، بكل ما فيها وما يجري عليها من حوادث ووقائع، هي آيات الحق سبحانه. كلٌ منها يوجه الإنسان نحو مبدأ المبادئ ليجعل فكره وقلبه، روحه وسرّه متوجهة نحو المطلوب.

وإذا جئنا إلى الأحكام المنبثقة منها، من عبادات وطاعات أو نواه ومكروهات، لوجدنا أن كل حكم فيها إنما يعطي روحه من النية التي تصاحب تطبيقه. والتي عبّر عنها بقول رسول الله ﷺ: "**إنما الأعمال بالنيّات**". وهذه النية إنما تكون كذلك فيما لو اتجهت وتعلقت وانحصرت بالله جل جلاله.

فالحقائق التي هي آيات، والأعمال التي هي قربات والنوايا التي هي توجهات، تريد أن تحكم العلاقة بين الإنسان وخالقه. وليس الإسلام سوى هذا. فالاسلام الذي هو دين السعادة المطلقة لا معنى له إلا في ظل هذه الرابطة، لأن الله أصل كل خير ومصدر كل كمال.

وإذا اتضحت هذه الحقيقة، شعت أنوار الحقائق الأخرى، ودبّت الروح في جسد التعاليم الإسلامية كلّها، وأمكن لنا أن نتقدّم خطوة ثانية واثقة ثابتة على طريق الكشف عن منهج الإسلام التربوي - السلوكي.

ولأن الوجود أصل كل خير ومنبع كل شرف وكمال، وكل ما هو كمال واقعي يرجع إليه بالضرورة كان واجب الوجود بالذات صاحب كل كمال بل عين الكمال المطلق وكل كمال فهو منه تعالى، بل مظهر كماله.

ولنبدأ هنا، من تحليل ودراسة نفس هذه العلاقة بالتفكر في حقيقة طرفيها.

الطرف الأول هو الله سبحانه. فمن هو؟ وما هي حقيقة ارتباطه بالانسان؟

والطرف الثاني هو الإنسان. فما هي حقيقته؟ وماذا ينال من وراء الارتباط بالله تعالى؟

الله

الله هو الخالق لكل عوالم الوجود، وبه تقوم الأشياء وتستمر وتتكامل، والخير والكمال له على نحو الإطلاق، وهو المنزّه عن كل نقص وعيب:

﴿وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله﴾

﴿لا يَعْزُبُ عنه مثقال ذرّة﴾

﴿وهو معكم أينما كنتم﴾

﴿ونحن أقرب إليه من حبل الوريد﴾

فهو سبحانه وتعالى مُتّصل وبمنتهى البساطة بكل ذرات الوجود، قريب من الإنسان قرباً لا يخطر بوهم ولا يُتصور بذهن. وهو عزّ وجلّ المفيض بكل كمال على نحو الإطلاق:

﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾. فهو الذي لا حد لجوده ولا مانع لفضله.

﴿إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾. فما من مخلوق إلا وهو مشمول برحمته التي وسعت الأشياء كلها:



﴿.. ورحمتي وسعت كل شيء﴾.

وقال تعالى:

﴿... بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾.

وكل موجود أو مخلوق، حيث أنه متصل بالله تعالى والله متصل به، فهو متصل بفيض الله المطلق؛ دون أن ينقص إتصاله هذا من الإفاضة الإطلاقية للحق تعالى على غيره من الناس شيئا. فكل مخلوق موصول بالكمال المطلق بل هو عين الربط والإتصال، وفي نفس الوقت لا يزاحم

أحدٌ أحداً. وإن حقيقة الاتصال والقرب من جانب الله ليست سوى الإفاضة المطلقة.

﴿وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾.

ولا يكون الشيء نعمة لمخلوقٍ ما لم يكن مفيداً ونافعاً له. وعليه، حيث أن الآية الشريفة ذكرت بلِسان التأكيد أنه لو قام كل إنسان بتعداد النعمة لن يقدر على إحصائها (لأنها فوق حد الإحصاء، وهو أحد معاني الإطلاق)، يعلم إذن، أن الله تعالى يفيض على كل إنسان بالخير والنفع والكمال اللامحدود.

وسيتضح لك أيها العزيز أن التمسك بهذه الحقيقة واستحضارها في كل شؤون حياتك العلمية والعملية سيكون عاملاً أساسياً لحل جميع المشاكل ومفتاحاً رئيسياً لكل المعضلات التي ستواجهك. إن أهل الله قد جرّبوا مثل هذا الأمر فوجدوه عظيم النفع، وخصوصاً عندما تنزل بهم المصائب، أو يواجهون المصاعب. وليس من المبالغة القول بأن الغفلة عن هذه الحقيقة هي السبب لكل آلام البشرية ومشاكلها.

الإنسان: الطرف الآخر

لكل إنسان حقيقة وواقع. قد تخفى على البعض حقيقته فينغمس في واقعه المحدود فيفقد القدرة على معرفة ما أودع الله فيه من قابليات. ويمكن أن نقول أن لكل إنسان جهتين: واحدة وهي أصله الذي جاء منه والتي يعبَّر عنها بالجهة الحقية أو الإلهية. والثانية هي ما يكون عليه عندما يذهل أو يغفل عن أصله، وهي الجهة المقيِّدة لتلك الحقيقة، والمعبر عنها بالجهة الخَلقية. يقول العارف أن الخلق هو حجاب الحق؛ ويقصد بذلك أن من قصر نظره على بعده المادي وحياته الدنيا، لن يتمكن من مشاهدة الحقيقة التي نشأ منها.

إن الجهة الغيبية التي هي جهة الإتصال بالألوهية كامنة فينا؛ ولا تظهر لنا إلا بعد أن نتحرر من الجهة الخلقية ونحطم قيودها. تلك الجهة الأصيلة تكون عند أكثر الناس كامنة ليس لها إلا شكل الاستعداد البحت الذي لا يتفتح إلا في ظل الاتصال الواعي والارتباط الوثيق بالأصل والمنشأ، وهو الله تعالى. ومن الملاحظ أن أكثر الناس لا يعملون على إخراج الاستعدادات الهائلة المودعة فيهم من حالة الكمون إلى الفعلية والتحقق؛ فتبقى مرتبتهم في الوجود منحصرة في البعد المادي الذي لا يبقى بل يزول. ولعله إلى هذا المعنى يشير ما في الآية الشريفة: ﴿..قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم ..﴾.

إن البرامج الإلهية التي ظهرت بفضل حضور الأنبياء ودعواتهم وتضحياتهم التي لا تقدر بقدر، لم يكن الهدف النهائي منها سوى تربية البعد المعنوي في الإنسان وإرجاعه إلى حقيقته وربطه بأصل وجوده.

كما أن بعض الآيات الشريفة التي تحدَّثت عن الإنسان كانت تشير إلى حقيقته قبل تنزله إلى عالم الدنيا. ولعل أبلغ آية في هذا المجال تلك التي ذكرت أن الإنسان هو من روح الله سبحانه ﴿ونفخت فيه من روحي﴾.

لم يكن الانسان إنسانا لولا هذا النفخ الإلهي. إن الجسد الخالي من الروح لا حياة له ولا معنى. وإن جميع المعاني الجميلة التي تظهر فيه إنما هي بفضل هذه الروح التي يجهل الكثير عنها. وليست الروح من سنخ المادة وخصائصها المقيدة بالزمان والمكان والتصرم والحدثان.

ومن جانب آخر إذا أردنا أن نفهم الانسان، لا ينبغي أن نغفل جهة فقره واحتياجه. فهي الموجه لبوصلة مسيرته. ويمكن أن يُعرف هذا المخلوق من خلال شعور الاحتياج الكامن فيه والذي اختصرته الآية الشريفة بقوله تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد﴾.

الفقر مفهوم نسبي لا يمكن تحديده إلا بالقياس إلى الغنى الذي

يقابله. فمستوى الفقر في البلدان النامية يختلف عن البلدان المزدهرة أو ما يقابلها من البلدان الفقيرة. فلعل الفقير في اثيوبيا هو من لا يملك عشرة دراهم. ولا شك بأن مثل هذا المبلغ لا يعني شيئاً لشخص يعيش في السويد. الانسان إذاً، ليس فقيراً فحسب، بل هو فقير إلى الله. أي مفتقر إلى الغني المطلق، وليس لاحتياجه حد محدود.

إن حقيقته هي التي تنادي من أعماقه وتطلب منه أن يرجع إلى أصله. روحه المقيد بحجب الدنيا يناديه من وراء أستار الحجب الكثيفة، طالباً الرجوع إلى مبدئه.

وهكذا، فإن للحقيقة الانسانية بعدين مهمين: الأول التجرد؛ والثاني هو الاطلاق. وللإقتراب من فهم معنى التجرد، من المناسب أن نتأمل في خصائص المادة نفسها؛ فالعالم المادي الذي نعيش فيه هو من الوسع بما لا يتصوّره إنسان. لا يزال العلماء الذين يكدحون ليل نهار لسبر أغواره يتحدّثون عن مسافات فيه تصل إلى مئات مليارات السنوات الضوئية! (السنة الضوئية الواحدة مسافة تعادل كل ثانية فيها 300000كلم). فلا يمكننا بهذه البساطة أن نتصور حدود هذا الكون المادي؛ فكيف بتصور النفس المنعتقة من قيوده والمجردة عن حدوده!!

إن حقيقة الإنسان بل حقيقة كل موجود متقومة بالله؛ فهو سبحانه القائم على كل نفس، والحي القيوم..ويعبر عن هذه الرابطة والحقيقة بالروح التي هي من سنخ عالم اللاهوت أي عالم الإله. ولولا هذا الربط لما وجد أي موجود. فسفر الإنسان في الواقع عبارة عن الرجوع إلى حقيقته وبعبارة أخرى اكتشاف روحه. ﴿وإن إلى ربك الرجعى﴾.

من معاني تجرد النفس الناطقة الإنسانية عن المادة، تحررها من قيود المادة وهما الزمان والمكان. ولهذا، فإن السعي للقيام بأية مقارنة بين النفس المجردة والكون الزماني يدل على عدم فهم أبسط معاني التجرد. لأن المقارنة مع المادة مهما عظمت يعني أننا لا زلنا نتصور الطرف الآخر مادياً، ونسعى لوضعه في قالب مادي حتى نتمكن من الاستنتاج. إن التصور الساذج بأن النفس تعيش داخل البدن، أو ضمن حدوده يحكي عن عدم قدرتنا على تصور التجرد الذي نبحث عنه. وإنما سمي التجرد كذلك لأنه انعتاق وتحرر من القيود التي تجرد منها. فالمتجرد من المادة لا يتأطر بأطر المادة، والمتجرد من عالم المثال لا يحده مثال أو خيال، وهكذا.. ولعل قوله تعالى: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ بعد ذكر مراحل

النشوء وأطواره المادية، يشير إلى البعد المجرد الذي هو نشأة أخرى غير هذه النشأة المادية.

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

ومن هذه الجهة يمكن أن نلاحظ تقارب معنى التجرد والإطلاق. وقد يعطي التجرد معنى الإطلاق إذا التفتنا إلى جهة الفقر والاحتياج؛ فلما كان الإنسان بذاته لا يملك شيئاً من ذاته، وفي نفس الوقت يمتلك من القابلية والاستعداد لنيل ما لا يتناهى من الكمال أمكن أن نشبهه بالوعاء اللامحدود؛ وكأن ما في أعماقه صراخ وعطش وجوع لا حد له ينادي طالباً للإرتواء الذي لا يجد معينه في هذا العالم.

لاحظوا ما يقوله مولى الموحدين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام بشأن قلوب الناس التي هي حقائق الناس: **"القلوب أوعية"** ؛ ثم يبين عليه السلام أن وعاء الانسان لا حد له لأنه وعاء العلم: " **كل وعاء ينضح بما فيه إلا وعاء العلم**". ولأن العلم ليس له حد، فإن القلوب في سعتها ليس لها حد أيضاً.. إن جميع الأوعية المادية في هذا العالم مهما بلغت من الضخامة والسعة، ستنضح في نهاية المطاف، لأنها محدودة. لكن وعاء القلب المجرد لن ينضح ولن يمتلئ، لأنه وعاء العلم المجرد. لاحظوا الحديث القدسي **"لم تسعني أرضي ولا سمائي ولكن وسعني قلب عبدي المؤمن"**، فهو أشارة واضحة إلى أن القلب لا يمكن أن يقارن بسعة السماء والأرض؛ لأنه غير مادي، ولأنه غير مادي فهو مطلق أيضاً. لكن لما كان الكمال، أي كمال كان، ليس ذاتياً له، فهو في فقره الذاتي واحتياجه الأصلي مفتقر إلى ما لا حد له.

يقصد بتجرّد النفس الإنسانية تحررها وانفكاكها عن القيود المادية كالزمان والمكان. ولا شك بأن للمادة حقيقة هي السر وراء ظهورها وتحققها. ومثل هذه الحقيقة أيضاً ليست المكان والزمان، لأن الزمان والمكان هما تقيّد تلك الحقيقة. وبعبارة أخرى إن تقيد تلك الحقيقة بالزمان والمكان ظهر بصورة المادة وعالم المادة. فالرجوع إلى الحقيقة يقتضي التحرر من قيود المادة وحدودها علماً وعملاً وحقيقة. وهذا أحد معاني السفر المعنوي.

فعندما نتفكر في حقيقتنا ونحطم قيود الأوهام والتصورات الحسية التي حبسنا أنفسنا فيها، سنتعرف على ما أودع الله فينا من قابليات لا حد لها، لأن هويتنا هي الإحتياج اللامتناهي.

ولما كان الطرف الأول لهذه الرابطة هو الله ذا الفيض والجود

والعطاء الذي لا حد له ولا منتهى، وكان الطرف الثاني هو الانسان صاحب الوعاء اللامحدود الذي يطلب من أعماقه كل خير وكمال، فلماذا لم ينل هذا الفيض، بل بقي على ما هو عليه من المحدودية والنقص؟!

ولا شك بأن هذا السؤال لا يشمل جميع الناس، لأن منهم من وصل من الكمال إلى ما لا يتناهى، وعليه سيتوجه السؤال إلينا نحن الذين لم نستفد من سريان هذا الفيض واتصاله بنا؛ يقول الإمام الخميني قدس سره مشيراً إلى الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله: "**وهو صاحب مقام الخاتمية الذي هو الكمال على الإطلاق**" .

لماذا استطاع هؤلاء دون غيرهم أن يملأوا أوعيتهم بالفيض الساري في كل أرجاء الوجود. وبعبارة أخرى، ماذا فعلنا نحن حتى صرنا على ما نحن عليه من الكمال المحدود، ولم نملأ أوعيتنا إلا بالقليل الذي هو بمنزلة اللاشيء. أليس هذا هو الخسران المبين؟!

أسئلة تتطلب أجوبة واضحة. وهذا ما ستتكفل به الفصول الآتية.

وصية الإمام لابنه





بني:

أرى أنك تظهر الانزعاج والقلق أحياناً من التهم الباطلة والشائعات الكاذبة لذا وجب أن أقول لك أولاً: بأنك ما دمت حيّاً ترزق، وما دمت متحركاً وذا تأثير بنظر الآخرين فلا مناص من توجه الانتقاد والتهم والشائعات المختلفة نحوك. فالعقد كثيرة والتوقعات متزايدة والحسد كثير والفعّال حتى إذا كانت فعاليته خالصة لله لن يمكنه تفادي تجريح أهل السوء.

أنا شخصياً أعرف عالماً تقياً جليلاً لم يكن يذكر قبل اعتلائه مقاماً بسيطاً إلاّ بالخير نوعاً ما وكان أهل العلم وغيرهم سَلَماً له تقريباً حتى إذا توجّهت إليه النفوس وحصل على شخصية دنيوية ولو أنها لا تكادُ تذكر بالنسبة إلى علو مقامه المعنوي أصبح مورداً للتهمة والأذى وتأججت نيران الحسد والحقد تجاهه بألوان مختلفة، وظلّ حاله هكذا إلى آخر عمره.

كما يجب أن تعلم ثانياً: إن الايمان بوحدة الإله ووحدة المعبود ووحدة المؤثر لم يلج قلبك كما ينبغي، فلتسع في إيصال "كلمة التوحيد"، أعظم وأسمى جملة، من عقلك إلى قلبك فإن حظ العقل لا يعدو ذلك الاعتقاد البرهاني القاطع الذي إن لم تصل نتيجته إلى القلب بالمجاهدة والتلقين فإن أثره وفائدته يكادان لا يذكران. وما أكثر ما يكون البعض من أصحاب البرهان العقلي والاستدلال الفلسفي أشد عرضة من غيرهم للوقوع في شراك إبليس والنفس الخبيثة "أرجل الاستدلاليين من خشب" ولا تصبح هذه القدم البرهانية والعقلية قدماً روحانية وإيمانية إلا حين انتقالها من أفق العقل إلى مقام القلب، وقبول القلب ما أثبته الاستدلال عقلياً.

بني:

عليك بالمجاهدة لتسلم قلبك بين يدي الله، فلا ترى بعد ذلك مؤثراً سواه؛ أفلا يصلي

عامة المسلمين المتعبدين في اليوم والليلة عدّة مرات ويرددون في صلواتهم "**إياك نعبد وإياك نستعين**" فيخصون الله تعالى قولاً بالعبادة والإعانة إلاّ أنهم يتذلّلون لكل عالم أو قوي أو ثري ويعاملونهم أحياناً بما لا يعاملون به حتى المعبود، ويستعينون بأيّ كان، ويستمدون منه، ويتوسلون بكل تافه لأجل تحقيق مقاصدهم الشيطانية غافلين عن قدرة الله؛ ولا يستثنى من ذلك سوى ثلّة من المؤمنين الحقيقيين وخواص الله.

وبناءً على احتمال أن الخطاب موجّه إلى الذين بلغ الإيمان قلوبهم، إن الأمر بالتقوى يختلف عنه في الاحتمال الأول. فهذه التقوى ليست اتقاء الأعمال غير اللائقة بل تقوى عن التوجه إلى الأغيار. تقوى عن استمداد غير الله وعن العبودية لغيره. تقوى عن فسح المجال لغيره جلّ وعلا إلى القلب، تقوى عن الاتكال والاعتماد على غير الله.

بني:

لا تسع للحصول على الدنيا أبداً حتى الحلال منها فإن حب الدنيا حتى حلالها رأس جميع الخطايا وهو حجاب سميك يضطر الإنسان إلى الحرام منها. فأنت شاب تستطيع بما حباك الله به من القوة منع أول قدم نحو الانحراف، فتمنع بذلك من التحاقها بخطى أخرى، فلكل قدم قدم أخرى تتلوها. وكل ذنب مهما صغر يجر المرء نحو ذنوب أكبر، حتى تستحيل الذنوب الكبيرة في نظره لمماً يستهان بها، بل قد يبلغ الأمر بالبعض أن يفتخروا بارتكاب بعض الكبائر؛ لا بل قد يصل الوضع بالبعض الآخر إلى حد يجعلهم يرون المنكر معروفاً والمعروف منكراً، نتيجة شدّة وتكاثف الظلمات والحجب الدنيوية.

من كتاب الوصايا العرفانية – الإمام الخميني



في الفهم والتحليل

1. [illegible]

1. **المقصود من النهج الفكري:**
أ. المعلومات السهلة.
ب. المعلومات الصحيحة.
ج. البعد النظري للأفكار.
د. مجموعة الأفكار المنسجمة والهادفة.

2. **إن السؤال عن الحقيقة التي كنا عليها يعني:**
أ. كيف كنا قبل عشرين سنة.
ب. كيف كنا قبل الولادة.
ج. القابليات الأصلية المودعة فينا.
د. من هو أصل وجودنا.

3. **يؤثر الزمان في الاهتمامات المعنوية:**
أ. لأن الكتب تنتشر كل يوم.
ب. لأن التكنولوجيا تسهل حياة البشر.
ج. لأنه يقدم للناس اهتمامات مختلفة.
د. لأن الناس لا يحبون المعنويات.

4. **من الأسباب التي أدّت إلى ابتعاد الناس عن المعنويات:**
أ. تصورهم أنها أمور هامشية.
ب. التزامهم بالأحكام الشرعية.
ج. عدم قراءة كتب الأخلاق.
د. عدم حضور الدروس الأخلاقية.

5. **الفكرة الأصح هي:**
أ. الأخلاق جزء من الإسلام.
ب. الإسلام كله يمثّل عالم المعنويات.
ج. الأخلاق لا دخل لها بالسياسة.
د. الإسلام لا يمتلك رؤية أخلاقية متميزة.

6. **أهم فكرة تعبر عن جوهر التعاليم الأخلاقية:**
أ. وصول الإنسان إلى المعنويات.
ب. تحلّي الإنسان بالفضائل.
ج. التخلّص من الرذائل الأخلاقية.
د. الارتباط بالله تعالى.

7. **يمتلك الإنسان قابليات غير محدودة:**
أ. لأنه وعاء غير محدود.
ب. لأنه أفضل من الحيوانات.
ج. لأن عطاء الله ورحمته غير محدودين.
د. لا يمتلك الإنسان قابليات غير محدودة.

8. **امتلاك الإنسان للقابليات اللامحدودة يعني:**
أ. إمكانية نيله الفيض الإلهي المطلق.
ب. امتلاكه الطاقات اللامحدودة.
ج. تساوي جميع البشر من حيث الاستعداد.
د. تساوي جميع البشر من حيث القدرة الحالية.

9. **التعريف الدقيق للرذيلة هو:**
أ. الكذب والنميمة والغيبة.
ب. كل ما يراه الناس عيباً.
ج. حالة نفسانية سيئة.
د. كل ما يبعد عن الله تعالى.

10. **تجرد النفس يعني:**
أ. خروجها من الجسد.
ب. أنها تسكن الجسد ولكنها غير مرئية.
ج. تحررها من قيود المادة.
د. أنها طليقة في الهواء.

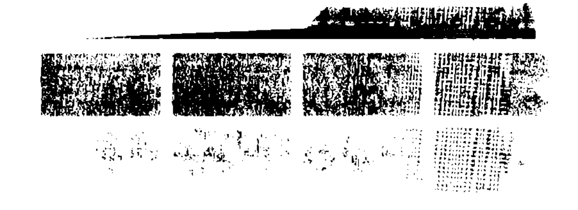
2. [illegible]

تجرد النفس. الجهة الحقية للإنسان. الجهة الخلقية للإنسان. السير المعنوي. النعمة. المادة. الرؤية الكونية. الفعلية والتحقق. العرفان. شؤون الله. مظهر الاسم الإلهي. العالم العقلي. العالم العيني. الكمالات الروحية. حظوظ النفس. عين الربط.

3.

التوبة ـ الصلاة ـ التوحيد ـ الملائكة ـ الجنة والنار ـ ولاية الفقيه ـ الجهاد ـ الشكر ـ الإنسان ـ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ السموات ـ الأرض ـ الزهد ـ معرفة الله وصفاته، التوكل ـ الكرم ـ المعجزة

حقائق وجودية



4. صل بين العمودين

1. الإخلاص	أ. من الواجبات السياسية للحج وهو ركن من أركان التوحيد
2. الخشوع والخشية من الله	ب. شرط للإخلاص
3. التقوى	ج. ثمرة معرفة الله تعالى والإيمان به
4. الجهاد	د. مقدمة للجهاد
5. الارتباط بالله	هـ شرط لقبول الأعمال
6. الزهد	و. شرط لصحة الأعمال
7. معرفة الغاية	ز. وسيلة للاستغناء عن وعدم الخضوع للحكام الظالمين
8. تأدية العبادات وفق الأحكام الفقهية	ح. برنامج الإسلام للوصول إلى الله تعالى
9. الهجرة	ك. في مقدمة جميع الأحكام لأنه حافظ للمبادئ والأصول
10. إعلان البراءة من المشركين	ل. الغاية من جميع تعاليم الإسلام

5. [illegible]

1. الهدف النهائي للتعاليم الأخلاقية التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل.
2. الأخلاق هي عبارة عن مجموعة من الأحكام الإسلامية الخاصة بتهذيب الباطن.
3. إن نيل الكرامات والحالات المعنوية هو المعيار على صحة السير والسلوك.
4. الارتباط العميق بالله تعالى يتحقق برجوع الإنسان إلى هويته الأصلية التي هي الروح.
5. إن البلاءات التي تنزل بالإنسان تمنع من وصول النعم الإلهية إليه.
6. الجسد هو أداة الروح في عالم الدنيا لنيل كمالاتها.
7. لا يصل أغلب الناس إلى السعادة المطلقة لأنه لا يتاح لهم الحصول على كل ما يرغبون.
8. الهدف من دراسة الأخلاق هو الشعور بالحالات القلبية والمعنوية العالية.
9. امتلاك الإنسان للقابلية المطلقة يعني أنه لا حد للترقي والتكامل.
10. القول بأن فيض الله مطلق يعني أن هذا الفيض من الوسع بما يكفي لينال كل أحد جزءاً منه.

6. [illegible]

احتجابه، العملي، فيض الله، قائم، روحه، المادي، الاعتقاد، تجرد النفس، الدنيوية، الفعل، قابلياته، الفيض المطلق.

- إن برنامج الإسلام لتربية الإنسان وإصلاح المجتمع هو البرنامج الذي يلحظ الإسلام بكل تعاليمه وأحكامه على مستوى   وعلى المستوى   وكيفية ترابط هذه التعاليم مع بعضها البعض.
- معنى معية الله تعالى للإنسان، "هو معكم أينما كنتم"، أن وجود الجميع   به تعالى، أي أن لا أحد يملك شيئاً لنفسه من ذاته، "فكلٌ من عند الله".
- إن اتصال الإنسان بالله تعالى يكون بـ   التي هي هويته الحقيقية، ولكن إذا قصر هذا الإنسان نظره على بعده   وانغمس في الملذات   فإنه يغفل عن تلك الهوية، ويؤدي ذلك إلى   وبقاء   في حالة الكمون. خروج القابليات من القوة إلى   وتحصيل الاستعداد لاستقبال   يكون باكتشاف الإنسان لروحه من جديد عند تقطيع تلك العلائق والقيود المادية وهذا ما يُعبر عنه بـ
- القابليات هي من   وبما أن فيض الله مطلق فالقابليات أيضاً تكون مطلقة.



اعتمد النموذج التالي للإجابة عن السؤال:

الإجابة: (النتيجة المتوخاة)

فكرة داعمة أولى:

فكرة داعمة ثانية:

فكرة داعمة ثالثة:

(الفكرة الداعمة تقدم المعطيات، الأسباب، الأدلة، الآيات، الأحاديث الداعمة للإجابة)

الاستنتاج: (كتابة خلاصة تؤكد على النقطة الرئيسية في الإجابة)

أعد صياغة إجابتك في فقرة.

حمزة رجل عصامي بنى نفسه بنفسه، لا يعتمد على أحد في معيشته. وقد أدرك من خلال التجارب الكثيرة في حياته أن من يثق بنفسه ويعتمد على ذاته سيحقق كل ما يصبو إليه. لديه الآن مشاريع عديدة لكي يقضي بقية عمره في راحة واستقرار.

ما رأيك بشخصية حمزة، وأين نقاط الخلل فيها؟



بالرجوع إلى القرآن الكريم استخرج مجموعة من الآيات تبين شمولية الأحكام لكل شؤون الحياة وضرورة التقيد بها لنيل السعادة والفلاح.





2

الحجب والموانع

ما الذي يحجبنا عن الكمال؟





الحجب والموانع

مع نهاية هذا الفصل تكون قد تعرّفت على:

- السبب الواقعي وراء الحرمان من الفيض الإلهي المطلق
- أن بداية المشكلة تكمن في فهم حقيقة الفيض
- أن مقتضى رحمة الله أن يفيض على الجميع بالقابليات المتساوية
- أن مقتضى كرم الله تعالى أن لا يمنع أحداً فيضه من دون سبب
- أن جميع العوامل الخارجية لا يمكن أن تكون مانعاً تاماً أمام الفيض
- أن الإنسان هو الذي يتحمّل المسؤولية الكاملة عن حرمانه

لماذا لم يصل أكثر الناس إلى اللّه؟

لن يكون صعبا على أي واحد منّا تحديد نقصانه ومعرفة حرمانه، إذا أدرك حقيقة المقام الذي دُعي إليه والعطاء الذي وعد به. ورغم أنه قد يبرر هذا النقصان، أو قد لا يعترف به علناً، إلاّ أنه مقر به في أعماق نفسه:

﴿بل الإنسان على نفسه بصيرةٌ • ولو ألقى معاذيره﴾

إن التعلّق والارتباط العميق بالله سبحانه، والذي يكون سبب الوصول إليه ولقائه، ليس إلا استقبال الخير والكمال المطلق. وبعبارة أخرى، إن الوصول إلى الله تعالى هو عبارة عن الوصول إلى الكمال المطلق. وتفصيل هذا الكلام سيأتي في الفصل التالي بإذن الله.

إن جميع الناس يتمنون من أعماقهم هذه السعادة المطلقة، ويسعون إليها في ليلهم ونهارهم، إلا أن أكثرهم يضلون عنها ولا يعرفون أين هي وما هي شروط الوصول إليها. ففي أعماقهم ذلك الطلب الدائم لها، ولكنهم في سلوكهم غالباً ما يبتعدون عنها.

فقد يتصوّر البعض ـ نتيجة التربية الفاسدة أو التسويلات الشيطانية أو غلبة الأهواء والغرائز الشهوانية ـ أن السعادة المنشودة تكمن في متاع الدنيا وزخرفها، فيسعون إليها بكل وجودهم، ويبذلون لأجلها كل ما بوسعهم، ظناً أنها السعادة النهائية.

ولكن سرعان ما يصدمهم الواقع، ليروا أن كل ما حققوه لم يكن سوى سراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءاً. ولأن في أعماقهم شوقاً دائماً لا تنطفئ شعلته، يشدهم نحو ذلك المقام النهائي والسعادة المطلقة، ولأن ما حصلوا عليه ليس سوى المحدود من لذّات عابرة زائلة، فإنهم يتألمون أشد الألم، ويحزنون أعمق الحزن:

﴿.. كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه..﴾

إن الله تعالى قد زوّد الإنسان بكل ما يلزم للوصول إلى سعادته المنشودة، ويسّر له سبيله. قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **"كلٌّ ميسّرٌ لما خُلق له"**.. فلماذا لم يصل هؤلاء؟، ولماذا يبقى من يبقى في آلامه حتى الممات؛ حتى إذا انكشف الغطاء عن أبصارهم يوم لا ينفع مال ولا بنون، وجدوا أنفسهم في الخاسرين وضلّ عنهم ما كانوا يصنعون.

هل القابليات تختلف؟

هناك من أجاب عن هذا السؤال بأن أكثر الناس لا يمتلكون القابلية أو الاستعداد الذاتي للوصول إلى المقام النهائي، وأنهم ناقصون في أصل خلقتهم، ولهذا لا ينبغي أن نطلب منهم تحقيق ما يفوق وسعهم!

وهذه شبهة رائجة مشهودة في أوساطنا. يُعبِّر عنها أصحابها بتعابير مختلفة. بعضها منمق وناشئ من مقدِّمات علمية باطلة، وبعضها الآخر ليس سوى أوهام محضة. فمن جملة ما يقال في هذا المجال، وفي معرض الرد على من يريد أن يفتح باباً للناس على العوالم المعنوية العالية والمفاهيم العرفانية السامية، أن معظم الناس ليس لديهم الاستعداد لمثل هذه المعارف والمقامات. وهذا الكلام صحيح في شق منه، ولكنه يستبطن أحياناً شبهة تؤدّي إلى سد هذا السبيل وإغلاق أبواب الرحمة الإلهية.

إنه نوع من التبرير للقعود عن نشر معارف الإسلام العظيمة وقيَمه

لا يقصد من الوصول إلى الله تعالى الانتقال من مكان إلى مكان، لأنه تعالى معنا أينما كنا وهو أقرب إلينا من حبل الوريد. والسفر إليه سبحانه لا يتطلب قطع المسافات، فأينما تولوا فثم وجه الله ولهذا يكون المقصود من الوصول الحصول على فيض الله المطلق والتحقق به بعد أن كنا متحققين بالفيض المحدود، وكان أخذنا واستفاضتنا منه محدوداً ومقيداً بأهوائنا وذنوبنا.

العميقة وتسويل للنفس وللغير لعدم بذل الجهد والكدح في سبيل ما كان هدفاً لوجود الإنسان وبعث الأنبياء وإنزال الكتب:

﴿.. يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحاً فملاقيه..﴾.

إنه نوع من الاتهام غير المباشر لله سبحانه وتعالى، ونسبةُ نوع من النقص أو الظلم أو المحدودية لذاته المقدّسة. فعندما يجري الحديث عن الاستعداد أو القابلية الأولية في الموجودات (وعلى رأسها الكائن البشري)، فإنه في الواقع حديث عن الفعل والتدبير الإلهي. خلافاً للحديث عن إنجازات البشر والمقامات التي ينالونها أو الكمالات التي يحصّلونها.

فالحديث عن استعداد الموجودات وقابلياتها لأن تكون في أعلى مراتب الكمال يرتبط بالقدرة الإلهية والرحمة الربانية. إنه حديث عن الخلقة الإلهية والحكمة من الإيجاد. حديث عن الموجودات قبل تشكلها وظهورها في صفحة الوجود. وباختصار أنه جواب على سؤالنا: هل يمكن لله تعالى أن يجعل من أي شيء أي شيء آخر؟ أما إذا كان تقدير الحكمة الإلهية جعل الوصول إلى الكمال لهذا المخلوق أو ذاك موقوفاً على سعيه وحركته، فهو بحث آخر لا علاقة له ببحث القابلية.

ومن المهم أن نميّز بين القابليات الأولية والامكانات الحالية. فمرجع الأولى إلى الله تعالى والثانية إلى الانسان. فلا يوجد إنسان واحد يستحيل على الله تعالى أن يجعله متصفا بجميع صفات الكمال. فمن هذه الجهة يكون مستعدا وقابلا لكل كمال. لكن نفس هذا الانسان قد يعرض عن ربه ويرفض بسوء ظنه وقبح فعله استقبال أي خير حقيقي من الله. فيبدو كأنه فقد أي استعداد لنيل الكمال. ومثل هذا الشخص لو ذكرت له أي معنى يرتبط بالكمال والخير لسخر منه واستهزأ؛ قال الله تعالى: **﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾.**

غالباً ما نقابل أشخاصاً، فلا نرى فيهم أي استعداد لفهم واستيعاب المفاهيم المجردة أو الحقائق الغيبية، وغاية ما يمكن أن يدركوه هو ما يتعلق بالأشياء المحسوسة. وعندما نتفحص فيما إذا كانوا يعانون من مشكلة أو عاهة بنيوية، نجد أن أكثرية هؤلاء ليسوا كذلك، بل مرد ذلك إلى سوء اختيارهم. حتى الذين يفقدون الاستعداد، غالباً ما يكون هذا الخسران بسبب سلسلة من الأعمال والتصرفات والإختيارات التي أودت بهم إلى تلك الحال.

لا شك بأن التعامل مع أمثال هؤلاء يحتاج مرة أخرى إلى رعاية استعداداتهم واعتبار ما فقدوه كامناً، إلا إذا تحول هذا الفقدان إلى حالة بنيوية كالذي يصاب بالخرف والتلف الدماغي، حيث يصبح العمل التربوي والتكميلي معه ضرباً من الحماقة. لكننا إذا سعينا لهدايتهم نحو استعادة قابلياتهم، نكون من سلّاك طريق الأنبياء الذين بعثهم الله تعالى ليثيروا للناس دفائن العقول ويستخرجوا منهم ما أودع فيهم من الفطرة الهادية إلى سبيل الرشاد.

فلا شك أن الناس يختلفون في الاستعدادات الحالية، لكنهم متساوون في القابليات الأولية على أساس أن الوصول إلى الكمال النهائي لا يتطلب أن يمتلك الإنسان شيئاً من ذاته يقدمه ليحصل بالمقابل على الكمال من ربّه. فهل أتى على الإنسان حين من الدهر كان مستقلاً بذاته، ثم استبدل به شيئاً من خالقه؟! أم أن كل ما عنده وجوداً وصفةً هو محض التفضل من ربه؟! فالكمال مهما كان قليلا أم كثيراً ليس سوى محض التفضل من الله تعالى، وكذلك سعي الساعين وجهاد المجاهدين وعمل العاملين وعبادة العابدين وذكر الذاكرين، كل هذه ليست سوى توفيقات إلهية سبقت الوجود والحياة. إن الله تعالى هو مفيض مطلق الكمال، وأي كمال لا يكون إلا له بالأصالة. وجميع الموجودات والكائنات لا يكون كمالها، مهما كان صغيراً أم محدوداً، من ذاتها. فإذا كنا نملك شيئاً على سبيل المجاز فهو ليس سوى استقبال الكمال. بل إن نفس هذا

الاستقبال هو من فيض الرحمن ومواهبه المحضة أيضاً!.

فمن هذه الجهة يتساوى جميع عقلاء العالم من حيث القابلية، لأنها في جنب الله ليست بشيء، وإن كانت بالنسبة للإنسان أمراً أساسياً.. فالقابلية هي القدرة الكامنة التي لم تصل إلى حالة البروز والتفتح، ولم تنتقل إلى مرحلة الفعلية. وإذا أردنا أن نفهم المقصود أكثر نقول مثلا أن الشخص الذي يكون بعيداً كل البعد عن أجواء تعلّم اللغات الأجنبية ويجد صعوبة بالغة في اكتسابها، لو بذل جهداً إضافياً، وعبر المقدمات التعليمية المطلوبة، فلا شك بأنه سيصل إلى إتقانها بعد مدة؛ وذلك باعتراف جميع معلمي العالم؛ هذا، بالرغم من ضمور استعداده وقلة استيعابه مقارنة بالموهوب بالفطرة كما يقال.

فهنا لدينا شخصان: أحدهما يعيش حالة فقدان الاستعداد أو ضموره، والثاني لا يجد أي مشكلة في اكتساب اللغة أو تعلّم أي علم آخر. وبالتالي فهما مختلفان من حيث الاستعداد الفعلي، لكنهما متساويان من حيث الاستعداد الكامن. ودليلنا أن الذي فقد الاستعداد، يستطيع أن يسترجعه بالمثابرة والمجاهدة والسعي الحثيث.

وعلى هذا الأساس، فلكل إنسان في أصل خلقته استعداد فطري كامن للوصول إلى أعلى درجات الكمال؛ وأكثر البحث والجدال يرتبط بالطريقة والوسيلة التي يمكن أن نحي فينا ما مات أو صار في سبات العدم من القابليات والاستعدادات.

وخلاصة المسألة الأولى هي أنه لا بد من التمييز بين القابلية التي تعود إلى خلقة الإنسان وأصل وجوده، وبين الإمكانات الفعلية التي يتدخّل الإنسان في صياغتها.

فالقائلون بتساوي القابليات ناظرون إلى قدرة الله التي لا يعجزها شيء وإلى رحمته التي وسعت كل شيء ويدعون الناس لينظروا إلى أنفسهم وإلى المخلوقات من هذه الزاوية. فلو كنتُ في أسفل سافلين

محتجبا بآلاف الحجب الظلمانية وشاء الحق تعالى أن يرفعني بلحظة واحدة إلى أعلى عليين فلا عجب من أمر الله تعالى إن حدث.

المؤمن الحقيقي هو الذي لا يستبعد أبداً أن يصلح الله شأنه بدون مقدمات منه. وإن كان لا بد من مقدمة لكل خير، فإن هذا الاعتقاد هو أفضل المقدمات؛ "**ما عُبد الله تعالى بأفضل من حسن الظن به**" الحديث.

وإذا كان نظرنا إلى الموجودات من حيث ماهياتها وحظها من الوجود، واعتبرنا الماهيات حدود وجود الأشياء كما يقول الحكماء، فسوف نقول بالتفاوت والاختلاف لا محالة. ولهذا فإن القائلين بأصالة الماهية وسبقها على الوجود، بمعزل عن ماهيات الأشياء ووجوداتها، يلزم من قولهم أن يقولوا باختلاف الإستعدادات قبل الوجود؛ ويكون هذا الإختلاف حتماً مقضياً، قدّره الله في علمه؛ وما على الإنسان سوى القبول والإذعان بالأمر. وربما غفل هؤلاء عن أن هذا الإنسان فيما لو أدرك حقيقة الإختلاف في الفرض المذكور، وشاهد منشأه، فإنه يكون قد وصل إلى الكمال المطلوب..

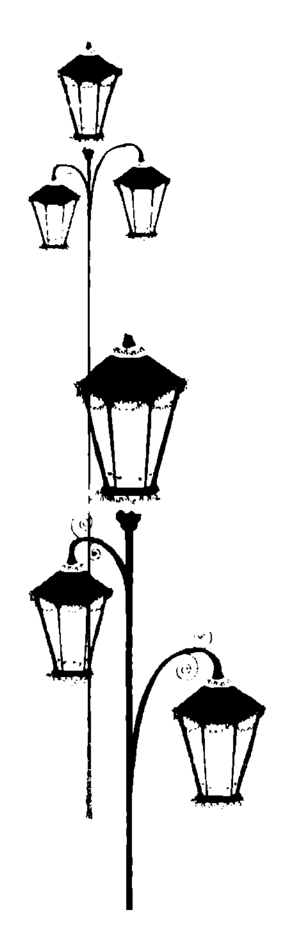
وفي المقابل يرى أهل الله من الحكماء أن جميع الموجودات إنما إكتسبت ماهياتها وحظوظها من الوجود من أصل الوجود الواحد، وأن ماهياتها، وإن كانت متفاوتة من حيث النظر، لكنها ليست كذلك من حيث الوجود وأصله. فكما أفاض الحق تعالى على موجود بحظ من الوجود، وكانت ماهيته تبعاً لهذا الحظ والحد، لكنه تعالى هو القادر على أن يزيد حظه من الوجود وكماله، فتتغير ماهيته، ويتغير استعداده تبعاً لهذا التبدل.

إن جميع أنواع الدرجات والتفضيل الذي ظهرت آثاره في العوالم المختلفة سواء في الطينة أو الأسبقية الزمانية أو غيرها، مما أشير إليه في الأحاديث الشريفة، والذي استتنج منه البعض معنى الاختلاف

والتفاوت في أصل القابلية ليس إلا مظهر الأسبقية الواقعية التي كانت لأهل البيت عليهم السلام في العالم الأعلى، والتي حصلت باختيارهم التام بعد عرض الأمانة وأخذ الميثاق من جانب الحق عزّ وجلّ. وهناك أيضاً كان الجميع متساوين في القابلية بعد أن أشهدهم الله ربوبيته: ألست بربكم؟ وأجاب الجميع بلسان واحد وقالوا بلى. بل يمكن القول أنه لا معنى للأسبقية ما دام الاختلاف في القابلية حاصلا. فأفضليتهم عليهم السلام سواء كانت من جهة الحق تعالى، أم من جهة سعيهم وسلوكهم، لا ترجع إلى التفاوت في أصل القابلية. وإلى هذا المعنى أشار قوله تعالى:

﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة﴾

يقول العلامة آية الله جوادي الآملي: "فالمستفاد من الآية أن جميع الناس من كل صنف ـ سواء الرجال أو النساء ـ (لأن كلمة الناس تشمل الجميع) قد خلقوا من ذات واحدة وجوهر واحد. والمبدأ القابلي في خلق الجميع واحد". "من كتاب المرأة في مرآة الجمال والجلال".



وقد ظن البعض أن سر أفضليتهم عليهم السلام يرجع إلى الطينة وإلى أسبقيتهم في الخلقة، وأن ما جرى في عالم الدنيا إنما كان بفضل الاستعداد الخاص الذي حصلوا عليه دون غيرهم. في حين أن هذه الأفضلية والأسبقية يمكن تفسيرها على أساس تجلي الحقائق العليا في العوالم السفلى. فيكون عالم الدنيا محل تحقق السبق الذي يكتشفه أهل المشاهدة فيما لو أطلعوا على حقائق العوالم العليا. فهذا التفضيل ليس نتيجة الأسبقية في عالم سابق زماناً.

فالطالب المجد الذي درس جيدا سيظهر تفوقه في الامتحان، لا أن الامتحان سيكون سهلا عليه قياسا مع غيره؛ ومن اطلع على طبيعة حياة هذا الطالب المجد وسعيه والمقدمات التي يعمل عليها، يحق له أن يستنتج حصول التفوق قبل ظهوره من خلال الإمتحان.

ومن أراد التوسع في هذا البحث وخوض عباب هذا البحر المتلاطم

يجب عليه أن يعبر المقدمات الحكمية اللازمة ويلتفت في نفس الوقت إلى الإختلاف الكبير في استعمال المصطلحات المتعلقة بهذه المسألة.

إذاً، فالاعتقاد بوجود قابلية مطلقة في جميع الناس يعني أن كل إنسان يحمل في ذاته مشروع الصيرورة ولياً وخليفة لله تعالى، كما يعني أن الله سبحانه قادر على أن يرفع أي إنسان من أسفل سافلين إلى أعلى عليين بلحظة واحدة. ويكون الاعتقاد بخلاف ذلك نوعاً من التعريض والانتقاص من ساحة الذات الربوبية المقدّسة، سبحانه وتعالى عما يصفون.

عليك أن تستحضر هذا المعنى جيداً وتجعله روح عباداتك وأدعيتك. فهو العامل الجوهري الذي يكمن وراء الوصول إلى الجذبة الإلهية، التي ورد بشأنها أنها تعدل عبادة الثقلين. بل إن كل جذبة تشدنا إلى الحق المتعال هي فرع وجود ذلك الاستعداد الكامن فينا، وهي مظهر تحققه في سلوك أي سالك. ولمّا عرف أهل الله هذه الحقيقة لم يهدأ لهم بال، بحثاً عن تلك الجذبة الكبرى التي تريح من عناء المسير وتسهّل كل أمر عسير.

يختلف الناس من حيث الاستفادة من القابليات المودعة فيهم، وقد نظن بسبب ذلك أنهم متفاوتون فيها. وبعضهم يصل إلى مرحلة لا يرجى له فيها أية نجاة لأنه أمات جميع قابلياته. ولكن مع ذلك نقول، طالما أن هذا الإنسان موجود في هذا العالم، فإنه يمتلك الإرادة والاختيار ليرجع إلى الله ويصلح نفسه، وسوف يحاسب على ما بقي من عمره لأنه كان فرصته للتوبة والإنابة.

إن إبليس لعنه الله هدد وتوعد بأنه سيعمل على تغيير أصل خلقة البشر، وجعل هذا الأمر هدفاً أساسياً له:

﴿.. فَلَيُبَتِّكُنَّ آذان الأنعام ولأُمُرَنَّهم فَلَيُغَيِّرُنَّ خلقَ الله..﴾

ووقف الأنبياء في المقابل حاملين لواء التربية الإلهية لبعث القابليات

الكبرى التي أودعت في كل إنسان: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾، كما وصفهم أمير المؤمنينعليه السلام بقوله: "**ابتعثهم ليستأدوهم ميثاق فطرته**".

فالإنسان واقف بين دعوتين: دعوة الأنبياء ودعوة الشيطان. دعوة تدعوه إلى الله الغني المتعال: ﴿**أنتم الفقراء إلى الله**﴾، ودعوة إلى الفقر: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر**﴾. فإذا اتبع دعوة الشيطان يخسر شيئاً فشيئاً الأمل بالاستفادة من القابلية المودعة فيه وبلوغ أي كمال حقيقي، ويتغيّر إلى مخلوق آخر، لأن الصورة الإنسانية هي النموذج الأرقى والمثل الأعلى للقابلية والفطرة التي توجّه نحو الله. يقول الإمام الخمينيقدس سره:

"**إعلم أن الإنسان ما دام في عالم الطبيعة ومنزل المادة الهيولانية فهو تحت تصرفات جنود إلهية وجنود إبليسية... وحيث أن الجهات الربوبية غالبة على الجهات الإبليسية، ففطرة الإنسان في البداية تكون نوراً وسلامة وسعادة وفطرة إلهية.. وما دام الإنسان في هذا العالم فهو قادر على أن يجعل نفسه باختياره تحت تصرف أحد هذين الجندين**".

معراج السالكين، ص 70

إن أصحاب النار يرون حقيقة الحرمان عند مقابلة مصيرهم المشؤوم: ﴿**فلما رأوها قالوا إنا لضالون * بل نحن محرومون**﴾، وذلك أثناء مشاهده ما وصلوا إليه. والمحروم من فيض اللقاء سيقول يوم القيامة: ﴿**يا حسرتى على ما فرّطت في جنب الله**﴾. أما أصحاب الجنة فإنهم يسمعون النغمة القدسية تنبعث من جنة اللقاء ومقام القرب: ﴿**ولدينا مزيد**﴾، مسبحين بحمد ربهم: ﴿**وما كان عطاء ربك محظوراً**﴾ هائمين في دعوة الحق: ﴿**عطاء غير مجذوذ**﴾.

إن المؤمن لا يجرؤ على اتهام الله في عطائه، ويأخذ درساً من المغضوب عليهم: ﴿**فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء**

بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلاً﴾، فلا ينسب إليه العجز أو البخل، وهو يعلم أن معنى الرحمة الشاملة المحيطة بكل شيء هو بسط الكمال وإفاضة الخير على الكل دون انقطاع.

الاحتمالات الثلاثة

وعليه، إذا أردنا أن نجيب عن السؤال الأخير، ونعرف السبب الكامن وراء عدم وصول الكثير من الناس إلى فيض الله العميم، مع امتلاكهم للقابلية اللازمة، نجد أننا نواجه ثلاثة احتمالات:

الأول: أن يكون الله سبحانه هو المانع، بمعنى أنه عزّ وجلّ لا يريد لهؤلاء الوصول إليه وإلى كمالهم النهائي من الأصل.

الثاني: أن تكون الموانع الخارجية هي السبب، بمعنى إلقاء اللوم على الغير دون أن يتحمل الانسان أو الخالق أية مسؤولية بالنسبة لقصوره وعجزه عن بلوغ الكمال المطلوب.

الثالث: أن يكون الإنسان نفسه قد أعرض باختياره عن دعوة الحق، وامتنع بسوء فعله عن استقبال فيضه.

وبتحليل هذه الاحتمالات، نقدر على تحديد السبب الواقعي والمسؤول الحقيقي، ونخرج من أي وهم أو خداع للنفس، فنسد على إبليس أهم الأبواب التي يمكن أن ينفذ منها لتحقيق أكبر أهدافه وأشدها فتكاً بالإنسان، وهو اليأس من رحمة الله وتبرير السقوط والضياع.

الاحتمال الأول يعني أحد أمرين: إما أن يكون الله عاجزاً عن إيصال هذا الفيض مع امتلاكه له، وإما أنه لا يريد ذلك للبعض دون تقصير منهم. وهذان يعنيان أن قدرة الله محدودة وأنه يمكن أن يتصف بالعجز، أو أنه يظلم عباده وهو يفتقد إلى الحكمة!!

لكن الأدلة والوجدان والعقل والبرهان والآيات والبينات كلها مجمعة على أن قدرة الله تعالى غير محدودة، وهو على كل شيء قدير، لأنه جامع كل كمال على نحو الإطلاق، فلا يعجزه شيء لا في الأرض ولا في السماء. وهو الحكيم العادل الذي لا يظلم أحداً، ولا يمنع عنه ما يستحقه من فيض وكمال، وإن كان هو الذي أعطى الاستحقاق بمقتضى ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾. فإذا كان مقتضى الخلقة الإلهية جعل الإنسان محتاجاً فقيراً إلى الله المتعال، فالمنع من جانب الخالق الجاعل مخالفٌ للحكمة ويقتضي الظلم، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

إن الله تعالى خلق الإنسان ليرحمه بتيسير سبل التكامل له:

﴿إلاّ من رحم ربك ولذلك خلقهم﴾

وشَنَّع على من قال بالتمييز بين البشر في العطاء على أسس عرقية أو شكلية، كالذين قالوا بأنهم شعب الله المختار الذي سينال الرحمة لوحده ويدخل الجنة دون الأمم الأخرى. ووصلت بهم الجرأة على الله إلى حدٍّ أنهم وصفوه بالبخل والعجز!؛ سبحانه وتعالى الله عما يصفون.

﴿وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء﴾

والاحتمال الثاني يعني أن للعوامل الخارجة عن إرادة الإنسان وإرادة الله ومشيئته تأثيراً مستقلا في منع الإنسان من استقبال الفيض الإلهي. وكأن المقصود من هذا القول أن هناك عوامل لا يريدها الله تعالى ولا يقدر الإنسان على التحكّم بتأثيرها السلبي وهي تجبره على البقاء في حالة الحرمان الحقيقي والنقص الواقعي.

وربما لا يوجد من يُصرِّح بهذا الكلام وبهذا الوضوح، إلا أن الأكثرية الساحقة من الناس ربما تعيش على هذه الأوهام. فهم لا ينسبون ما حل

بهم من نقصان أو حرمان إلى ربهم سبحانه، ولكنّهم ساخطون على الظروف التي أحاطت بهم، ظنّاً أنها أسباب لا تقاوَم، تمنعهم من الوصول إلى الكمالات.

العوامل الخارجية:

فما هي هذه العوامل المزعومة، وما هي آثارها؟

بحسب التتبع، فإن أهم ما يتذرّع به الناس لتبرير نقصهم هو أحد الأمور التالية، وربما بعضها مجتمعاً:

1. الفقر وضيق العيش.

2. المرض والعوائق الجسدية.

3. السجن أو عدم القدرة على التحرك.

4. الشواغل ومتطلبات العيش.

5. العوامل الوراثية القاهرة.

6. البيئة والمحيط الاجتماعي.

7. التربية والتنشئة الأسرية.

8. إبليس وجنوده.

وقبل أن نقوم بدراسة هذه العوامل وتحليل مدى تأثيرها على حياة الإنسان، نشير إلى عدة نقاط أساسية:

1. إن التعرّف على آثار هذه العوامل ومدى تأثيرها في حياة الإنسان الحقيقية، أي الحياة التي ستكون أساس الحساب يوم القيامة، يساهم بشكل كبير في فهم وتطبيق البرنامج المعنوي والسلوكي. لأن هذه العوامل مجتمعة هي خلاصة بلاءات وامتحانات الحياة الدنيا. ولا يوجد من مخلوق على هذه الأرض إلاّ وسيمر بهذه الظروف منذ بداية حياته، حتى تأخذ الحيز الأكبر من اهتماماته.

2. إن عدم تناول هذه العوامل في الأبحاث الأخلاقية والسلوكية يُعد نقصاً كبيراً، وسبباً لضعف تأثير برامجها. فما لم تحل عقد هذه المكاره، يصعب على الإنسان أن ينصرف إلى حياته الباطنية وحالاته القلبية.

3. يجب أن نعرف حقيقة "**لا مؤثر في الوجود إلا الله**"، التي هي مقتضى التوحيد وأولى مراتبه. بمعنى أنه لا يوجد من قوة في هذا العالم تقف مقابل قوة الله: ﴿**وأن القوة لله جميعاً**﴾، وأن كل شيء يجري وفق مشيئته. وكل التأثيرات التي تقع علينا تكون بإذنه: ﴿**وما تشاؤن إلا أن يشاء الله**﴾.

4. إن كل التأثيرات السلبية التي تحيط بنا أو تصلنا من العوامل الخارجية تدخل ضمن نظام الصلاح العام للكون والهداية الإلهية التكوينية. حتى وساوس إبليس التي تدفع الآخرين لإضرارنا وتسبيب الأذى لنا لا يمكن أن تخرج عن هذا النظام.

5. إن فيض الله (الذي هو الكمال الحقيقي للإنسان) أمر غير مادي، وهو فوق المادة، لذلك فإن المادة مهما عظمت لا يمكن أن تشكل سدًّا أمامه. ولما كانت تلك العوامل الخارجية أموراً مادية، فلا يمكن أن تكون مانعة من وصول الفيض المجرّد الذي يمثل جميع أنواع الكمالات. ولعل في كلام أمير المؤمنين‌ﷺ لذلك الرجل الذي سأله عن نزول الرزق من الله إشارة لطيفة إلى هذا المطلب. ففي الحديث أن رجلاً سأل الإمام‌ﷺ قائلاً: "**إذا حبس الرجل في مكان لا يأتيه أحد أبداً، فمن أين يأتيه رزقه؟**" فقال ﷺ: "**من حيث يأتيه أجله**" [نهج البلاغة]

إن مقتضى العدل الذي هو من صفات الفعل الإلهي عدم تميز أي مخلوق من حيث العطاء والإفاضة. وليست القابلية التي على أساسها تحصل الاستفاضة من جانب المخلوق سوى عطاء آخر من جانب الله تعالى. لهذا يرى الناظر إلى عدل الله ضرورة عدم تمييز أحد بالقابلية.

إن الرزق الذي يمثل في بعده المادي استمراراً لحياة الإنسان في الدنيا، وفي بعده المعنوي استمراراً لتكامل الإنسان الحقيقي، هو أمر غيبي كقبض الروح، لا يمنعه مانع ولا يحجبه حاجب.

فالهداية والعلم والنورانية والرحمة والقدرة والحياة أمور أعلى من المادة وتحيط بها؛ وهي مظاهر فيض الله الذي يتصل بكل ذرة من ذرات

الوجود. فنحن الذين يمكن أن نتوهم أنها تنشأ من الوسائط السفلى والعوامل الظاهرية.

إن كل خير ليس إلا محض عطاء الله، لا يشركه في ذلك أحد مهما بلغ. وإن أي خير نناله من الوسائط، هو عطاء الله جرى على أيديها، ويمكن أن يجريه الله بوساطة غيرها. ومن أروع التعابير عن هذه الحقيقة قوله تعالى: **﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم﴾**.

ومن هنا نجد أن أصل هذا الطرح والتذرّع بالعوامل الخارجية لتبرير الحرمان المعنوي غير صحيح. ولكن لا بأس بأن نعكف على دراستها لبيان حقيقة هذا التوهم السائد.

إن منشأ هذا التوهم يرجع ـ كما أشرنا ـ إلى الجهل بحقيقة الفيض الإلهي، وإلى عدم الالتفات إلى مدى تأثير تلك العوامل من جهة ثانية، وإلى نزوع الإنسان لتبرير نقصه وتقصيره.

فمعظم الناس يرون السعادة في المال، ويظنون أنه الوسيلة الأساسية لبلوغ المقاصد وتحقيق الأماني. وحيث أن الأغلبية فيهم قد اختلطت حياتها بالتبرير انطلاقاً من عقدة النقص، فإنهم إذا ووجهوا بالنقص سيلقون باللائمة على الفقر وافتقاد المال اللازم!

عقدة النقص: فعندما يتلقّى الفرد تربية تجعله يبرر تقصيره أو نقصه بشكل متواصل، ويكبر على ذلك دون أن يلتفت إلى هذا الخطأ الذي يرتكبه بحق نفسه، تتأصّل عقدة النقص في شخصيته وتزداد رسوخاً. فالطفل الذي يحاصر بعقاب وشيك على تصرف اتُّهم به، سيلجأ إلى التبرير لأنه ذاق من قبل مرارة العقاب. ومع تكرر هذا الأسلوب التربوي سيجيد بعد مدة فن التبرير وإلقاء الذرائع، حتى وإن لم يكن محاصراً هذه المرة بعقاب أو تهديد.

وإذا كبر واكتشف نقصانه بعد التعرّف إلى من هم أكمل منه (سواء

حصلت المعرفة بالمطالعة أم بالمعايشة)، فإنه سيجد عشرات المبررات جاهزة أمامه.

فإذا كان الأكمل غنياً أو مكفياً، وكان هو فقيراً ومحتاجاً، فإنه سيتذرّع بالفقر لتبرير وجود هذا الفارق.

وإذا كان الأكمل متفرغاً للعلم، وكان هو منشغلاً بالأعمال المختلفة، فإنه سيلقي باللائمة على كثرة المشاغل وهموم العيش.

فعندما يجتمع الجهل مع العقد النفسية الكامنة، تعمى على الإنسان الحقيقة؛ ويكون ذلك سبباً لحرمان عظيم وخسارة كبرى، ورب قائل يقول: إن انشغالي بتحصيل المعاش هو الذي يمنعني من طلب العلم وتحصيله. وهذا القائل يعلم بأن العلم كمال معنوي من غير أن يعرف كيفيته؛ ويعلم أنه علامة على العلاقة المتينة مع الله تعالى (كما جاء في الحديث الشريف: إذا أحب الله عبداً فقّهه في الدين)، ولكنه من جانب آخر يتصوّر بأن تحصيل العلم منحصر بقراءة الكتب وحضور الدروس أو التفرّغ له..

وآخر قد يقول: إن الله خلقني بهذا الذهن الضعيف والفهم البليد! فأنا لا أتمكن من فهم المسائل العقائدية والأفكار العرفانية.

ومنهم من يقول: إن حالتي الصحية السيئة لا تمكنني من أداء المستحبات والقيام بعبادة السالكين والعارفين!!

ويتصوّر البعض أن البيئة التي ينشأ فيها هي التي تحدد وجهته ونمط حياته ومعتقداته، وأخيراً مصيره. وبالتالي فهو لا يقدر على تغيير واقعه!

ومن الملاحظ في هذه التصورات وأمثالها وجود شبهات واضحة وأفكار خاطئة.. فإذا كانت الدراسة أو المطالعة وسيلة للعلم، وإذا كانت العبادات المستحبة وسيلة لبلوغ الكمالات، فإنها أولاً وآخراً ليست

الوسائل الوحيدة التي يتوقّف عليها تحصيل تلك الأمور.. وإذا مُنع الإنسان ـ لظروف خارج إرادته مثلاً ـ عن الدراسة والعبادة المستحبة، فلا يعني ذلك انسداد طريق الكمال. فإن الكمال الواقعي يحصل من جراء روح العبودية والالتزام بأوامر الله واجتناب نواهيه؛ وهي أمور ليست موقوفةً على قلة الإنشغالات ووجود أوقات الفراغ.

صحيح أن للفقر تأثيراً بالغاً على حياة الإنسان، ولكنه لا يصل إلى حد سد باب الكمال، ويستحيل أن يصبح كذلك. إن الفقر في معظم الأحيان امتحان ظاهره الألم والشقاء، وباطنه الرحمة والعناية. وإذا نجح الإنسان فيه، فإن منزلته ستعلو ويصل إلى الكمال المطلوب. وإن لم يقدر بسببه على الدراسة والقيام بالعبادات الكثيرة. وهكذا حال جميع العوامل الأخرى. فمهما بلغت في التأثير، فإن الله عزّ وجل سيزوِّد الإنسان في مثل هذه الأحوال بمدد خاص يعادل فيه الحرمان. ولعل الحديث الشريف الذي يذكر أن أكثر أهل الجنة من الفقراء يشير إلى هذا المبدأ.



وإن من نشأ وترعرع في بيئة فاسدة، لن يفقد القدرة على التحرر من تأثيراتها السلبية. بل إن الله تعالى سيوفر له فرصة أكبر لمقاومة تلك التأثيرات السلبية الهائلة قياساً مع فرصة مَن يتواجد في بيئة سليمة ومساعدة. ولقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يساوي بين جميع خلقه في فرص الوصول إلى الكمال والسعادة. فإذا زادت التأثيرات السلبية من جهة، أعطاه الله المزيد من الفرص للمقاومة والتحرر. والأمر كله يشبه معادلة رياضية يكون الحاصل فيها للجميع أمراً واحداً متساوياً، وإن اختلفت عناصرها ومتغيراتها.



وفي المقابل نجد أن أكثر الأغنياء مترفون ومستكبرون، رغم أن الله تعالى قد أعطاهم أكثر مما يحتاجونه في معاشهم وزيادة. ولو فكّر الإنسان قليلاً في حقيقة الفقر ـ رغم صعوباته وآلامه المبرحة ـ لعلم أنه من المستحيل أن يكون سببا مستقلا في بعد الانسان عن رحمة

الله وهدايته. ولو كان كذلك، لوجدنا كل فقير يكفر؛ في حين أننا نرى بالمقابل أن أكثر الشهداء والأولياء عاشوا حياة الفقر والحرمان المادي.

إن أقصى ما يمكن أن يصل إليه الفقير هو أن يموت جوعاً! ولكن الفقر لا يمكن أن ينتزع منه العقل والمعرفة الأولية بأن الله الرحيم هو الخالق والرازق والمالك، واختيار الموت جوعاً ـ من الناحية العقلية البحتة ـ يبقى أهون من شر المصير الأسود في جهنّم والنيران.

هل يفقد المريض في أشد لحظات مرضه القدرة على مناجاة خالقه بقلبه؟! يحق لنا أن نقول نعم، إذا كان الكمال في تحريك الأعضاء وإصدار الأصوات.. فعندها لن يكون لمثل هذا المريض المسكين أي أمل بتحصيله.. ولكن من الذي يظن ذلك؟.

هل يقال لمن قُطِعت رجله في سبيل الله يوم القيامة: "إن نصيبك من الجنة تلك القصور دون السلالم والأبواب"؟! وهل يُحرم من قَدَّم عينيه في طريق الجهاد من النظر إلى حور العين وجمالهنّ الساحر؟!

إن المرض قد يكون عاملاً موقظاً من الغفلة. ونحن نشاهد في العديد من الحالات كيف يرجع المرضى إلى الله ويدعونه بلسان الانقطاع إليه. وقد جاء في الروايات الشريفة "**إن المؤمن إذا مرض تساقط عنه ذنوبه كما يتساقط الورق عن الشجر وقت الخريف**"..

فما أيسرها من فرصة ليرجع الإنسان كما ولدته أمه كأنه لا ذنب عليه، ويزيل الحجاب بينه وبين ربه ليصل إلى لقائه.

وإذا سُجن الإنسان أو مُنع من مغادرة مكانه، فهل يفقد القدرة على الدعاء والتوجه إلى الله من أعماقه. هذا في حين أن أئمة الدين يقولون لنا أن السجين في سبيل الله تتحوّل أنفاسه إلى تسبيح ويكون في عبادة طوال وقته، فالسجن أنفع إليه وهو لا يدري.

نعم، لو كان السفر إلى الله بطيِّ المسافات وعبور البلدان، فإن

السجين لن يصل إلى لقاء الله ما دام في سجنه!

ولكننا جميعاً نعلم بأن الله تعالى قريب، بل أقرب إلينا من أنفسنا. إن موسى عليه السلام سأل ربه قائلاً: "**يا رب أبعيد فأناديك، أم قريب فأناجيك**"؟ فكلَّمهُ الله تعالى: "**يا موسى أنا جليس من ذكرني**".

إن الذكر الحقيقي عبارة عن التوجه الباطني إلى الله واستحضار وجوده ورحمته وصفاته. وهو أصل التقرّب إلى الله. فكل عبادة لا تكون ذكراً لله لن تكون مقرّبة إليه. وإذا ذكرنا الله تعالى في قلوبنا ـ عندما نفقد الأسباب العادية ـ فإن الحضور سيتحقق، والله تعالى يقول ﴿**فاذكروني أذكركم**﴾. وإذا قوي الذكر واشتد، لا يبقى بين العابد والمعبود أي حجاب، وينال الذاكر عندها مقام الحضور الحقيقي.

وإذا جئنا إلى الشواغل من الأعمال المختلفة، فهل يمكن أن تكون مانعاً حقيقياً من تحصيل القرب؟

إن الشواغل إما أن تكون دنيوية أو جهادية في سبيل الله. ومن يشتغل في الأعمال الإسلامية دفاعاً عن الدين والمستضعفين فهو في عبادة ما دام مخلصاً في عمله لا يريد سوى وجه الله تعالى. وهنا فإن كل ساعة يقضيها في مثل هذه الأعمال من تنظيم ملفات أو عقد لقاءات أو الاستماع إلى المراجعين أو قيادة سيارته للوصول إلى عمله ستكون سبباً لكماله وقربه من الله تعالى: ﴿**ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلاّ كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون**﴾.

بل إن هذه الأعمال الجهادية، سواء العسكري منها أم غيره، من أعظم أعمال البر والتقرّب إلى الله. لا بل، أن قبول الأعمال الأخرى وصيرورتها طريقاً إلى الله موقوف على القيام بهذه الأعمال.

والشواغل الدنيوية كالتجارة والبيع الحلال لتحصيل المعاش، إذا لم تكن هرباً من التكليف، فهي من أفضل العبادات، كما جاء في الحديث: "**الكادُّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله**".

فإذا فرضت الحياة على المرء عملاً مستمراً يستوعب معظم ساعات نهاره فهل يمنعه هذا الأمر من ذكر الله ودعائه؟! إن الصدق في العمل وخدمة الناس والسهر على عيال الله، كل هذا من القربات عند الله سبحانه.

أما الوراثة، فإنها لا تقدر على طمس معالم الفطرة الإلهية والاختيار المعطى للإنسان لأجل تقرير مصيره بيده. هذا بالرغم من أثرها على الخصائص الجسدية والنفسية للوارث.

لقد شاهدنا الكثيرين ممن ولدوا من أبوين كافرين أو فاسقين، ولكنهم تحرروا من تأثيرهما السلبي الموروث بعد المجاهدة مع الطبع، وترويضه ليكون خاضعاً للعقل. فالوراثة بمعناها المشهور لا تنقل إلى الوارث سوى الخصائص الجسمانية التي ستؤثر في أوقات مختلفة (وخصوصاً في مرحلة الطفولة) على سلوكه وتكوين طباعه. أما النفس بوحدتها ومكوناتها الأساسية فإنها لا تتوارث. وإذا أولدت الأم، فهذا لا يعني أن قطعة من نفسها قد انتُزِعت وأُعْطيت للمولود الجديد. فلكل إنسان نفس واحدة بسيطة غير قابلة للتجزئة. وفي جميع الأحوال، ومهما كانت التأثيرات السلبية للوراثة والتربية والبيئة التي ينشأ فيها الإنسان، فإنه يبقى قادراً على التغيير، ويبقى مدد الهداية الإلهية محيطاً به ومتجهاً صوبه.

إن عظمة رسول الله ﷺ وأصحابه المنتجبين تكمن في سيرهم وتسنّمهم أعلى درجات الكمال (بالطبع مع اختلافهم في الدرجات)، رغم أنهم نشأوا في أسوأ بيئة عرفتها البشرية. وقد استجابوا لنداء الفطرة الإلهية المودعة في خلقة الجميع.

ورغم أن إبليس هو العدو الأول للبشرية، وهو الذي يمتلك أكثر الأساليب خبثاً وأكبر الوسائل مكراً لإضلال الإنسان، وقد مكّنه الله تعالى من الإنسان بحيث أنه يوسوس له من باطنه دون أن يعلم بحضوره،

فإن غاية ما يفعله هو الوسوسة، وهو لا يقدر على إزاحة حصى صغيرة عن الأرض، فكيف بإجبار الإنسان على الكفر أو البعد عن الله أو منع وصول فيض الله إليه: ﴿.. **وما كان لي عليكم من سلطان إلاّ أن دعوتكم فاستجبتم لي**..﴾.

وبسقوط الاحتمال الثاني، مع ما تبين لنا من أن جميع تلك العوامل الخارجية لا تتعدى التأثير السلبي إلى درجة المنع والتأثير المستقل، نقول أنه يمكن للإنسان أن يبدّل تأثيراتها السلبية لتكون عناصر إيجابية في سيره المعنوي. فالفقر والسجن والمرض والشواغل إذا احتسبت عند الله تعالى ستكون عوامل مساعدة وقوية في تهذيب النفس وإصلاحها والتقرب إلى الله تعالى. وهكذا، فلا يبقى سوى الاحتمال الثالث؛ وهو أن كل واحد منّا يتحمّل المسؤولية الكاملة في تحديد مصيره ورسم مسار حياته المعنوية وعلاقته بالله سبحانه.

الله
سائر الموجودات
الأنسان
النفس

إن جميع العوامل المؤثّرة في مصير كل إنسان يمكن حصرها في ثلاثة:

الله

سائر الموجودات

نفس الإنسان

- والعامل الأول مساعد، بل هو أصل كل خير.

- أما الثاني فهو أحياناً سلبي بالظاهر، ومساعد في الباطن والحقيقة.

- ويبقى الإنسان بنفسه، الذي سيختار طريق السعادة أو الشقاء.

إن أفضل تعبير عن مشكلة الإنسان على هذه الأرض هو أن هذا الإنسان قد احتجب عن ربّه بإرادته واختياره. وأن جميع المشاكل الأخرى تنبع من هذه المشكلة. ولو تمكّن من تحطيم هذا الحجاب أو اختراقه، لما بقي بينه وبين فيض الله المطلق أي مانع، فيصل إلى سعادته ويحقق كماله.

ويختصر العارفون مسيرة السالك إلى الله بأنها عبارة عن خرق الحجب التي تنقسم إلى حجب ظلمانية وأخرى نورانية. والظلماني منها يجب إزالته أو إعدامه، أما النوراني فيجب اختراقه فقط، لأن الأول مانع بذاته، والثاني يتحوّل إلى مانع فيما إذا أصبح غاية للسالك دون الهدف النهائي.

ويمكن تشبيه حال الانسان مع الفيض بوضع المرآة مع الأنوار المنعكسه. المرآة الصافية تعكس صورة الأشياء بوضوح وجلاء. لكنها لا تفعل ذلك إذا حصل فيها الأمور التالية:

كأن تَفْقد أحد أجزائها الصناعية (1)

أو لا تكون متوجهة نحو الصورة المطلوبة. (2)

أو يعلوها الغبار الكثيف والصدأ. (3)

أو يسدل بينها وبين الصورة ستار أو حاجب. (4)

وكذلك كل نفس، لن تكون قادرة على استقبال الفيض الإلهي في هذه الأحوال:

1. عند فقدان أحد الخصائص أو الإمكانات اللازمة لاستقبال الفيض؛ فهذا حجاب القابلية.

2. أو يغفل عن هذا الفيض المتجه إليه. وهذا حجاب الغفلة.

3. أو تتكدّر صفحة قلبه بالذنوب والمعاصي. وهو حجاب التلوث.

4. أو يحجبه عن الحقائق اللازمة للسفر المعنوي شبهاتٌ وأفكار.

حجاب الآراء الفاسدة.

وجميع هذه الحجب يمكن التعبير عنها بالحجب المعنوية الذاتية (مقابل الخارجية) التي يكون الانسان مسؤولا عن حدوثها، ومسؤولا عن التخلص منها بمجاهدة النفس والسير المعنوي.

الحجب الذاتية

1. حجاب القابلية

إن من أخطر الحجب المعنوية وأشدها تأثيراً وأكثرها شيوعاً: حجاب القابلية. فإن الله سبحانه لما دعا الإنسان إلى جواره وأكرمه بالدعوة إلى خلافته، منحه إلى جانب الإرادة والاختيار، قابليات تمكّنه ـ إن هو أحسن تسخيرها ـ من بلوغ المقام الشامخ للإنسانية، والوصول إلى الخلافة الكبرى.

هذه القابليات هي بمنزلة أدوات ووسائل الاتصال بين المخلوق والخالق. وهي بمنزلة قنوات سريان فيوضات عوالم الغيب من الكمالات والنعم الباقية. فكما أن لكل إنسان حواساً يتصل بواسطتها بعالم الدنيا وينال من خلالها حظوظه الدنيوية، كذلك من المفترض أن يوجد في كل انسان وسائط للاتصال بالحقائق الغيبية؛ فهي وسائل النفس وأدواتها التي ركبها الخالق فيها لتكون قادرة على إستقبال حظوظها المعنوية التي تفاض على النفوس البشرية من خزائن الغيب.

وتكون هذه الوسائل في البداية على شكل استعدادات محضة. ويتمكّن كل إنسان ـ إن هو أحسن العمل ـ من نقلها إلى حالة الفعلية، فتصبح فاعلة ومؤثّرة في اتصاله المطلوب.

وعمدة هذه الوسائط إثنتان:

أ. الفطرة الصافية.

ب. العقل.

فالفطرة الصافية المودعة في أعماق كل إنسان عبارة عن ذلك التوجه الدائم والانجذاب المستمر نحو الكمال المطلق اللامتناهي. ويتمثل دورها بشكل أساسي بما يشبه إرسال الإشارات بشكل مستمر إلى وعي الإنسان، وجذبه نحو هذا الكمال أو ذاك؛ مثلما أنها تنفّره من هذا النقص أو ذاك؛ وهي في هذا التوجه والانجذاب لا تعرف التوقف عند حد لأن مطلوبها من الكمال والجمال المطلق اللامتناهي. فأي عشق أو توجه إلى أي كمال في هذا العالم منشؤه هذه الفطرة.

وهي توجه مسيره الإختياري، لكي لا ينخدع بالقبائح والنقائص المستترة في هذا العالم. وإذا انطفأت شعلة هذه الفطرة، سيستحيل على المرء أن يتجه إلى أي كمال أو يبتعد عن أي نقص وقبح.



ولا تزال هذه الفطرة ترسل الإشارات تلو الإشارات بأن ما بلغته من كمال ليس هو المطلوب، وإنما المطلوب هو الكمال المطلق. وهذا هو سر السعي الدائم للبشر نحو الكمال.

وحجاب الفطرة أو احتجابها يبدأ من خلال عدم المبالاة بنداءاتها وضعف الاستجابة لرغباتها حتى يصل الأمر إلى عدم سماع صوت استغاثاتها. إن الفطرة تقول لك "إنني أنفر من هذا الأمر الخبيث وهذا الشيء القبيح". فإذا فعلتَه أو تناولته ستخدش فطرتك وتكدِّرها. وإذا تماديت في مثل هذه الأعمال وابتعدت شيئاً فشيئاً عن الأمور الكمالية والجميلة، سيصل بك الأمر إلى مرحلة تفقد فيها صفاء فطرتك، وربما لن تعود بعدها أبدا.

وإن عملية تغيير خلق الله التي هي من البرامج الرئيسية لإبليس اللعين تبدأ من هذه النقطة. وليس ما نشاهده اليوم من تمجيد الفحشاء والمنكرات وتزيين الفساد والبشاعة في المظهر والسلوك والعلاقات، إلا نتيجة المخططات الماكرة لإبليس وجنوده (لعنهم الله).

وعليه، يمكن القول بأن ما قد نلاحظه في أنفسنا من عدم الإقبال والتوجه نحو الجمال الحقيقي المتمثّل بالايمان ومظاهره: **﴿الله حبَّبَ إليكم الإيمان وزيَّنه في قلوبكم﴾** والتوجه نحو زينة الدنيا وزخارفها الباطلة: **﴿إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها..﴾**، **﴿كل من عليها فان﴾**، لهو مظهر ضمور الفطرة وضعفها فينا.

وقد يستيقظ السالك على مثل هذه المشكلة التي لعبت التربية في أيام طفولته والبيئة المتخلّفة من حوله دوراً كبيراً في حجبها وإضعافها. فماذا يفعل لاستعادتها وإيقاد شعلتها لتصبح مشعل هدايته في كل الحياة؟

إن إحدى المسؤوليات الكبرى في تهذيب النفس وإصلاحها تدور حول هذه النقطة والتي سنشير إلى تفاصيلها في الفصول الآتية بإذن الله.

فالفطرة وسيلة التوجه إلى الكمال والابتعاد عن كل نقص والعقل يميّز الكمال من النقص. الفطرة بمنزلة الوقود الدافع والعقل بمنزلة الموجه. وعندما تقوى الفطرة فينا فإن طلبها للكمال يزداد قوة ونفورها من النقص يزداد حدّة. فتحتاج إلى العقل لكي يحكم على المصاديق المختلفة إذا كانت مظهرا للكمال أو النقص.

إن المجنون أو الصبي الصغير لا يقدر على السير المعنوي أو الاستفادة من المواعظ الأخلاقية بسبب عدم وصوله إلى مرحلة البلوغ العقلي. وقد تكون فطرته سليمة كالمرآة الصافية لكن ضعف عقله يجعله غير قادر على معرفة الكمال المطلوب. وعندما يبلغ مرحلة النضج العقلي أو ينال الحد الأدنى من العقل الذي به يميّز بين الخير والشر فإن عليه أن يستجيب لدواعي فطرته الصافية وإلا ضعفت وخبا نداؤها!

من الملاحظ أن أكثر الناس لا يَدَعون مثل هذه الوسائل تصل إلى مرحلة النضج والتمامية. فهم يمارسون بعد البلوغ مسلكاً في الحياة يؤدي

في النهاية إلى القضاء عليهما. فإن كل بالغ ينبغي أن يمتلك عقلاً يهديه إلى عبادة الله ورضوانه، كما جاء في الحديث الشريف بشأن العقل: "**العقل ما عبد به الرحمن واكتسب به الجنان**". لأن كل عاقل يستطيع أن يميّز الخير من الشر، ويمكنه أن يدرك أن لهذا العالم خالقاً ورازقاً، ويدرك به ضرورة وجود الحياة بعد الموت، وعشرات القضايا الأخرى التي تمثّل زاد السلوك المعنوي.

ولا شك بأن العقل درجات ومراتب. ولكن الحد الأدنى منه يحقق لصاحبه القدرة لتحصيل المعارف اللازمة للسفر المعنوي وبدء عملية الإصلاح. وبدون هذا العقل تفقد الأعمال والعبادات نورانيتها، وتصبح وبالاً على صاحبها وعلى غيره أيضاً.

وقد ذُكر في الأحاديث الشريفة هذا الشرط، واعتبر السير بالعقل أسرع وصولاً، كما في الحديث عن رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: "**يا علي إذا تقرّب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرّب إليه بالعقل تسبقهم**".

وهذه الأسبقية هي التي ذُكرت في قوله تعالى:

﴿**فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله..**﴾. حيث يبيّن الإمام الصادق هذه الفئات الثلاث بقوله:

"**الظالم لنفسه يحوم حوم نفسه، والمقتصد يحوم حوم قلبه، والسابق بالخيرات يحوم حوم ربه**".

فإن من اتبع العقل وأطاعه ألزمه طاعة ربّه، وأدرك به أنه لا كرامة ولا خير إلاّ في ظل الطاعة والعبودية.

ولهذا ذكر أمير المؤمنين عليه السلام هذه المسألة على رأس الصفات التي ينبغي تحصيلها للسفر إلى الله. فمن كلام له عليه السلام في وصف السالك إلى الله تعالى: "**قد أحيى عقله وأمات نفسه، حتى دقّ جليله ولطف غليظه وبرق له لامع كثير البرق، فأبان له الطريق وسلك به السبيل وتدافعته الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة، وثبتت رجلاه بطمأنينة بدنه في**

قرار الأمن والراحة بما استعمل قلبه وأرضى ربه". ﴿نهج البلاغة﴾

وعن رسول الله ﷺ:

"ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل. ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل له العقل، ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته.. وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل. والعقلاء هم أولو الألباب الذين قال الله تعالى عنهم: "وما يذكر إلا أولو الألباب..".

وعنه ﷺ:

"إذا بلغكم عن رجلٍ حسنُ حاله، فانظروا في حسن عقله فإنما يجازى بعقله".

وعن إسحاق بن عمار قال: قلت لأبي عبد الله الصادق عليه السلام:

"جعلت فداك إن لي جاراً كثير الصلاة كثير الصدقة كثير الحجّ لا بأس به.

فقال عليه السلام: **يا إسحاق فكيف عقله؟**

قلت: جعلت فداك، ليس له عقل.

قال عليه السلام: **لا يرتفع بذلك منه"**. ﴿اصول الكافي﴾

فإن هذا الحديث واضح في بيان دور العقل وأهميته وتقديمه على كل خير يراد تحصيله من العبادات والطاعات.

وأيضاً عن الإمام الرضا عليه السلام قال:

"لا يُعبأ بأهل الدين ممن لا عقل له.." ﴿أصول الكافي﴾

وهكذا نجد أن العقل شرط أساسي للعبادة والتكامل المعنوي.

وإذا أراد الإنسان أن يدخل في زمرة السالكين وأن ينال حياة

إن مرجع جميع الأفعال إلى الصفات. فالفعل ظهور الصفة وتجل لها. كما أن مرجع جميع الصفات إلى الوجود. ولما كان الوجود منحصرا بالله تعالى وكل موجود فوجوده منه سبحانه بل قائم به عز وجل فإن جميع الصفات الكمالية والكمالات الواقعية أيضا قائمة به تعالى. وكذلك جميع الأفعال والتأثيرات التي تجري في هذا العالم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى. أما القبائح والشرور فلا تنسب إليه سبحانه وتعالى، لأنها لا ترجع إلى الوجود. بل هي سلب الوجود.

الباطن، فلا بد له من إحياء العقل أولاً، والحفاظ على حياته ثانياً، وإكماله حتى يصل إلى أعلى المراتب ثالثاً. وكل هذه تحصل من خلال رعاية مجموعة من الشروط التي تدور ما بين الابتعاد عما يهدمه والقيام بما يقويه وينوّره.

وإن من أكبر مصائب العقول في حياتنا نفس البيئة الاجتماعية التي تعمل على إلغاء دور العقل وتحكيم الأهواء والشهوات. ويحكي لنا القرآن عن مثل هذا الوضع في قصة فرعون مع قومه والتي نشاهدها تتكرّر في مجتمعنا.

يقول الله تعالى: ﴿**فاستخفّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قوماً فاسقين**﴾.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: "**ذهاب العقل بين الهوى والشهوة**".

وعنه أيضاً: "**كم من عقل أسير تحت هوى أمير**".

والهوى النفساني يتجلى في الطلبات والأوامر التي يكون مبدؤها ومنطلقها حظوظ الدنيا الدنية ـ سواء ظهرت بصورة الشر أو الخير ـ واتّباعه يعد شركاً عند الله تعالى؛ لأن المطاع بالأصالة هو النفس، قال عز من قائل:

﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم**﴾.

وعن الإمام الباقر عليه السلام: "**ما دخل قلب امرئ شيء من الكبر إلا نقص من عقله**".

وعن الإمام علي عليه السلام: "**إعجاب المرء بنفسه دليل على ضعف عقله**".

وقال الإمام الكاظم عليه السلام: "**من سلّط ثلاثاً على ثلاث فكأنّما أعان هواه على هدم عقله: من أظلم نور فكره بطول أمله، ومحا طرائف حكمته بفضول كلامه وأطفأ نور عبرته بشهوات نفسه.. ومن هدم**

عقله أفسد عليه دينه ودنياه". (أصول الكافي)

وبمعرفة العوامل المفسدة والهدامة، يعرف السالك الخطوات والمهمات الأساسية لاستعادة دور العقل والفطرة في حياته؛ وباستعادتهما يفتح قنوات الاتصال بعوالم الغيب ويبدأ باستقبال فيوضاته وأنواره.

وقبل الإشارة إلى بعض العوامل المساعدة في إحياء العقل وتقويته، ينبغي الالتفات إلى أن العقل من المواهب الإلهية والفيوضات الربانية التي تفاض بشكل دائم وغير محدود على العالمين، وهو ليس تابعاً لحجم الدماغ البشري وتركيبته الفيزيولوجية وإن كان يؤثر ويتأثر بذلك. وغالباً ما يشار في الأحاديث إلى كونه من النعم المفاضة. إن كل إنسان قادر على الاستزادة من العقل، كما أنه مسؤول عن ضعفه أو ضياعه. وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال: **"من ترك الاستماع عن ذوي العقول مات عقله"**.

وتلعب العبادة دوراً كبيراً في تقوية العقل، يقول الله تبارك وتعالى: **﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾**.

وإذا اشتد الأمر على السالك، وصعب عليه فوجد في نفسه خفة عقل لا يقدر على الخروج منها بالوسائل المعهودة من التعلم والعبادة ومجالسة العقلاء والابتعاد عن الأهواء فليلجأ إلى الدعاء المشفوع بالبكاء وليتوسل إلى قاضي الحاجات. وإن من أهم أنواع التوسلات زيارة عاشوراء والاستمداد من لطف وعناية سيد الشهداء، حيث نجد في الأحاديث إشارة إلى هذه الخاصية، وقد تمسك بهذا أكثر الأساتذة وأهل هذا العالم.

2. حجاب الغفلة

ومن الحجب الذاتية الكبرى حجاب الغفلة، حيث يضعف التوجه

إلى المقصد الحقيقي أو يزول. وبدلا من الاشتغال بما خُلق لأجله يقضي هذا الغافل عمره في الأمور الفانية واللذات الزائلة. وهو غير الجهل، فقد يكون الإنسان عالماً بالمبدأ والمنتهى، مدركاً لما يجب أن يقوم به، إلاّ أنه يغفل عن هذه الحقائق، فيضعف تأثيرها في النفس شيئاً فشيئاً حتى ينساها كلياً:

﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون﴾

ومما قد يزيد الأمر سوءاً أن الغافل في معظم الأحيان لا يكون ملتفتاً إلى وجود هذا الحجاب، وهو يظن أنه على خير وهدى.. ثم أن للغفلة مراتب عديدة؛ فربما يخرج السالك من مرتبة، فيظن أنه خرج من الغفلة وهو غافل عن المرتبة الأخفى! وعليه، لا ينبغي لمن وفّقه الله تعالى للخروج من إحدى مراتب الغفلة أن يطمئن لنفسه. لهذا، قال بعض العارفين أن الإنسان ما دام في دار الدنيا فهو في حجاب الغفلة، وإن انكشفت له أسرار عوالم الغيب والملكوت!

وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

".. والفسق على أربع شعب: على الجفاء والعمى والغفلة والعتو.. ومن غفل جنى على نفسه، وانقلب على ظهره، وحسب غيّه رشداً وغرته الأماني وأخذته الحسرة والندامة إذا قضي الأمر وانكشف عنه الغطاء وبدا له ما لم يكن يحتسب.." [نهج البلاغة]

إن الغافل يصل إلى مرحلة لا يتصور معها أنه واقع في الشر أو الضلالة، فيموت قلبه ويصعب وعظه، مما يؤدّي إلى الشقاء في الدنيا والآخرة. وإن أول شرط للاستفادة من المواعظ التي هي حياة القلوب والمدد الغيبي الروحي اتهام النفس واحتمال شرّيتها دوماً: **﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي﴾**، ومشكلة الغافل أنه لا يحتمل مثل هذا الأمر..

وتنشأ الغفلة من أمور عديدة؛ لعل أهمها وأخطرها التواجد في

البيئة المتخلّفة التي تفتقد القيم المعنوية أو لا تقدّس المسائل الروحانية والقضايا الغيبية. ومنها اتّباع الشهوات، حيث يجعل المرء حاجاته الشهوية في المقدّمة دوماً ويقلّدها زمام الأمور وينقاد إلى مطالبها كلما أمَرَت. فيسبب ذلك تقوية للجانب المادي في حياته، وتضعف التوجهات المعنوية فيه (مهما كانت عالية أو قوية) حتى يغفل عنها ويغط في سبات عميق. ومثل هذه الأحوال والآثار مشهودة حتى في حياة المتديِّنين ممن انهمك في معاشه وعياله أكثر من اللازم. ويساهم الترف والثراء في نشوء الغفلة إلى حد أنه يندر أن نجد مترفاً يقظاً أو مرفهاً واعياً.. حتى كأن أكثر الناس لا يصلحهم إلا الفقر وضيق المعيشة!!

ومن الأمور المؤثّرة كثيراً في حدوث الغفلة: معاشرة الفُجّار ومجالسة الفاسقين، بل كل مراودة مستمرة لأهل الدنيا، لا بل الاقتصار على مصاحبة ضعفاء الايمان. وعن الإمام علي‏ﷺ: "**وإن أهل الدنيا أهل غفلة**".

أما أهل التقوى، فيصفهم في خطبة المتقين بقوله: "**ويبيت حذراً.. لما حُذِّر من الغفلة**".

إن ترك صحبة الأبرار وأصحاب الهمم العالية يؤدّي إلى تضاعف حجاب الغفلة. وذلك لأن من اعتاد على مصاحبة الذين لا يهتمون بالتكامل والروحانية، سيجد نفسه بعد مدة أفضل منهم. وبالإضافة إلى احتمال إصابته بالغرور، فإنه سيغفل شيئاً فشيئاً عن طلب المراتب العالية والدرجات الرفيعة. وعندما يغفل الإنسان عن المعالي والمقامات المعنوية، سيجعل بينه وبينها سدا وحاجزا نفسياً يؤدي به فيما بعد إلى إنكارها، فيميت بذلك وسيلته الأساسية للتكامل ويقتل براق عروجه. ولن يتوقف عند هذا الحد، فسيضعف نظره إلى تقصيره حتى يصل إلى أن يعدَّ نفسه من المتفضلين على الدين. ومعلوم أن من أخرجَ نفسه عن حد التقصير يخرج من أدب العبودية وربما يوصله ذلك إلى مبارزة

الله في كبريائه!

وفي المقابل، يوجد عدّة نصائح مهمة لإزالة حجاب الغفلة، منها:

- ذكر الموت: فإنه منغص الشهوات التي تجر إلى الغفلة ومكدر اللهوات التي هي أجواء الغفلة؛ **فعن رسول الله**ﷺ **أنه قال: اذكروا هادم اللذات،** فقيل: يا رسول الله وما هادم اللذات، قالﷺ**: الموت".**

ولا ينبغي أن يشتبه علينا الأمر فنظن أن الإسلام دين لا يريدنا أن نشعر بأية لذة أو سعادة، أو أن كل لذّاته مؤجّلة إلى يوم الحساب. كلا، فإن ما يستفاد من مجموع الروايات الواردة بهذا الشأن، أن اللذات المقصودة هنا هي إما اللذائذ الحرام التي قد تصبو النفس إليها، وإما أنها اللذات المادية الزائدة عن الحد.

ومن المعروف أن اللذائذ الروحية والمعنوية التي تحدث للعبَّاد والزُّهاد هي أكبر وأعلى بكثير من اللذات الحسية.. هذا، وإن كان إلتذاذ هؤلاء أيضاً بالمحسوسات أعظم من التذاذ أهل الدنيا والفسّاق. لكن لما كانوا من أهل المناجاة والخلوة مع الله، فقد نالوا لذة اللذائذ التي تجعل كل لذات الدنيا الفانية كلا شيء.

وعن أمير المؤمنين‰ أنه قال: **"وأوصيكم بذكر الموت وإقلال الغفلة عنه".**

وعن الإمام الصادق‰: **"ذكر الموت يميت الشهوات في النفس، ويقلع منابت الغفلة ويقوي القلب".**

وقال ‰: **"فإن الغفلة مصطاد الشيطان، ورأس كل بلية وسبب كل حجاب".**

- مصاحبة أهل الصلاح من السالكين المنتبهين:

الذين ورد بشأنهم أنك إذا رأيتهم ذكروك بالله.

- قراءة القرآن الكريم الذي هو الذكر الواقعي المضاد للغفلة. قال الله تعالى:

﴿فذكّر بالقرآن من يخاف وعيد﴾.

- المعرفة: بالغاية والحقائق الغيبية. لأن بعض أنواع الغفلة تنشأ من الجهل والنسيان . فمن لم تستحكم في نفسه معرفة الغاية التي خُلق لأجلها معرّض دوماً لأن يقع في ظن الوصول إلى المرام. ما أكثر أولئك الذين يعيشون في الدنيا وكأنهم قد وصلوا إلى غاية المنى والمرتبة القصوى ويظنون أنهم قد أدوا ما عليهم وليس بعد ذلك سوى أن يثيبهم الله على أعمالهم. ولا شك بأن أمثال هؤلاء الغافلين كلّما فتحوا دفتر محاسبة النفس لن يروا أنفسهم مقصّرين، ولن يفكروا بمسؤولياتهم الكثيرة وما هو مطلوب منهم، مما يوقعهم بالمعاصي والأخطاء. كل ذلك من الجهل بالغاية الحقيقية أو ضعف حضورها في النفس. وإن من عرف الغاية وتفكّر بها سيسطع نورها على كل شؤونه وحركاته، ويشعر من جراء ذلك بالتقصير الشديد. وهذا من موجبات اليقظة وطرد الغفلة.

وعن النبي الأكرم ﷺ أنه قال: "**إياكم وفضول النظر فإنه يبذر الهوى ويولد الغفلة..**".

وحول الدنيا يقول الإمام الصادق‌عليه السلام: ".. **ومن اطمأنّ إليها ركبته الغفلة**".

3. حجاب الذنوب والمعاصي

"**.. إلهي وإن الراحل إليك قريب المسافة.. وإنك لا تحتجب عن خلقك إلا أن تحجبهم الأعمال دونك..**".

إن الله سبحانه قد أهبط الناس إلى هذه الدنيا التي هي دار التزاحم ومحل اشتعال الشهوة. فالدنيا بملذاتها محدودة، وبشهواتها مرغوبة

محبوبة. وهذان هما منشأ أكثر الظلم الذي يراه الإنسان أحياناً وسيلته الوحيدة للحصول على تلك الملذّات ونيل تلك الشهوات. ولهذا جاء في الحديث الشريف: "**حب الدنيا رأس كل خطيئة**".

ولم يكن نزول الناس إلى الدنيا من أجل الوقوع في مستنقع الخطيئة، أو لسفك الدماء والإفساد في الأرض، كما خشيت من ذلك الملائكة. بل إن نفس هذا التزاحم في الموارد والحاجات سيكون سبباً لبروز الجمال الكامن في الإنسان، والذي يحصل من جراء تجنّب الظلم وكف النفس عن الهوى. قال الله تعالى: **﴿ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾**.

ولأجل ذلك، ولكي يصل إلى مقام الخلافة الكبرى، ويصبح معلّماً للملائكة المقرَّبين، جعل الله للإنسان برنامج الشريعة الذي يضبط شهواته ونزواته ويمكنه من السيطرة على حاجاته، لتتفتح بعدها استعداداته الكامنة نحو الخير المطلق والجمال اللامتناهي. وفي الحديث القدسي أن الله يقول: "**يا آدم اعمل ما افترضت عليك تكن أعبد الناس**". هذا البرنامج يهدف بالدرجة الأولى إلى تنظيم علاقة الإنسان بالملذّات والشهوات لأجل كفِّ النفس وكبح جماحها وانفلاتها، وبالدرجة الثانية إلى إبراز مكامن الجمال فيها من خلال العبادة والطاعة. ويمكن القول بأن الآثار المباشرة لكل الأحكام الإلهية تقع في هذين النطاقين.

"..إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعز قدسك.." [المناجاة الشعبانية]

وعندما يخالف المرء هذا البرنامج، ويطلق العنان لشهواته، ويعصي الله تعالى، فإن الآثار السلبية لهذه المخالفة والعصيان ستبرز في النفس والقلب، وتلوّث باطن الإنسان، مما يمنع من بروز الجمال الحقيقي وسطوع أنوار الكمال فيه. إننا إذا تأمّلنا في جميع الآيات والروايات التي تحدثت عن الذنوب والمعاصي، نجد أن المشكلة الأساسية فيها هي ما يحصل للإنسان من خسران وآلام وعذاب وشقاء وذهاب طيباته. وليست المعصية مجرّد مخالفة للرب أو تمرّد على الإله المسيطر. فهو تعالى غني عن طاعتنا

ولا تضرّه معاصينا، وهو يقول بشأن المخالفين والكفار: **﴿وتولّوا واستغنى الله والله غنيٌّ حميد﴾**. بل هي تعبير عن الاستغناء عن الرب المتعال ورفض استقبال فيضه وخيره، والبحث عن الخير في محل آخر.

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفّاه حسابه﴾.

إن العاصي بمعصيته كأنه يقول لله الذي بيده كل خير: أنا لا أريدك فاعرض عني!. ومن هنا نفهم لماذا كانت الذنوب حجاباً بين الإنسان المذنب وكماله. وفي الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنه قال:

"في القلب نكته بيضاء، فإذا أذنب العبد خرج من تلك النكتة نقطة سوداء، فإذا تاب العبد زال ذلك السواد، وإذا تمادى في الذنوب زاد السواد حتى يغطي القلب كله، وعندها لا يعود صاحبه إلى خير أبداً. ثم تلا قوله تعالى: ﴿كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾".

وبالاطلاع على تعاليم الإسلام وإرشادات أئمته، نفهم أن للذنوب آثاراً واقعية تكوينية في وجود الإنسان وحياته ومصيره. إن الذنب يعمي قلب الانسان عن الحقيقة؛ بل يمكن لهذا الإنسان أن يصل نتيجة التمادي في الذنوب إلى درجة الاستهزاء بها، كما قال الحق عزّ وجلّ في كتابه الكريم:

﴿ثم كان عاقبة الذين أساؤا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤن﴾.

وهناك الكثير من الآثار الظلمانية للذنب والعصيان، ذُكرت في الروايات والآيات الشريفة. وما يعنينا في هذا المجال معرفة الأثر الأولي وهو إسدال الحجاب وسد باب الفيض الإلهي على الإنسان.

كما أنه من اللازم الالتفات إلى أن ترك الذنب هو أهون عمل يمكن أن يقوم به الإنسان. ولهذا جُعِل بالعموم على رأس المطالب الإلهية..

ولعل هذا المعنى متضمن في حديث أمير المؤمنين عليه السلام حينما يقول: "**إن ترك الذنب أهون من التوبة**".

أجل، هناك من يصل من خلال التمادي في الذنوب وصيرورة المعصية ملكة راسخة وعادة مستحكمة في نفسه إلى مرحلة يرى فيها الإقلاع عن الذنب أمراً في غاية الصعوبة. وفي الدعاء عن أمير المؤمنين عليه السلام:

"**اللهم اغفر لي الذنوب التي تهتك العصم. اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل النقم. اللهم اغفر لي الذنوب التي تنزل البلاء. اللهم اغفر لي الذنوب التي تحبس الدعاء. اللهم اغفر لي الذنوب التي تقطع الرجاء**".

4. حجاب الآراء الفاسدة والعقائد الباطلة

إن من أكبر الموانع التي تقف سداً بين الإنسان وسلوك طريق الله المستقيم تلك الأفكار الخاطئة التي قد يتبناها ويبني عليها حياته وسلوكه.

"**فالعامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا تزيده كثرة السير إلاّ بعداً**".

فكل إنسان ـ مهما كان شأنه ـ إنما يسير في هذه الحياة بناءً على ما يعتقد به، سواء كان أمراً خرافياً ورثه عن عجائز الحي، أو حصل من الدرس والبحث والتحقيق. نحن جميعاً أبناء أفكارنا. وإذا صدرت منّا بعض الأعمال العشوائية، فهذا لا يعني أننا في الخط العام للحياة لا نسير وفق معتقداتنا. فمسيرة أي إنسان من بداية حياته الواعية وحتى نهايتها ليست سوى ترجمة عملية لأفكاره.

ولذلك كان صلاح الإنسان منوطاً في المرحلة الأولى بإصلاح معتقداته ونظرته إلى العالم ورؤيته التي يحملها فيما يتعلّق بالحياة والمصير. وهذا ما يظهر في حركة الرسول الأعظم صلى الله عليه وآله الإصلاحية الكبرى، والتي

أشار إليها الذكر الحكيم بقوله: ﴿يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلّمهم الكتاب والحكمة﴾. لقد أراد رسول اللهﷺ أن يُحْدِث في المجتمع الذي بُعثَ إليه هزّة كبيرة تعيده إلى الصواب، وتجعله يعيد النظر في جميع المعتقدات السائدة والقيم الحاكمة ويشكك بها، ليكون بذلك مفكراً. وفي ظل التفكّر يفهم الحقائق ويتعرف على الآيات الكبرى المبثوثة في القرآن والوجود؛ فيصبح مستعدا للانتقال إلى المرحلة التالية، وهي مرحلة تزكية النفس وتبني القيم السامية. ولم يكن هذا الأمر ليتحقق إلا من خلال تلاوة الآيات التي هي عبارة عن إراءة الوجود والعالم بصورته الحقيقية وتقديم تفسير علمي عميق وشامل لكل مظاهره.

كان لا بد إذن، من تغيير البناء الفكري وطرد المعتقدات الباطلة من عقول الذين أراد بناءهم وأراد إيصالهم إلى الله. ولذلك كانت الموعظة الأولى: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾.

إن هذا الدين عبارة عن مجموعة كبيرة من التعاليم التي تشمل جميع أبعاد وجود الإنسان. وهو من العمق بحيث لا يدرك قعره. وقد يقضي الباحث حياته برمتها في الكشف عن معارفه وأسراره. فهل يصح أن نعيش حالة الاستغناء العلمي والاكتفاء المعرفي لمجرّد أننا أصبحنا ملتزمين. أليس هذا من تسويلات الشيطان اللعين الذي يريد إبعادنا عن حقائق الدين ومعارفه التي بذل الأنبياء من أجل نشرها وتثبيتها أغلى التضحيات؟!

".. إلهى هب لى كمال الانقطاع إليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعز قدسك.." [المناجاة الشعبانية]

قد لا نعلن هذا الأمر بصراحة، ولكننا إذا نظرنا إلى حياتنا وموقفنا من العلوم الإسلامية وعلاقتنا بطلب العلم والعلماء نلتفت إلى أننا نتصرّف على هذه الشاكلة. وهذا الأمر لا يؤدّي إلى الجهل والفراغ فقط، بل يسمح بدخول الآراء الفاسدة والمعتقدات الباطلة. ذلك لأن النفس لا تقبل الجهل ولا تستأنس به، وهي ترفض أن لا يكون لديها العلم بما تواجهه من مسائل وقضايا. فإذا لم تحصل على

الأجوبة الصحيحة عن تساؤلاتها، أسرعت إلى تعبئة الفراغ بما لديها من أهواء، وبما يزوِّدها به أصحاب الشبهات.

ولا يشك عاقل بأن الأفكار الخاطئة ستكون سبباً لارتكاب الأخطاء واجتراح المعاصي. ولهذا قيل أن الجهل منشأ كل شر. فيعلم حينها الدور السيىء للأفكار الخاطئة.

وعليه، فلا يوجد من وسيلة للتخلّص من هذا الحجاب سوى التعلّم. ولن يتحرك المرء نحو التعلم ما لم يعترف بينه وبين نفسه بالجهل، ولو على نحو إجمالي. وإن مثل هذا الاعتراف الضمني يجعله متواضعاً فيتحمّل من أجل التعلم كل أشكال التعب والتذلل. وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: **"من لم يصبر على ذل التعلم ساعة بقي في ذل الجهل أبدا"**.

وما أروع ما روي عن الإمام الكاظم‎عليه السلام حيث يقول:

"لا يزال الرجل عالماً ما دام متعلماً، حتى إذا ظنّ أنه علم فقد جهل".

ويجب الحذر دائماً من الأفكار والآراء التي تُنشر حول المسائل الأخلاقية والعرفانية، لأن هذا العالم ما زال غضاً طرياً قابلاً للتأويل والاجتهادات المتنوعة، وهو مع ذلك بحر عميق وطلابه قلّة والمصطادون فيه كثر. ومن جملة ما يقال أن السير والسلوك أمر مقتصر على العرفاء الكبار، وأن تحصيله يحتاج إلى جهد كبير كنقل الجبال برموش العين، وأنه أمر اختصاصي يحتاج إلى مقدمات طويلة، وغيرها من الشبهات التي تؤدي كل واحدة منها إلى إغلاق الباب العظيم الذي بعث الأنبياء لفتحه على البشر. وحول هذا الأمر يتحدث الإمام الخميني في وصاياه العرفانية فيقول:

"وإنها لمعجزة الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله الذي كان عالما بمبدأ الوحي بحيث يكشف له أسرار الوجود وكان صلى الله عليه وآله

بدوره يرى الحقائق بوضوح ودون أي حجاب وذلك بعروجه وإرتقائه قمة كمال الإنسانية، وفي نفس الوقت كان حاضرا في جميع أبعاد الإنسانية ومراحل الوجود فمثّل بذلك أسمى مظهر لـ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾ كما سعى إلى رفع جميع الناس للوصول إلى تلك المرتبة وكان يتحمل الآلام والمعاناة حينما كان يراهم عاجزين عن بلوغ ذلك ولعل قوله تعالى طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى إشارة خفية إلى هذا المعنى ولعل قوله صلى الله عليه وآله ما أوذي نبي مثلما أوذيت يرتبط بنفس المعنى أيضا"..

ويقال أحياناً "**إن العرفان علم مستورد من الفرس واليونان والبوذيين وما سمعنا به في الإسلام**". وأحياناً يُطعن بالعرفاء أنفسهم فَيُتَّهَمون بالمنكرات وعظائم الأمور ويخلط بينهم وبين بعض أصحاب الشطحات والعقائد الفاسدة المدعين للعرفان دون أي تحقيق.

فلنحذر من مثل هذه الإفتراءات المنتشرة، والتي يكفِي واحد منها ليصدنا عن سبيل الله؛ بحيث يصعب بعدها إيجاد سبيل للهداية.. وعن الإمام الكاظم عليه السلام أنه قال:

"**أعظم الناس ذنباً وأكثرهم إثماً على لسان محمد صلى الله عليه وآله الطاعن على عالم آل محمد والمكذّب ناطقهم والجاحد معجزاتهم**".

ولقد شاهدنا، ولا زلنا، الآثار البغيضة لمثل هذه الافتراءات المتعرضة للأبعاد المعنوية العميقة في الدين بصور شتى. وقد نهض الإمام الخميني قدس سره لمواجهتها وليفتح الباب الذي أغلق ردحاً طويلاً من الزمن على هذه الأمة، التي يأبى البعض فيها إلا أن يسدّوه.

يقول عالم آل محمد في كتابه المعروف بـ "الأربعون حديثاً"[1]:

"**إعلم أن أسوأ أشواك طريق الكمال والوصول إلى المقامات المعنوية والتي هي من الأعمال الكبرى للشيطان، قاطع الطريق: إنكار المقامات**

والمراتب الغيبية والمعنوية. حيث أن هذا الإنكار والجحود هو رأسمال جميع الضلالات والجهالات وسبب الوقوف والجمود ومميت للشوق الذي هو براق الوصول إلى الكمالات".

ويقول أيضاً:

"ومن غرائب الأمور ما يذكره البعض في مقام الطعن والأشكال من أن ما يقوله أئمة الهدى لإرشاد الناس ينبغي أن يطابق الفهم العرفي، ولا يجوز أن يصدر منهم غير هذا من المعاني الفلسفية أو العرفانية الدقيقة. إن هذا افتراء فجيع جداً وتهمة في غاية الفظاعة، ناشئة من قلّة التدبر في أخبار أهل البيت وعدم الفحص والبحث فيها، إضافة إلى أمور أخرى..".





وصية الإمام لابنه

بني:

إن السبب الرئيسي للندم وأساس ومنشأ جميع ألوان الشقاء والعذاب والمهالك ورأس جميع الخطايا والذنوب إنما هو حب الدنيا الناشئ من حب النفس. بيد أنه ينبغي القول أن عالم الملك ليس مبغوضاً ولا مذموماً في حد ذاته فهو تجلي الحق ومقام ربوبيّته تعالى ومهبط ملائكته ومسجد ومكان تربية الأنبياء والأولياء عليهم السلام ومحراب عبادة الصلحاء وموطن تجلي الحق على قلوب عاشقي المحبوب الحقيقي. فإن كان حب عالم الملك والتعلّق به ناشئ من حب الله باعتباره محلاً لتجليات الحق جلّ وعلا فهذا أمر محثوث عليه ويستوجب الكمال، أما إذا كان منشؤه حب النفس فهو رأس الخطايا جميعاً. إذن فالدنيا المذمومة هي في داخلك أنت والتعلّق بغير صاحب القلب وحبه هو الموجب للسقوط. وفي الوقت نفسه فإن أي قلب لا يمكنه فطرياً أن يتعلّق بغير صاحب القلب الحقيقي، وجميع المخالفات لأوامر الله وجميع المعاصي والجرائم والجنايات التي يبتلى بها الإنسان كلّها من حب النفس الذي يولّد حب الدنيا وزخارفها وحب المقام والجاه والمال، ومختلف الأماني هي التي تجعلنا نميل خطأً واشتباها نحو غير صاحب القلب وهي ظلمات فوقها ظلمات.

نحن وأمثالنا لم نصل الحجب النورانية بعد وما زلنا أسرى الحجب الظلمانية! فمن قال "هب لي كمال الإنقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك، حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة". فقد اخترق الحجب الظلمانية وتعداها. أما الشيطان الذي خالف أمر الله ولم يسجد لآدم فقد رأى نفسه عظيماً لأنه كان في الحجب الظلمانية. و"أنا خير منه خلقتني من نار" جعلته يطرد ويبعد عن ساحة الربوبية!

نحن أيضاً ما زلنا في حجاب النفس والأنانية فنحن شيطانيون مطرودون من محضر الرحمن وما اصعب تحطيم هذا الصنم الذي يعد "أم الأصنام" فنحن ما دمنا خاضعين له مطيعين لأوامره فنحن غير خاضعين لله جلّ وعلا غير طائعين لأوامره وما لم يحطم هذا الصنم فإن الحجب

الظلمانية لن تتمزّق ولن تزال. وحتى يتحقق ذلك علينا أن نعرف ماهية الحجاب أولاً فنحن إذا لم نعرفه لن نستطيع المبادرة إلى إزالته أو إضعاف أثره أو على الأقل الحد من تزايد رسوخه وقوته بمرور الوقت. روي أن بعض الأصحاب كانوا يجالسون الرسول الأكرمﷺ فسمع صوت مهيب فسألوا: ما هذا الصوت؟ فقالﷺ: "إنه صوت حجر كان قد ألقي إلى جهنّم قبل سبعين سنة وقد بلغ قعرها الآن".

بعدها علموا أن كافراً كان قد مات لتوّه عن سبعين من العمر وإذا صح الحديث فإن من سمعوا الصوت لا بد أنهم كانوا من أهل الله أو قد يكون الأمر قد تم بقدرة الرسول الأكرم | بقصد إسماع الغافلين وتنبيه الجاهلين.

من كتاب "الوصايا العرفانية" - الإمام الخميني



في الفهم والتحليل

1. ...

1. يمكن أن يتعرّف الإنسان على نقصه من خلال:
أ. قراءة الكتب العقائدية المعمّقة.
ب. معرفة الكمال الذي وُعدَ به.
ج. الاستماع إلى المواعظَ التي تذكّر بالموت.
د. لا يمكن للإنسان أن يتعرّف على نقصه.

2. أكثر ما يؤثر على تصورنا للسعادة هو:
أ. الرياضة البدنية والألعاب.
ب. البرامج الإذاعية والتلفزيونية.
ج. التربية والبيئة التي نعيش فيها.
د. القصص والمجلات.

3. التفاوت في القابليات بين البشر هو:
أ. أمر ثابت لا يمكن تغييره.
ب. أمر قابل للتغيير والتعديل.
ج. لا يوجد تفاوت في القابليات.
د. أمر يعود إلى عالم الذر.

4. قابلية الإنسان تعني:
أ. إمكانية أن يتحقق بأية صورة.
ب. الاستعداد الكامن في نفسه.
ج. تقبله للانتقاد برحابة صدر.
د. إشتهاء الطعام والشراب.

5. كل آلام البشر ومشاكلهم نابعة من:
أ. طلبهم للسعادة اللامحدودة التي ليس لها وجود.
ب. طلب الكمالات المحدودة كغاية لحياتهم.
ج. عدم حصولهم على ما يشتهون.
د. الظلم الحاصل في العالم.

6. من أفضل الطرق لتفعيل القابليات:
أ. قراءة الأدعية بانتظام.
ب. الثقة برحمة الله الشاملة.
ج. الابتعاد عن الناس.
د. تجنب الأفكار الهدامة.

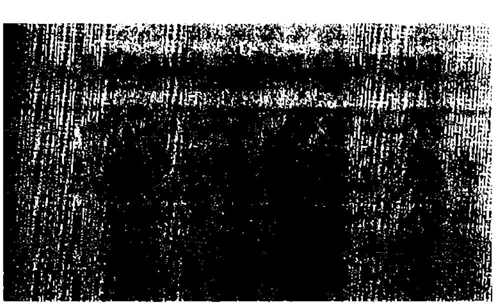
7. إن الله تعالى لا يمسك عطاءه عن...
أ. لأنه عدل في خلقه.
ب. بل يمسك عطاءه عن بعض الشعوب.
ج. إلاّ إذا امتنع هو عن استقباله.
د. لأن الإنسان يستحق العطاء.

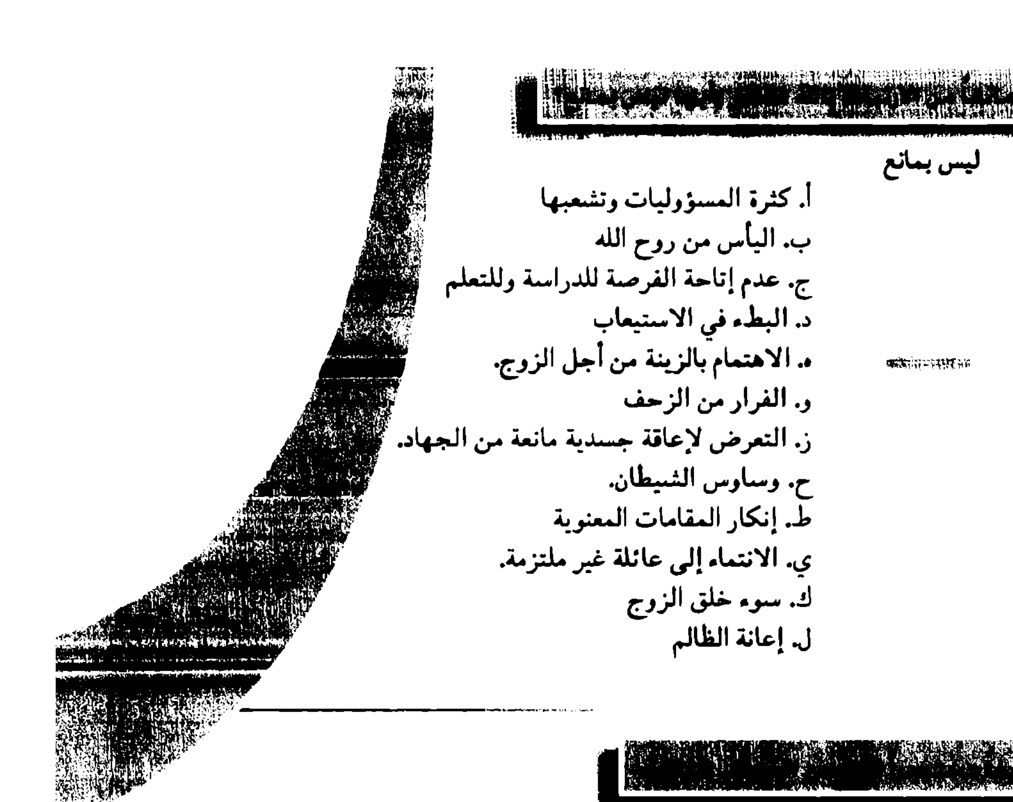
8. الفقر يؤدّي إلى الكفر لأنه:
أ. يجعل الإنسان بعيداً عن العلم والمعرفة.
ب. يجعل الإنسان ضعيفاً في العبادة.
ج. يجعل الإنسان تابعاً للطاغوت.
د. إذا اجتمع معه سوء الظن بالله.

9. يتحمّل الإنسان مسؤولية النقص :
أ. لأنه من المفترض أن يكون كاملا.
ب. لأن جميع الظروف تساعده على الكمال.
ج. لا يتحمّل الإنسان المسؤولية لوحده.
د. لأن الله يسر له سبل الكمال.

10. الذنوب تؤدّي إلى الحرمان والنقص:
أ. لأنها عبارة عن الإعراض عن أصل الغنى والكمال.
ب. لأنها تسجل في كتاب الإنسان.
ج. لا تؤدّي الذنوب إلى النقص.
د. لأنها تعبّر عن سوء سريرة الإنسان.

2. مفردات للمذاكرة





3. [illegible]

	مانع	ليس بمانع
أ. كثرة المسؤوليات وتشعبها		
ب. اليأس من روح الله		
ج. عدم إتاحة الفرصة للدراسة وللتعلم		
د. البطء في الاستيعاب		
هـ. الاهتمام بالزينة من أجل الزوج.		
و. الفرار من الزحف		
ز. التعرض لإعاقة جسدية مانعة من الجهاد.		
ح. وساوس الشيطان.		
ط. إنكار المقامات المعنوية		
ي. الانتماء إلى عائلة غير ملتزمة.		
ك. سوء خلق الزوج		
ل. إعانة الظالم		

4. [illegible]

حجاب القابلية:

حجاب الغفلة:

حجاب الذنوب والمعاصي:

حجاب الآراء الفاسدة والمعتقدات الباطلة:

5. [illegible]

وفق الحجاب الأبرز الذي تتسبب به أو تكون مؤشراً على وجوده: (بكتابة "ق" لحجاب القابلية، "غ" لحجاب الغفلة، "ذ" لحجاب الذنوب، "أ" لحجاب الآراء الفاسدة،بعض المسائل يمكن أن تتسبب في أكثر من حجاب)

1. التركيز على نقائص الآخرين
2. أكل ما لا تشتهيه
3. إهانة المؤمن
4. التباهي بامتلاك السيارة والأثاث الفاخر
5. عدم القيام في وجه الظلم
6. الأمن من مكر الله
7. معاشرة المداحين والمتملقين لنا
8. عدم الرغبة في طلب العلم
9. الاعتقاد بأن الفرصة لإصلاح الذات قد انقضت
10. الاعتقادات بأن الكرامات هي الهدف

6. [illegible]

o الرزق المادي والرزق المعنوي

....

....

o القابليات والإمكانات الحالية

....

o الحجب الظلمانية والحجب النورانية

....

....

o العقل والفطرة

....

....

7. [illegible]

1. يمكن للعقل أن يصبح مانعاً من السير المعنوي لأنه يضعف التوجهات القلبية.
2. عدم وصول معظم الناس إلى السعادة المطلقة يعود إلى سوء اختيارهم.
3. اتصاف البشر بالكمالات المحدودة دليل على إمكانية اتصافهم بجميع الكمالات.
4. الدراسة والمذاكرة هما الأساس في تحصيل العلم والهداية.
5. اختلاف نسبة الذكاء بين أفراد البشر يعود إلى اختلاف قابلياتهم.
6. الموت يحرم الإنسان من فرصة التكامل.
7. من أولى الأمور في طريق التكامل المعنوي الاعتراف بالنقص والتقصير.
8. إن كثرة الانشغالات تمنع الإنسان من أداء حق العبودية لله تعالى.
9. كل لذة ينالها الإنسان في هذه الدنيا تكون سبباً في إبعاده عن الله تعالى.
10. مهما كانت التأثيرات السلبية للتربية والبيئة التي ينشأ فيها الإنسان، فإنه يبقى قادراً على التغيير والتكامل.

.8

الاتصال. الإيمان. اختياره. فراغ. الدنيا. أسفل سافلين. العبودية. مطلقة. الخالق. الفطرة. الدنيوية. المعنوية. الغيبية. الفيض الإلهي. خليفة. أعلى عليين.

إن عدم توجهنا نحو الجمال الحقيقي المتمثّل بـ ومظاهره، والتوجه نحو وزخارفها، هو مظهر ضمور .... وضعفها فينا.

القابليات هي بمنزلة أدوات ووسائل ..... بين المخلوق و فكما أن لكل إنسان حواساً يتصل بواسطتها بعالم الدنيا وينال من خلالها حظوظه ، كذلك من المفترض أنه يوجد في كل إنسان وسائط للاتصال بالحقائق فهي وسائل وأدواتها التي ركبها الخالق فيها لتكون قادرة على إستقبال حظوظها.

إن أفضل تعبير عن مشكلة الإنسان على هذه الأرض هو أن هذا الإنسان قد احتجب عن ربّه بـ

إن الكمال الواقعي يحصل من جراء روح والالتزام بأوامر الله واجتناب نواهيه؛ وهي أمور ليست موقوفةً على وجود أوقات أو ظروف خاصة.

إن منشأ التذرع بالعوامل الخارجية لتبرير الحرمان المعنوي هو الجهل بحقيقة

إن الاعتقاد بوجود قابلية في جميع الناس يعني أن كل إنسان يحمل في ذاته مشروع الصيرورة لله تعالى، كما يعني أن الله سبحانه قادر على أن يرفع أي إنسان من إلى .... بلحظة واحدة.

.9

9.1. اعتبر البعض أن عدم وصول أكثر الناس إلى الله يعود إلى الاختلاف في قابلياتهم، فما هو ردك على ذلك؟

9.2. هل يمكن أن تكون الظروف الخارجية سبباً للحرمان المعنوي ولماذا؟



اعتمد النموذج التالي للإجابة عن السؤال:

الإجابة: (النتيجة المتوخاة)

فكرة داعمة أولى:

فكرة داعمة ثانية:

فكرة داعمة ثالثة:

(الفكرة الداعمة تقدم المعطيات، الأسباب، الأدلة، الآيات، الأحاديث الداعمة للإجابة)

الاستنتاج: (كتابة خلاصة تؤكد على النقطة الرئيسية في الإجابة)

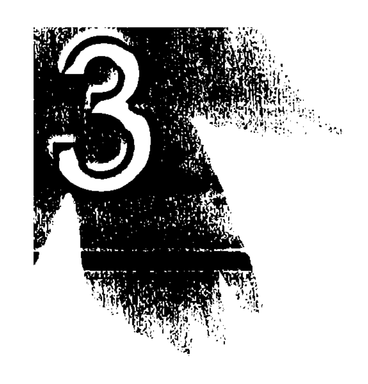
أعد صياغة إجابتك في فقرة.

تشكو لميا من صداع مزمن، نادراً ما يفارقها. وعندما تأتي نوبة الصداع تصبح متوترة جداً وعصبية. تشارك أحياناً في مجالس الوعظ والذكر، لكنها في قرارة نفسها تعلم أن مرضها يمنعها من تحقيق الكثير من الأمور التي تسمع عنها من حالات السالكين ومقامات العارفين .. لقد باتت شبه متأكدة أنها لن تخرج من وضعها الميؤوس.

ما رأيك بعقيدة لميا .. وهل لديك حل لمشكلتها؟



بالرجوع إلى القرآن الكريم استخرج مجموعة من الآيات تشير إلى العوامل التي تمنع من استقبال الفيض الإلهي وتؤدي إلى الشقاء الأبدي.



الغاية التي خلقنا لأجلها
كيف نتعرف إليها



الغاية التي خلقنا لأجلها

مع نهاية هذا الفصل تكون قد تعرّفت على:

- أهمية معرفة الغاية وتأثيرها في السير المعنوي.
- إن جميع تحركات البشر لا تخلو من غاية.
- الفرق بين غاية الفعل الإلهي وغاية الإنسان.
- ضرورة التعرّف على الغاية بطريقة استدلالية.
- إن معرفة الغاية شرط أساسي للسفر المعنوي.
- العلاقة بين الميول الفطرية والغاية النهائية.
- لماذا لا تهدينا الميول المكتسبة إلى الغاية النهائية.

أهمية هذه المعرفة

إن البحث عن الغاية التي خلقنا الله لأجلها يعتبر من أكثر الأبحاث والمعارف أهمية وأعظمها تأثيراً على سلوك الإنسان ونظرته للعالم. وتنبع أهميته من جوانب عديدة، لعل أحدها أنه سؤال يبحث عن جوابه جميع الناس أينما كانوا؛ ويندر أن نجد إنساناً يأمل بالحياة ولم يجعل لنفسه هدفاً يسعى لبلوغه في جميع حركاته ومشاريعه. وغالباً ما تكون الأهداف التي يصبو إليها الناس دافعاً أساسياً لجميع أنشطتهم وأفعالهم. ولو فقد المخلوق روح الهدف والغائية، لانعدم فيه الأمل بالبقاء وخبت بهجة الحياة في عينيه، ولكان الموت عنده أفضل من العيش في هذه الدنيا.

هذا، وبالرغم من تأثير هذا الموضوع وأهميته، فإنه لا يُعطى الحظ الوافي من التأمل والتفكر والبحث عند معظم الناس. حتى الأبحاث الفكرية باتت تتجنب الخوض في مثل هذه القضية المصيرية وتستغرق بالتفاصيل. وهناك جماعات وتيارات ذات شعبية واسعة لم تعد تؤمن بوجود هدف لحياة الإنسان على الأرض وأصدرت بطاقة النعي لمصير البشرية.

فعلى صعيد العالم وصلت العديد من الفلسفات والأطروحات

العقائدية إلى طريق مسدود بعدما وجد أصحابها أن الإنسان المتمدن الذي كان يفترض به أن ينشر التنوير في كل أرجاء المعمورة إرتكب أفظع الجرائم في الحروب العالمية ولا زال. فكيف إذا أضفنا إلى هذه التيارات الفكرية المصالح السياسية في الحرب الباردة بين معسكري الشرق والغرب حينما كان المعسكر الرأسمالي يلهث لمواجهة المد الشيوعي والفكر الاشتراكي الذي كان يطرح للمجتمعات البشرية أهدافاً مثالية وأيديولوجيات هادفة!.

فقد عملت الدوائر الاستخباراتية التي كانت تدير حرباً ثقافية وإعلامية واسعة على إسقاط الأيديولوجيات والأهداف المثالية كإحدى الوسائل الأساسية لإسقاط الإيديولوجية الماركسية. ونتج عن ذلك شيوع ثقافات العبثية والتحلل. وهو سقوط البحث عن الأهداف السامية للحياة الإنسانية!

ولم تكن بلادنا الإسلامية بمنأى عن التأثيرات الهدامة لهذه الحرب الثقافية المستعرة. ولكن ما زاد المشكلة تعقيداً هو الإحباط المستمر الذي كان يصيب شعوبها جراء الهزائم العسكرية على يد الكيان الصهيوني، وأداء الأنظمة الحاكمة التي اتبعت سياسة تدجين طويلة الأمد.

وعليه، فلا غرابة فيما نراه من انتشار اليأس بين الشباب وشيوع الإدمان واللامبالاه بالقضايا السياسية والمصيرية.

إن الوقائع المختلفة تبيّن لنا أن إهمال المعرفة الواعية والدراسة المستوعبة لموضوع "هدف الحياة" أو "هدف وجود الإنسان على الأرض"، من شأنه أن يعرّض جميع الأصول المعنوية لضربة قاصمة على يد ثقافة التشكيك والتحلل.

وفي المقابل، نجد أن هذا الموضوع يعد من أكثر المسائل الفكرية جمالاً وأعلاها جاذبية، وأن من يصل إلى إدراك الحقيقة الكامنة فيه، سيصغر في عينيه كل جمال أو كمال أو أية لذة في هذه الدنيا.

وقد طُرح هذا البحث بصور شتى في الكتابات الحكمية والعرفانية الدقيقة وتحت عناوين مختلفة. أشهرها ما يدور حول الإنسان الكامل، والتوحيد الحق والموحد الحقيقي، ومباحث علم الله سبحانه. ونظراً لعمقه ودقته، نحتاج إلى فهم بعض المقدمات التي تجعل الذهن أكثر استعداداً لاستيعاب أبعاده.

وهذه المقدمات ينبغي أن تجيب عن الأسئلة التالية:

1. ما الفرق بين هدف الله من خلق الإنسان وهدف الإنسان في الحياة؟

2. وهل حقاً يوجد غاية نهائية إلهية، وما الفرق بينها وبين الغايات المختلفة؟

3. هل يمكن للإنسان أن يصل إلى الغاية النهائية؟

4. هل ينبغي أن يتعرف كل الناس على الغاية؟

5. ما هو طريق معرفة الغاية الحقيقية؟

أولاً: هدف الله أم هدف الإنسان؟!

اشتبه أمر الكمال المطلق على البعض، فظنوا أن قول العرفاء بأن الإنسان يصل إلى الكمال المطلق ويتحقق [illegible] واضح البطلان.. ثم قالوا لأن الإله هو الموجود الغني الذي لا يحتاج إلى أحد. ولأن الإله واحد لا شريك له. فلا أحد يصل إلى الكمال المطلق. وهذا الاشتباه مرده إلى عدم معرفة حقيقة الوجود وأصل الكمال.

عندما يطرح هذا السؤال: "لماذا خلقنا الله؟!"، يتصور البعض أنه بحث أو سؤال يريد أن يستكشف غاية الله وهدف ذاته المقدسة من خلق الإنسان. والواقع أن لهذا السؤال وجهين. فهو تارة يعبّر عن تساؤلنا حول غاية الله من خلقه، وماذا ينال الرب المتعال من هذا الخلق. وتارة يدور حول الغاية التي ينبغي أن يصل إليها الإنسان نفسه. والفرق بين الوجهين واضح، وخصوصاً إذا التفتنا إلى الفارق الجوهري بين ذات الله الغني مطلقاً وذات الإنسان الذي هو عين الاحتياج والفقر. ولهذا قيل أن هذا السؤال يصح طرحه حول الإنسان ولا يصح بالنسبة للذات الإلهية.

فالله سبحانه هو الغني الذي لا ينقصه شيء ولا يحتاج إلى شيء،

لأنه بذاته له الكمال المطلق، وكل كمال هو مظهر له. وعليه، فلا يعقل أن نتصور أن الله تعالى يفعل أي شيء لأجل سد نقص أو إشباع حاجة أو تحصيل مقام! إنه المالك لكل شيء، وهو المفيض بكل خير والكل محتاج إليه. ولهذا، إذا كان سؤالنا عن غاية الله وقصدنا به غاية فعله تعالى، فإن الجواب هو أن جميع أفعاله تعالى ترجع إلى ذاته؛ وهي ظهور كماله الإطلاقي وتجلي جماله اللامتناهي. إن فعله تجلي ذاته فحسب. كما لو فرضنا رسّاماً يبدع اللوحات الجميلة لا لتحصيل المال أو كسب الشهرة، بل لأنه فنّان. ففنه وإبداعه لا بد أن يتجلى في أعماله. وهو أشد ابتهاجاً بذاته وفعله من غيره.

أما إذا كان سؤالنا يدور حول كشف أسرار أفعاله والحكمة من وراء خلقه، فإنه سبحانه، بمقتضى رحمته الواسعة التي وسعت كل شيء وحكمته المطلقة، لا يفعل شيئاً إلاّ لغاية تنبع من ألوهيته وشمول فيضه وعطائه. فإنه تعالى أكرم الأكرمين، ومن سعة كرمه وإطلاقه أوجد الإنسان والعالم اللذين هما مظهر فضله وآيات كرمه.

ومن أراد التوسع في هذا البحث، يمكنه مراجعة الكتب الحكمية والمؤلفات العرفانية الجليلة. فقد اقتصرنا في هذا الكتاب على البحث عن الإنسان وبرامج إعداده وتربيته. فلننتقل إلى الوجه الثاني للسؤال، ونكمل طي مقدماته.

ثانياً: هل يوجد غاية حقيقية للإنسان؟

هناك من أنكر وجود غاية حقيقية للإنسان، والمنكرون لهذا الأمر فئتان:

فئة تنكره من خلال ما تتبناه من أصول عقائدية وفكرية. مثل الذين اعتبروا أن القول بضرورة وجود هدف لخلق الإنسان يستلزم الحد من قدرة الله والحكم عليه. وكل ضرورة من هذا القبيل تعني - بنظرهم -

أننا نغلب الله ونجبره.

أو كالفلاسفة الماديين الذين اعتبروا وجود الإنسان نتاج عملية تطور وارتقاء طبيعي لحركة المادة والكائنات الحية. فهو نتاج مسيرة الكون الذي تشكل من غبار ذري، ومن أبسط جزيئات المادة. ونجم عن مثل هذه الرؤية الكونية فلسفة العبثية في كل شيء، ومن آثارها المسلكية الدعوة لتحصيل اللذات الحسية بما أمكن وإغتنام فرصة الحياة للتمتع كيفما كان، لأن الناس ليسوا سوى تشكلات للمادة وقعوا في آخر سلسلة التطور لحد الآن؛ وقالوا أن ما يحرك البشر ليس سوى تفاعل العناصر الكيميائية الموجودة ضمن تركيبتهم العصبية!

وقد وجد في الماضي أمثال هؤلاء ممن حكى القرآن الكريم عنهم بقوله:

﴿وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلاّ الدهر﴾.

الفئة الثانية: أنكرت وجود الغاية السامية والهدف الحكيم عملياً ومسلكياً، وإن لم تخض في بحثه نظرياً وفكرياً. فحياتها تحكي عن إنكار مثل هذا الهدف واللامبالاة أمام أي طرح جاد أو دعوة مشفقة. وهذه الفئة تشكّل النوع الغالب من الناس، وهم الذين وصفهم أمير المؤمنين عليه السلام بقوله:

"همج رعاع اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح لم يستضيئوا بنور العلم..".

وفي المقابل فإن من آمن بحكمة الله المطلقة وقدرته اللامتناهية، فهو يعلم يقيناً أن من شأن البارئ الحكيم إذا خلق شيئاً مهما كان أن يجعل له هدفاً:

﴿قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾.

كما أن من صفات الحكيم أنه إذا قام بعمل ما أن يقصد من ورائه

غاية صحيحة. والواقع أن وجود غاية لكل مخلوق هو واجب من الله تعالى، لا انه واجب عليه: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾. فلا أحد يقدر أن يفرض عليه شيئاً، لكنه تعالى عرّفنا نفسه بالحكمة، وصار لزاماً أن نرى الحكمة والغاية وراء أفعاله. فإذا كنا نصر على وجود غاية وراء أي فعل إلهي، فلا يعني ذلك أننا نحتم على ربّنا ونفرض عليه رأينا.. إن الله يريدنا أن نعرف هذه الضرورة ونؤمن بها، وشتان بين هذا الكلام والقول بأن حتمية الغاية تعني فرض إرادتنا على الله سبحانه.

ويطرح في هذا المجال مسألة مهمة جديرة بالإنتباه والتدقيق. وهي أن ما نبحث عنه في الأصل يتعلّق بالغاية التي يريدها الله لنا، الغاية التي خلقنا من أجل الوصول إليها، الغاية التي سنحاسب على أساس الوصول إليها. وليس بحثنا عن الغايات المختلفة التي يضعها الناس لأنفسهم. إن جميع البشر لا يمكن أن يعيشوا بدون غاية ما، مهما كانت وضيعة أو سخيفة. فهذا يريد المنصب الفلاني، ولأجله يفعل أي شيء؛ وقد يبذل كل غال ونفيس ويضحي في سبيله بآلاف الأشخاص. وآخر يرى غايته القصوى وسعادته النهائية في راحة البال والاستقرار أو في كثرة الأموال والأولاد، وهكذا. فلا يخلو أي إنسان من طلب شيء والتوجه إلى مقصد أو غاية. وإذا أردنا أن نتعرّف على غايات الناس من حولنا، نحتاج إلى إجراء دراسات ميدانية واستطلاعات للرأي، مع الأخذ بعين الاعتبار إحجام أكثر الناس عن التصريح بحقيقة غاياتهم!



إن نشوء الغايات المختلفة يرجع بالدرجة الأولى إلى تلك القيم السائدة التي يتبناها المجتمع، والتي قد تكون في مجتمع ما عبارة عن غلبة قيم الانحلال الأخلاقي والثقافة المادية وتمجيد اللذة، وفي مجتمع آخر قيم الحياة الآخرة وثقافة الشهادة.

إن جوهر القضية يكمن في معرفة الغاية التي خلقنا الله لأجل الوصول إليها، لأنها سر وجودنا على الأرض. ولأجل تحقق هذه المعرفة نحتاج إلى سلوك طريق آخر، سنشير إليه في المقدمة الخامسة.

ومن الملاحظ أننا عندما نعرض الأهداف المختلفة للبشر مقابل الهدف الإلهي والغاية الربانية، سنكتشف أنها أهداف وهمية مهما عظمت في أعين أصحابها. وأن السعادة التي ينشدها أتباع الأهداف الأرضية من وراء الوصول إلى هذه الأهداف لن تتحقق أبداً بوصولهم إليها.

ثالثاً: هل يمكن الوصول إلى الغاية؟

وقد يتعجّب المرء ممن يطرح هذا السؤال بعد حل إشكالية وجود غاية حقيقية للإنسان! فإذا كان هذا الكون بكل ما فيه قد خُلق لأجل هدف نهائي وجُعل في خدمة الإنسان نفسه، فهل يُعقل أن لا يزوده الله تعالى بما يمكنه من الوصول إلى الهدف؟! أليس هذا مخالفاً للحكمة، أو من قبيل نسبة العجز إلى الله تعالى؟!

قد يقل هذا التعجّب بعد أن نتعرّف على الغاية النهائية. لأن بعض الذين أنكروا إمكانية الوصول إلى الغاية، إنما فعلوا ذلك عندما نظروا إلى الواقع الذي عليه أكثر الناس من ضعف القابليات والإمكانيات والغياب التام لهذه التوجهات السامية عن حياتهم وتفكيرهم. بل واستحالة وصولهم إلى فهم معانيها وحقائقها. والتجارب الكثيرة تبيّن كم يعاني العالم المبلّغ في إفهام الناس أبسط المفاهيم الدينية.

ولهذا ينزع بعض المتأمّلين في أحوال البشر إلى رفض ومخالفة إطلاق قاعدة كلية في هذا الخصوص، والبحث عن قواعد أخرى تكون مخرجاً لأمثال أولئك المستضعفين من البشر!

ونحن قد تعرّضنا لأصل هذه المسألة حينما بحثنا حول القابليات المودعة في خلقة الإنسان. وأشرنا إلى ضرورة الفصل ـ بصورة أولية ـ بين الرؤية الكونية والمفاهيم العميقة للإسلام من جهة، والواقع الذي عليه الناس من جهة أخرى. وإن التاريخ يحدّثنا كما الحاضر، أن العديد من أتباع الأنبياء الذين وصلوا إلى قمة الإنسانية وختموا

حياتهم بالشهادة التي هي أعظم شرف للإنسان في الحياة الدنيا وأرقى مظهر لبلوغ الغايات والمقامات الرفيعة، كانوا من المستضعفين المنبوذين الذين لا يتصور بشأنهم مثل هذه الدرجة السامية. وإن من معاجز الأنبياء وكراماتهم العظيمة ما تحقق في هذا المجال من تربية المضطهدين والمنبوذين الذين كان كبراء الأقوام يرونهم أراذل. ولا نحتاج إلى الإبتعاد كثيراً في الزمن فهذا الإمام الخميني محيي القيم الروحية في نفوس المستضعفين الذي وصفه الإمام الخامنئي قائلا: **"لقد كنا نحاساً فحوّلنا إلى ذهب، وكنا أمواتاً فأحيانا الإمام"**..

ولا ينبغي والحال هذه أن نستقل ما هو كامن لمجرد أننا لا نراه؛ وإذا كان الناس يظهرون لنا بصورة الجهل والإعراض عن القيم المعنوية الرفيعة، فسرعان ما يحدث التحول بفضل النصر الإلهي.. وقد جاء في بعض الأحاديث: **"أن الله تعالى أخفى أربعة في أربع.. منها أنه جعل أولياءه في أقل خلقه"**.

أجل، إذا كنا في مجال التعليم والتربية فينبغي أن نراعي القدرات الذهنية والأحوال النفسية، لكن في نفس الوقت نسعى لكشف الطاقات الكامنة والاستعدادات الخفية، وكلنا إيمان بأن الله تعالى يستخرج من بين هذه المعادن الذهب والفضة؛ **"الناس معادن كمعادن الذهب والفضة"** الحديث.

فبأي حق يجوز للمربي أن يستبعد إمكانية هداية من لا يملك بنظره أية قابلية لمعرفة الغاية والسير إليها. ولو كان الأمر كذلك لكان الأنبياء أول من يضع الهداية جانباً. ولعل قوله تعالى **﴿ما على الرسول إلا البلاغ﴾**، إشارة إلى هذا الأمر.

الرؤية التربوية السليمة تراعي العقول المتباينة لكنها لا تغلق الباب ولا تضع سقفاً لا ينبغي تجاوزه. فهي تفسح المجال لمن شاء أن يهتدي إلى ربه سبيلا.

وهكذا نخلص إلى هذه النتيجة، وهي أن الله سبحانه بعد أن وضع طلب الوصول إلى الغاية في أصل خلقته، وسخر له ما في الكون جميعا، كان على هذا الإنسان أن يصل إليها. فقد أوجب عليه من ناحية العقل السعي والتحرك، وذلك من خلال تمكينه؛ ويسّر له كل ما يحتاجه لأجل بلوغ هذا المقصد.

وبعبارة أخرى، إن كل عاقل إذا فكّر في خلق الإنسان والعالم، وأدرك وجود هدف من وراء كل هذا الخلق ومن وراء نزول الكتب والرسالات وبعث الأنبياء وما يجري من حوادث، لا يعقل أن يخلص ويستنتج أن السير نحو الغاية بالنسبة للإنسان وإن كان ممكناً ـ بعد أن سلّمنا بوجود القابلية في الجميع ـ لكنه ليس بواجب!

وقد يقول البعض: لماذا لا نسمع أحداً غيركم يوجب هذا السعي.

ولو كان كذلك لكان الفقهاء والمراجع أول من يوجبه؟!

ولأجل فهم الجواب ينبغي أن نلتفت إلى أن هناك العديد من الواجبات لم تصدر في الفتاوى لوضوحها وضرورتها؛ ولأنها مستبطنة في الواجبات الأخرى، ولأنها ليست من شؤون الفقه وتفريعاته. فتوحيد الحق تعالى الذي يعد أساس الدين وأصل العقائد من أوجب الواجبات لكنه غير مندرج في الرسائل العملية، لأن وجوبه من الضرورة بحيث يتقدم على التقليد كله. وليس الوصول إلى الغاية إلا نتيجة طبيعية للالتزام بالأحكام التي يدور الفقه حولها. ففي الفقه يذكر وجوب الصلاة والصوم والجهاد وغيرها.. وفي الأبحاث العقائدية والأخلاقية يعد الالتزام بهذه الفرائض تعبيرا عن فهم الانسان للتوحيد، ويكون السير والسلوك إلى الغاية النهائية نتيجة حتمية لأداء تلك الواجبات بنحو واع وتوجه قلبي.

إن الأبحاث الأخلاقية الأصيلة تهدف إلى إيجاد الوعي بالشروط

الباطنية والآداب القلبية للعبادات والمعاملات الشرعية، حتى تؤتي هذه العبادات أكلها وتعطي ثمارها. ولأجل تحقق هذا الوعي والتوجه القلبي تطرح هذه المسائل من قبيل ضرورة معرفة الغاية وضرورة التوجه إليها بالقلب والروح؛ ومثل هذا التوجه ولا شك سيوجه جميع أعمالنا وتحركاتنا نحو آثارها الحقيقية.

أولئك الذين لم يسمعوا في الفتاوى والأبحاث الفقهية عن السير والسلوك، يصدمون إذا سمعوا من يقول بوجوبه ويعدون ذلك جرأة على الله وبدعة في الدين؛ دون أن يلتفتوا إلى أن معنى السير والسلوك في المدرسة العرفانية الأصيلة ليس سوى الالتزام التام بالشريعة المحمدية السمحاء. وإن الحديث عن وجوبه هو الحديث عن وجوب الإلتزام بشريعة الله تعالى. وما يميز أطروحة السير والسلوك هو جهة الوعي والتوجه القلبي الذي يريد أن يضفيه على أعمالنا وفهمنا للشريعة حتى لا نكتفي بالقشر والصورة ونترك الروح والمعنى.

رابعاً: هل يمكن التعرف إلى الغاية؟

إذا اعتقدنا بوجود غاية حقيقية للإنسان يجب أن يسعى لبلوغها، فهل يمكنه أن يتعرّف إليها قبل ذلك؟

قد يشكك البعض في إمكانية هذه المعرفة أو يقللون من أهميتها، فيقال: لماذا ينبغي أن نتعرف على الغاية طالما أننا نتجه نحوها من خلال الالتزام بالصراط المستقيم للشريعة الإلهية؟! ولما ثبت لدينا صدق النبيﷺ فإننا سنتبعه في كل ما أمرنا ونصل إليه، دون الحاجة إلى الدخول في البحث والتدقيق في الدراسة؟! ولماذا ندخل في هذه التعقيدات طالما أن إلتزامنا بالتكاليف كاف لبلوغ المقصد؟! ألن نصل إلى المطلوب فيما لو ركبنا سفينة يقودها ربّان عارف؟ فهل يبقى حاجة لنعرف الطريق والهدف والخارطة؟

كثيرة هي الأجوبة التي يمكن أن تقدم على مثل هذه الأسئلة، ولعل أفضل من أجاب عليها هو الإمام الخميني في كتابه حول الآداب القلبية للصلاة والتوجه إلى أسرارها.. فقد بيّن رضوان الله عليه أن للعبادات شروطا وآدابا قلبية يعد التوجه إليها ورعايتها أساساً لتحصيل الفائدة منها. فإن للعبد من الصلاة مثلا ما أقبل عليه بقلبه. فالتوجهات القلبية والمعرفة المعنوية شروط حياة السير والعمل والعبادة. وإن عبادة العبد لا يمكن أن تتحقق كما ينبغي إن لم يكن متوجها إلى المعبود بالتعظيم البالغ. بل إن روح العبادات كلها كامن في استشعار عظمة الحق تعالى. وإن الخضوع والخشوع والإخبات والسكينة والتذلل والتضرع وأمثالها من الصفات والحالات المعنوية الأساسية للعبّاد وأهل التقوى، لا يمكن أن تحصل بدون المعرفة والتوجه القلبي: ﴿**إنما يخشى الله من عباده العلماء**﴾.

أما معرفة الغاية فهي شرط للبدء في السفر وأساس لحصول الإخلاص الذي هو شرط قبول الأعمال كافة؛ لأن الله تعالى يقول لنا أنه لا يقبل إلا ما كان خالصاً له من جميع المقاصد والغايات.

ولو تأملوا في الكمال المحدود الذي قبلوا به وادعوه لأنفسهم، لوجدوا أيضاً أنه يستحيل أن يكون ذاتيا لهم. فالكمال سواء كان محدودا أم مطلقاً، ليس من ذاتيات المخلوق الممكن. ولو وصل كائن إلى الكمال المطلق وصار مظهرا تاماً له فلن ينقلب إلى الألوهية، لأن ما وصل إليه وحصل عليه قائم بغيره أي بربّه جل جلاله. فأين التراب ورب الأرباب؟!.

لا شك بأن لبعض الأعمال تأثيراً طيباً، وإن لم تمتزج بالتوجه القلبي أو الإخلاص الحقيقي. لكن ذلك من محض تفضل الله على عباده ترغيباً لهم في تلك الأعمال. أما بلوغ الكمال النهائي والهدف المنشود فإنه موقوف على التوجه الصادق والغاية السليمة. فالصلاة التي هي عمود الدين، والتي إن قُبِلت قُبِل ما سواها، لا تعطي نتيجتها ولا توصل إلى غايتها ما لم يؤدّها المصلي بتوجه وحضور قلبي.

وحضور القلب أو الإخلاص أو التوجه الصافي من الأمور التي تتوقف على المعرفة؛ وبالتحديد على معرفة الهدف من العبادة والسير. فحتى تكون الأعمال والعبادات وسيلة للتكامل الذي يحصل في ظل التقرب من الله تعالى يشترط فيها الإخلاص. وهو شرط لازم من البداية وحتى النهاية. وليس من مختصات العارفين أو الواصلين.

إن كل مؤمن يدرك ولو بالإجمال أن السير إلى الله لتحقيق رضوانه ونيل مقام قربه لا يتحقق بدون العمل. وهذا العمل يشترط فيه أمران ليكون سبباً للتقرب والتكامل. الأول: أن يكون مطابقاً لأوامر الله. والثاني : أن يكون خالصاً له. فهذان الشرطان مما اتفق عليهما إجماعاً، وهما من الأمور الضرورية الواضحة في الإسلام.

وإذا تأمّلنا في الشرط الثاني، وفكرنا في معناه وحقيقته لعرفنا أن الإخلاص لله في العمل ليس سوى التوجه الباطني الصادق نحو المقصد الذي عيّنه الله لنا. وبعبارة أخرى، إن الطاعة لله تعني الخضوع العملي لإرادة الله التشريعية والخضوع النفسي الباطني لإرادته الغائية. إن الخضوع الثاني يعني أن لا يطلب العابد فيما يطلبه من وراء العمل سوى ما أراده الله له فيه. فإنّ الله تعالى لم يكلّفنا بالطاعة إلاّ لنبلغ من ورائها غاية محددة. فكيف يحصل مثل هذا الخضوع أو هذا التوجه إلى المقصد الإلهي دون معرفته؟!

ولهذا كانت معرفة الغاية ركناً أساسياً في تحصيل الإخلاص، حيث يقوم العابد بنفي كل المقاصد الأخرى ليحل محلها مقصداً واحداً وغاية وحيدة هي تلك الغاية التي خلقنا الله لأجلها، والتي كان تشريع الأحكام سبباً لها. فمعرفة الغاية منذ البداية تعتبر شرطاً أساسياً لأي سير معنوي صحيح.

خامساً: طريق معرفة الغاية

إن السير والتأمل العقلي في حقيقة الإنسان وتركيبته يهدينا إلى معرفة الغاية التي خلقنا الله لأجلها. فالله سبحانه قد كتب في أعماق كل مخلوق كلمات الحقيقة، وليس على الإنسان إلاّ أن يفتح كتاب خلقته ويطالع صفحاته لكي يصل إلى مطلوبه.

إن المشكلة في أغلب الأحيان هي أن الذين ينبغي أن يتعرّفوا على

هذه الغاية لا يعترفون بوجود هذا الكتاب، فكيف لهم أن ينهضوا لمطالعته. وإن كتاب الخلقة الأصلية ليس سوى الفطرة الإلهية التي هي عبارة عن لمسات يد الخالق الحاكية عن أسرار الوجود الإنساني.

وإذا فرضنا أن هذه المشكلة حلّت، فهناك مشكلة أخرى تتعلّق بقراءة هذا الكتاب. فهناك من لا يحسن القراءة مع اعترافه بوجود الكتاب، ولا يتمكّن من الوصول إلى معانيه وكشف رموزه. ومثلما أن من يريد مطالعة الكتب الورقية يحتاج إلى عين باصرة، فإن من أراد قراءة كتاب الخلقة الأبيض يحتاج إلى عقل سليم. وهو أداة المعرفة الأولى.

والعقل السليم هو الذي لم يحتجب بالشبهات، ولم يبتعد عن البديهيات. فينطلق من البديهيات بعيداً عن الشبهات لسبر أغوار المجهولات والمكنونات؛ وإذا كان الإحتمال في أن نطّلع على الحقيقة التي نبحث عنها في كتاب خلقتنا، فلا ينبغي أن نخلط بين حقيقتنا التي هي الروح والنفس المجردة، وبين ظاهرنا وقشرنا الذي هو الجسد وأعضائه. هكذا يحكم العقل؛ بضرورة التفكر والبحث في الكتاب والمجال الأصلي والواقعي. والابتعاد عن الإنشغال بالأمور الهامشية والسطحية.

البحث عن الغاية

إن منظار العقل السليم حاد وقوي. وبمجرّد أن نضعه أمام أعيننا، ونتوجه إلى أعماق أنفسنا، فإننا سنطلع على مشاهد لم نعتد عليها ونحن مستغرقون في رغباتنا وحاجاتنا المادية.

لقد كنا مستغرقين إلى درجة لم نعد نرى سوى أبداننا وحاجاتها، ولم نعد نسمع سوى جوع البطن وعطشها، حتى ظننا أننا لسنا سوى هذه الأجسام المادية بحواسها وأعضائها!.

ولكن العقل أطلعنا على مشهد جديد، وإذ بآلاف الميول النفسية

تتحرّك وتتفاعل بشكل غريب ومدهش، فكل حركاتنا ونشاطاتنا كانت تنطلق من هذه الميول، ولم تعد رؤيتنا منحصرة بالشأن المادي. فقد اكتشفنا أن هذا الجسم يأتمر بإمرة الميول النفسية هذه، وأنه يعمل منقاداً لها، وأن وراء حاجاته المختلفة حاجات أخرى أعمق وأخفى.

هكذا هي نفوس البشر جميعاً. وقد أيَّدَت هذه الملاحظة مشاهدات التاريخ. فبعد أن جلنا بين ركام الحضارات البشرية، وراقبنا إنجازاتها، رأينا وراء كل ما كان يفعله أهلها سعياً حثيثاً نحو أمر عجيب!.

وأثناء هذا التأمل العقلي يرسل إلينا المنظار إشارات ثابتة بأنه اكتشف وجوداً دائماً لمجموعة من الميول المشتركة بين جميع الناس وفي جميع الأمكنة والأزمنة. وأن هذه الميول لم تتبدل رغم كل الاختلافات والتناقضات في العادات والتقاليد والمناخات والجغرافية والأنظمة السياسية والفكرية والتيارات الثقافية والمذاهب الدينية!.

يتعجّب العقل للوهلة الأولى من هذا المشهد البديع، وتدمع عينا قلبه بصورة مفاجئة من شدّة التأثّر، إلاّ أنه أرجأ النظر في هذا التأثر المفاجئ إلى وقت لاحق. فما يريد أن يعرفه الآن: سر هذا الدوام والاشتراك. وهو يعلم يقيناً أنه يسبر أغوار نفوسٍ خالقها واحد، وهو الرب المتعال ذو الجلال والإكرام.



وقد وصل بسرعة إلى هذه النتيجة وهي أنه لا يعقل أن تكون هذه الميول المشتركة، وسط هذا الركام الهائل من التناقض والاختلاف، إلاّ من مصدرٍ واحد وهو الذي خلقها وأبدعها.

والآن يقوم العقل بتعديل عدساته لكي يقترب من التفاصيل الدقيقة لهذه الميول. فإنه يعلم مسبقاً أنها الأمر الوحيد الذي سيقوده إلى معرفة الغاية التي خُلق الناس لأجلها. ولكن، أيها العقل السليم! لقد أسرعت قليلاً بحيث لم نتابع معك هذه النتيجة. فلماذا لا توصلنا الميول الأخرى التي لا توجد بالضرورة في كل إنسان إلى معرفة السر

الذي نبحث عنه. أَلأنَّ الله لم يوجدها فينا؟! أم ماذا؟

وحيث أن العقل لا يعرف الهزل، فقد أجاب بشكل مباشر: إن الهدف لا يمكن أن يكون مكتوباً إلا على الصفحات الصافية من كتاب النفس، هذه الصفحات التي كتبها الرب الحكيم الذي ليس لحكمته حد محدود ولا يشوب ذاته أي عجز أو جهل. الصفحات الصافية هي الفطرة الإنسانية التي أودعها الخالق عزّ وجلّ في جميع الناس ولا تبديل لخلق الله. ألسنا نريد معرفة الغاية التي أرادها هو سبحانه؟!

إن حكمة الله المطلقة لم تدع لغيره حكمة في مقابله.

إن أي حكيم لن تكون حكمته سوى من مصدر الحكمة الأزلية.

وإن الحكيم المتعال لا يترك أي عمل فيه حكمة ومن ورائه حكمة. فإن حكمته المطلقة تعني لزوم صدور جميع الأفعال الحكيمة منه. والحكمة تعني أن فعل الحكيم ينبغي أن يتَّصف بالغائية والهدفية. وأن يكون الهدف من فعله جليلاً سامياً.

إن الميول الأخرى ـ التي لا توجد في جميع الناس ولا تأتي مع أصل الخلقة ـ لن توصلنا إلى معرفة الغاية. لأنها لم تكن من فعل الله وخالقيته. وإن كل ما كان من غيره فهو الباطل والعبث المحض. ولهذا فإن التأمّل والتفكّر فيها لن يكون مفيداً في اكتشاف الغاية التى يريدها الله تعالى. ومن هنا نعلم سبب وقوع بعض علماء النفس في الخطأ الكبير حينما اعتبر "أن الدوافع الأساسية لجميع الأنشطة والمساعي البشرية هي الرغبات الجنسية حتى لو لم تكن هذه الدوافع واضحة عند أصحابها".

إن الخطأ الجسيم في هذا التفسير يكمن في عدم التمييز بين واقع المرضى الذين كان يعالجهم ويحلل نفسياتهم، فيكتشف فيهم مثل هذه الدوافع الكامنة، وبين النوع الإنساني وأصل خلقة البشر، الذي هو أعمق من المظاهر الخارجية.

نعم، إن ما استنتجه حول معظم الناس صحيح ومؤيّد في المدرسة الإسلامية والقرآن. فإن الله يصف هؤلاء بأنهم ﴿كالأنعام بل هم أضل سبيلاً﴾. ومعلوم ما هي الدوافع التي تحرّك الأنعام. مع فارق، أن الأنعام لا تخفي ميولها ولا تستطيع، بينما يستطيع البشر أن يخفوا تلك الرغبات الجنسية وراء عشرات الدوافع والتحركات.

ولكن بحثنا كان منذ البداية حول الإنسان الذي أراده الله، الإنسان الأصلي، وليس الإنسان الذي اختلط بعالم الطبيعة وتكدرت نفسه بآثارها. إن كل هذا السعي هو من أجل الكشف عن المشهد الحقيقي للوجود الإنساني، ولكي نتعرّف على برنامج الغيب الذي آمنّا بضرورة السفر إليه!

ثم يكمل العقل بحثه بعد أن عدّل عدسات منظاره الثاقب. فها هي العدسة الأولى تشاهد من الميول ما كان موجوداً ثابتاً عبر الأزمنة والعصور. وفي مختلف البقاع والبلدان. والعدسة الثانية تشاهد من الميول ما لم ينشأ في الأصل من أي مصدر تعليمي خارجي. بل كان عند الجميع دون اكتساب.

وباختصار، ها هو يضع يده على الميول التي كانت في أصل خلقة كل إنسان، ولم تكن وليدة أي يد خارجية سوى يد الله تعالى: ﴿..لما خلقت بيدي﴾.

إن هذه الميول هي تجليات فطرة الله التي فطر الناس عليها، وستخبرنا عن الغاية الحقيقية بكل أمانة، لأنها رسالة الله لكل إنسان، والنداء الإلهي المنبعث من أعماقه.

فإذا لاحقنا هذه الميول في توجهاتها ورغباتها سننتهي إلى الغاية، فإن الله سبحانه لا يعقل أن يضع فينا ميولاً ورغبات نحو غاية ما، ولا يكون السعي إليها هو المطلوب عنده، أو لا تكون هي الغاية التي يريدها. فإن مثل هذا الظن تَوَهُّم فاسد، واتِّهام للخالق سبحانه.

ولهذا نقول أن جميع الميول الفطرية مرضية عند الله، لأنه هو الذي أودعها فينا. ويقول المؤمنون، بتبع القرآن، إن دين الإسلام ليس سوى مظهر ووجه آخر للفطرة الإلهية، والتي نجهل تفاصيلها الدقيقة. ولهذا احتجنا إلى الوحي لكشفها ومعرفة برنامج تربيتها.

﴿فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾.

ولما كان الحديث عن الفطرة يرتبط بالبعد الحقيقي للوجود الإنساني، ينبغي أن نلتفت إلى الفارق بين حاجات البدن وميول النفس. فإن الحاجات الأساسية للبدن، كالنوم والطعام والشراب والجنس، لا يمكن تسميتها بالحاجات الفطرية؛ بل هي حاجات اضطرارية لأجل بقاء الأجسام ودفع الآلام. ولأن الله تعالى قد جعل من وراء تلبيتها لذة ومتعة، تنالها النفس بتبع إتصالها وتوجهها إلى البدن، فإن النفس إذا رغبت بهذه الحاجات وطلبتها، لا يكون طلبها لذات تلك الأشياء، بل بسبب رغبتها باللذة وطلبها. ولو قدّر للإنسان أن يبقى على هذه الأرض دون طعام وشراب ولم يشعر بألم الحاجة، فإنه لن يسعى نحوها بتاتاً.

وصول الإنسان إلى الكمال المطلق يكون في حقيقته، أي نفسه المجرّدة. وبالتالي، فإن كماله المطلق لا يمكن أن يظهر بشكل مادي على حقيقته. فالسالك الذي يصل الى مقام لقاء الله في سفره أثناء عالم الطبيعه ينال روحه فيض الله المطلق، ويصل إلى مقام الولاية التكوينية المطلقة. ولا تكون الدنيا مستودعاً له بل تحت ولايته.

هذا، بخلاف الميول النفسية الأصيلة التي لا يمكن أن ينفك عنها لحظة واحدة لأنها هو ولأنه هي. فهي من مكوناته الاساسية وطبيعة تركيبته النفسية، ويستحيل أن ينفك الإنسان عن نفسه ما دام إنساناً!.

عندما نرجع إلى منظار الميول الفطرية، يطلعنا على تفاصيل مهمة، ويكشف لنا عن مجموعة أساسية من الميول المشتركة كـ:

1. **طلب العلم** (الذي يعبّر عنه بحس الاستطلاع).
2. **طلب القدرة** (الذي يشار إليه بحب السلطة).
3. **طلب العاطفة** (وهو الحب والعشق).

إن كل إنسان، ومنذ أن يفتح عينيه على هذا العالم، يصبح طالباً للعلم والقدرة والعاطفة. إلاّ أن بروز هذه الميول قد يحتاج إلى وقت يتفاوت نسبياً بين شخص وآخر. وإن ملاحظة جميع تصرفات وسلوك البشر تحكي بشكل لا يقبل الشك، عن أن الدوافع الأساسية لكل فعل، مهما كان بسيطاً، هي تلبية إحدى الرغبات المذكورة.

إن الإنسان يريد دوماً أن يكتشف المجهول أينما وجد. ويتمنّى لو أنه يقدر على فعل ما يريد، ويسعى للارتباط بكل ما يشبع حاجته العاطفية. هذه هي رغبات كل واحد منا، مهما كان، وفي أي زمان أو مكان، وسواء أبرزها إلى العلن وعبَّر عنها بشكل واضح ومباشر، أم أنه أخفاها وألبسها ألف حجاب.

ولا ننسى بأن الإنسان مخلوق مختار، ووجود هذه الميول فيه لا يعني أنه سيسعى دوماً وبالشكل الصحيح لتلبيتها. فإن هذه الميول قد تضعف شيئاً فشيئاً أمام ميول أخرى غير فطرية. فإذا كان المجتمع الذي يعيش فيه، مجتمعاً يحتقر العلم والعلماء، أو لا يعيش العزة والحرّية، أو تسوده القسوة والغلظة، فإن هذه الميول قد تختفي وراء القيم المنحطة السائدة في هذا المجتمع، بحسب ما يختاره ذاك الشخص بإرادته. وإن كان القضاء على الميول الفطرية بالكامل أمراً مستحيلاً.

والأصح أن يقال إن الميول الفطرية تفقد وجهتها الصحيحه وتتلوّن بالقيم السائدة في مثل هذه الحال لا أنها تزول أو تختفي. فنفس صاحبنا هذا، وإن اتبع المجتمع المذكور في تحقير العلم والاستخفاف به، لا يمكن أن يقف موقف اللامبالاة أمام الكثير من الأمور التي يجهلها. وعندما يقبل بالذل والهوان والخضوع لسلطة الطاغية واستعباده فإن توقه للحرية يبقى كامناً في نفسه. وغالباً ما تُظهر الأحداث الكبرى أن اختفاء تلك الميول لم يكن سوى أمر طارئ.

هذا من جانب، ومن جانب آخر فإن لهذه الميول خاصيّة ملفتة،

بالإضافة إلى وجودها عند الجميع. وهذه الخاصية تتعلق بعدم محدوديتها. فإن طلب العلم في كل إنسان ليس له حد محدود، وكذلك طلب القدرة وحب السيطرة والرغبة في الارتواء العاطفي. وتظهر هذه الحقيقة فينا عندما نجد في أنفسنا الرغبة بالمزيد رغم حصولنا على الكثير. يقول الإمام الخميني في رسالته التاريخية لآخر زعيم للإمبراطورية الروسية الإشتراكية "ميخائيل غورباتشوف":

"إن الإنسان ليصبو فطرياً وبشكل مطلق إلى نيل كل كمال. وأنتم تعلمون جيداً أن الإنسان يميل إلى أن يكون قوة مطلقة في العالم. ولو أمسك هذا العالم في قبضته وبسط سلطته، فإن قيل له أن هناك عالماً آخر غير هذا العالم، فإنه يصبو فطرياً نحوه ليتسلّط عليه. وهكذا، مهما اكتسب الإنسان من العلوم، فهو يتوق أيضاً إلى كسب علوم أخرى إن أخبر بوجودها. ولهذا يجب أن يكون هناك: قدرة مطلقة وعلم مطلق ليتعلّق قلب الإنسان بهما. وهذه القدرة المطلقة والعلم المطلق هما الله تعالى الذي نتوجه كلنا نحو وجوده وإن لم ندرك ذلك".

فإذا كان الله قد خلقنا طالبين وعاشقين للكمال المطلق، فهل يعقل أن يحرمنا منه أو يمنعنا عنه؟! إن هذا المنع يناقض صفات الخالق الرحيم. وعليه، فإن وجود هذه الرغبات والميول نحو الكمال المطلق، لهو دليل واضح على أن الكمال المطلق هو الغاية التي ينبغي أن نسعى إليها، وقد خلقنا الله تعالى لذلك. وأن الله تعالى برحمته التي وسعت كل شيء يفيض هذا الكمال اللامتناهي على كل مخلوقاته، فيناله من سَلَك إليه.

وفي وصيته العرفانية، يوصي الإمام ابنه قائلاً:

"إعلم أن في الإنسان - إن لم نقل في كل موجود - حباً فطرياً للكمال المطلق وللوصول إلى الكمال المطلق. وهذا الحب مما يستحيل أن يفارق الإنسان كلياً. كما أن الكمال المطلق يستحيل أن يتكرر أو يتثنى.

فالكمال المطلق هو الحق جلّ وعلا. والجميع يبحثون عنه، وإليه تهفو قلوبهم ولا يعلمون. فهم محجوبون بحجب الظلام والنور. لهذا فهم يتوهمون أنهم يطلبون شيئاً آخر غيره. ولذا تراهم لا يقنعون بتحقيق أية مرتبة من الكمال، ولا بالحصول على أي جمال أو قدرة أو مكانة. فهم يشعرون أنهم لا يجدون في كل ذلك ضالتهم المنشودة.

فالمقتدرون ومن يمتلك القدرات الكبرى هم في سعي دائم للحصول على القدرة الأعلى مهما بلغوا من القدرة. وطلاب العلم يطلبون الدرجة الأعلى من العلم مهما بلغوا منه، وهم يشعرون دوماً أنهم لم يجدوا ضالتهم وفي الحقيقة هم غافلون عنها.

ولو أعطي الساعون إلى القدرة والسلطة التصرف في كل العالم المادي من الأرضين والمنظومات الشمسية والمجرّات، بل و كل ما فوقها، ثم قيل لهم: إن هناك قدرة فوق القدرة التي تملكونها أو أن هناك عالماً أو عوالم أخرى فوق هذا العالم، فهل تريدون الوصول إليها؟ فإنهم من المستحيل أن لا يتمنّوا ذلك. بل إنه من المحتم أن يقولوا بلسان الفطرة: ليتنا بلغنا ذلك أيضاً! وهكذا طالب العلم، فهو إن ظنّ أن هناك مرتبة أخرى - غير ما بلغه - فإن فطرته الباحثة عن المطلق ستقول: يا ليت لي هذه القدرة أو يا ليت لي سعة من العلم تشمل تلك المرتبة أيضاً"! [تجليات رحمانية].

ففي أعماق كل إنسان عشق فطري للكمال المطلق، أودعه الله فينا لكي يكون لنا هادياً كلّما ظننا أننا بلغنا مقصدنا. إن هذا الشوق إذا سيطر على الإنسان لن يرضى معه بجميع لذّات الدنيا وكمالاتها مهما بلغت! لأنها محدودة، وهو طالب للكمال اللامحدود.

إن المشكلة عند معظم الناس أنهم لا يستجيبون لنداء الفطرة العاشقة لهذا الكمال. وإذا استجابوا، فإنهم يظنون الكمال اللامتناهي في جمع الكمالات المحدودة. وهذا اشتباه فادح، لأن جمع المحدود لا يساوي

المطلق أبداً. إن كمالات الدنيا هي من الأمور المحدودة، وإن الكمال المطلق ليس من سنخ هذه الكمالات بتاتاً. ولهذا لم يكن بالإمكان جمع الدنيا والآخرة، مثلما لم يكن بالإمكان وجود توجهين في قلب واحد. أحدهما إلى الدنيا والآخر إلى الله. فالدنيا تمثل المحدودية والزوال، والآخرة تمثل الإطلاق والبقاء.

إن هدف الإنسان الحقيقي هو لقاء الله والوصول إليه والقرب منه. إن الهدف هو الله تعالى. وإذا وصل إليه حباه الله بالكمال المطلق. وهذا أحد معاني تعليم آدم الأسماء كلّها.

إن مفهوم المطلق لا يمكن إدراكه لمن لم يتحرر ذهنه من قيود التصورات والمفاهيم المادية والحسية. ولهذا، نجد أن معظم الإنكار ينبع من عدم القدرة على التصور الصحيح للقضية. يقول الإمام بعد كلامه السابق:



"واعلم أن هذا الموضوع، رغم موافقته للبرهان المتين وللآراء العرفانية، ورغم ما ورد في القرآن الكريم من إشارات إليه، إلاّ أن التصديق والإيمان به في غاية الصعوبة وإن منكريه في غاية الكثرة والمؤمنين به قلّة نادرة".

وفي تفسير سورة الحمد المباركة، يقول الإمام: "فإن الأدعية تعين الإنسان على الوصول إلى الكمال المطلق".



وفي معراج السالكين يقول الإمام أيضا: "إن الفلاح والنجاح هي السعادة المطلقة، وفطرة جميع البشر عاشقة للسعادة المطلقة، لان الفطرة طالبة للكمال وتطلب الراحة؛ وحقيقة السعادة هي الكمال المطلق والراحة المطلقة".

وفي محل آخر يقول قدس سره: "اعلم أيها الطالب للحق والحقيقة أن الحق تبارك وتعالى لما خلق نظام الوجود ومظاهر الغيب والشهود بحسب الحب الذاتي بالمعروفية في حضرة الأسماء والصفات بمقتضى

الحديث الشريف : كنت كنزا مخفيّا فأحببت أن اعرف فخلقت الخلق لكي أعرف .. فأودع وأبدع في فطرة جميع الموجودات الحب الذاتي والعشق الجبلي، فجميع الموجودات بتلك الجذبة الالهية ونار العشق الرباني تتوجه الى الكمال المطلق وتطلب وتعشق الجميل على الاطلاق وجعل سبحانه لكل واحد منها نورا فطريا الهيا يجد بذلك النور طريق الوصول الى المقصد والمقصود، وهذه النار وهذا النور أحدهما رفرف الوصول والآخر براق العروج، ولعل براق رسول الله ورفرفه كانت رقيقة هذه اللطيفة وصورة ممثلة ملكية لهذه الحقيقة ولهذا أنزلت من الجنة التي هي باطن هذا العالم.

وقد جاء في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول:

"يا ابن آدم أنا غني لا أفتقر أطعني فيما أمرتك أجعلك غنياً لا تفتقر، يا ابن آدم أنا حي لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلك حياً لا تموت، يا ابن آدم أنا أقول للشيء كن فيكون أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون..".

إن الاشـتراك الموجود بين جميع الناس في الميول الفطرية يدل على أنها لم تكن من صنعهم واكتسابهم، لأنه لا يعقل أن يتفق البشر على هذا الأمر مع اختلافهم في كل شيء... فلا بد أن يكون السبب خارجاً عنهم.

وورد أيضاً في الحديث القدسي الذي رواه الخاصة والعامة، إن الله تعالى يقول: ".. **وما زال عبدي يتقرّب إليّ بالنوافل حتى أحبه. فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، ولسانه الذي ينطق به، وعينه التي يبصر بها، ويده التي يبطش بها".**

الإنسان مفطور بحب الكمال التام المطلق

لا يخفى على كل ذي وجدان أن الإنسان، بحسب فطرته الأصيلة وجبلّته الذاتية، يعشق الكمال التام المطلق، ويتجه قلبه شطر الجميل على الإطلاق والكامل من جميع الوجوه. وهذا من فطرة الله التي فطر الناس عليها وبهذا الحب للكمال، تتوفر إرادة المُلك والملكوت، وتتحقق أسباب وصول عشّاق الجمال المطلق إلى معشوقهم.

غير أن كل امرئ يرى الكمال في شيء ما، حسب حاله ومقامه فيتوجه قلبه إليه. فأهل الآخرة يرون الكمال في مقامات الآخرة ودرجاتها، فقلوبهم متوجهة إليها. وأهل الله يرون الكمال في جمال الحق، والجمال في كماله سبحانه يقولون: ﴿.. وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض..﴾، ويقولون: "لي مع الله حال" وفيهم حب وصاله وعشق جماله. وأهل الدنيا عندما رأوا أن الكمال في لذائذها، وتبيّن لأعينهم جمالها، اتجهوا فطرياً نحوها. ولكن على الرغم من كل ذلك، فإنه لمّا كان التوجه الفطري والعشق الذاتي قد تعلقا بالكمال المطلق، كان ما عدا ذلك من التعلقات عرَضياً ومن باب الخطأ في التطبيق. إن الإنسان مهما كثر مُلكه وملكوته، ومهما نال من الكمالات النفسية أو الكنوز الدنيوية أو ازدادت أمامه المشتهيات، ازداد تعلّق قلبه بمشتهيات أخرى ليست في متناول يده، واشتدّت نار شوقه إليها. كذلك النفس التي تطلب الرئاسة، فهي عندما تبسط لواء قدرتها على قطر من الأقطار، تتوجه بنظرة طامعة إلى قطر آخر، بل لو أنها سيطرت على الكرة الأرضية برمتها، لرغبت في التحليق نحو الكرات الأخرى للإستيلاء عليها. إلاّ أن هذه النفس المسكينة لا تدري بأن الفطرة إنما تتطلع إلى شيء آخر. إن العشق الفطري الجبلّي يتجه إلى المحبوب المطلق، إن جميع الحركات الجوهرية والطبيعية والإرادية، وجميع التوجهات القلبية والميول النفسية تتوجه نحو جمال الجميل الأعلى على الإطلاق، ولكنهم لا يعلمون، فينحرفون بهذا الحب والعشق والاشتياق – التي هي براق المعراج وأجنحة الوصول – إلى وجهة هي خلاف وجهتها، فيحرّروها ويقيدوها بلا فائدة.

لقد ابتعدنا عن المقصود، وهو أنه لمّا كان الإنسان متوجهاً قلبياً إلى الكمال المطلق، فإنه مهما جمع

من زخرف الحياة فإن قلبه يزداد تعلقاً بها. فإذا اعتقد أن الدنيا وزخارفها هي الكمال ازداد ولعه بها، واشتدت حاجته إليها، وتجلّى أمام بصره فقره إليها. بعكس أهل الآخرة الذين أشاحوا بوجوههم عن الدنيا، فكلّما ازداد توجههم نحو الآخرة، قلّ التفاتهم واهتمامهم بهذه الدنيا، وتلاشت حاجتهم إليها، وظهر في قلوبهم الغنى، وزهدوا في الدنيا وزخارفها. كما أن أهل الله مستغنون عن كلا العالَمين (الدنيا والآخرة)، متحررون من كلتا النشأتين وكل حاجتهم نحو الغنى المطلق، متجلّياً الغِنى بالذات في قلوبهم، فهنيئاً لهم.

إذاً، يمكن أن يكون مضمون الحديث الشريف إشارة لما مرّ شرحه من قوله: **"مَن أصبح وأمسى والدنيا أكبر همّه جعل الله الفقر بين عينيه، وشتت أمره، ولم ينل من الدنيا إلا ما قُسم له، ومن أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه، جعل الله الغنى في قلبه وجمع له أمره".**

ومن المعلوم، أن من يتجه قلبه إلى الآخرة، تغدو أمور الدنيا وصعابها في نظره حقيرة سهلة، ويجد هذه الدنيا متصرمة، ومتغيّرة، ويراها معبراً ومتجراً وداراً للإبتلاء والتربية، ولا يهتم بما فيها من ألم وسرور، فتخف حاجاته ويقل افتقاره إلى أمور الدنيا وإلى الناس، بل يصل إلى حيث لا تبقى له حاجة، فيجتمع له أمره، وتنتظم أعماله، ويفوز بالغِنى الذاتي والقلبي.

إذاً، كلّما نظرتَ إلى هذه الدنيا بعين المحبة والتعظيم، وتعلّق قلبك بها، ازدادت حاجتك بحسب درجات حبك لها، وبان الفقر في باطنك وعلى ظاهرك، وتشتّت أمورك واضطربت، وتزلزل قلبك، واستولى عليه الخوف والهم، ولا تجري أمورك كما تشتهي، وتكثر تمنياتك ويزداد جشعك، ويغلبك الغم والتحسر، ويتمكن اليأس من قلبك والحيرة، كما وردت الإشارة إلى بعض ذلك في الحديث الشريف، فقد روي في "الكافي" بإسناده عن حفص بن قرط، عن أبي عبد الله الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنه قال:

"من كثر اشتباكه بالدنيا كان أشد لحسرته عند فراقها".

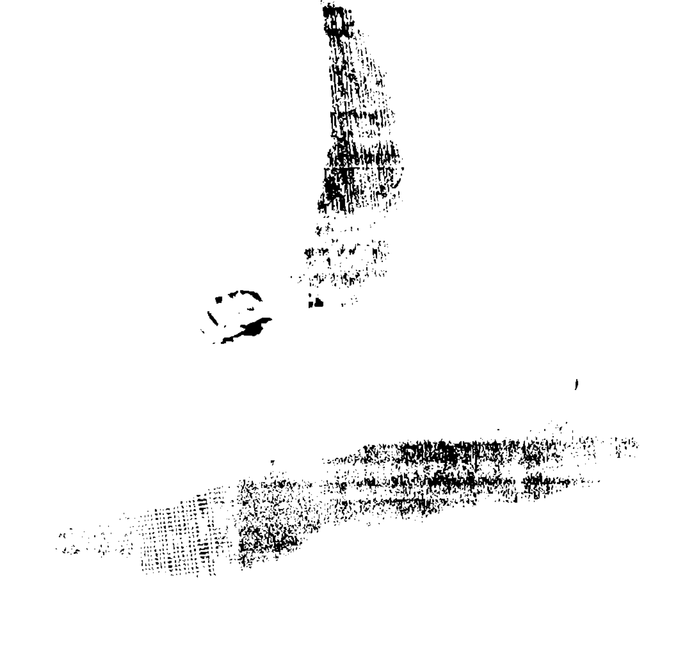
وعن أبي يعفور قال: سمعت أبا عبد الله (الصادق) عليه السلام يقول:

"من تعلق قلبه بالدنيا تعلق قلبه بثلاث خصال هم لا يفنى وأملٍ لا يدرك ورجاء لا ينال".

أما أهل الآخرة، فإنهم كلّما ازدادوا قرباً من دار كرم الله، ازدادت قلوبهم سروراً واطمئناناً، وازداد انصرافهم عن الدنيا وما فيها. ولولا أن الله قد عين لهم آجالهم لما مكثوا في هذه الدنيا لحظة واحدة. فهم كما يقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: **"نُزِّلَت أَنْفُسُهُم في البلاء، كالتي نُزِّلَتْ في الرخاء، ولولا الأجل الذي كتب الله عليهم، لم تستقر أرواحُهُم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب".**
جعلنا الله وإياكم منهم، إن شاء الله.

إذاً، يا عزيزي، بعد أن عرفتَ مفاسد هذا التعلق والحب، وأدركت أن ذلك يفضي بالإنسان إلى الهلاك، ويجرّده من الايمان، ويجعل دنياه وآخرته متشابكتين مضطربتين، فشمّر عن ساعد الجد، وقلّل حسب طاقتك، التعلّق بهذه الدنيا، إجتث جذور حبها من نفسك، واحتقر هذه الأيام القليلة التي تقضيها في الحياة وازهد في خيراتها المشوبة بالألم والعذاب والنقمة، واطلب من الله أن يعينك على الخلاص من هذا العذاب وهذه المحنة، ويجعل قلبك يأنس بدار كرمه تعالى: ﴿وما عند الله خير وأبقى﴾.

الأربعون حديثاً - الإمام الخميني



في الفهم والتعليم

1.

1. **أهمية البحث عن الغاية تنبع من:**
أ. رغبة الإنسان في العلم والمعرفة.
ب. الفضولية التي نجدها عند أكثر الناس.
ج. التيارات الفكرية المنحرفة.
د. إنها أساس كل تحرك يقوم به الإنسان.

2. **البعض نهوا عن الخوض في بحث الغاية:**
أ. لأنه لا يوصل إلى نتيجة.
ب. لأنه يؤدي إلى العبثية والضياع.
ج. لأنه بديهي ومسلّم عند الجميع.
د. لأنهم ظنوا أنه يقيد فعل الله تعالى.

3. **إنكار وجود غاية للإنسان:**
أ. يدل على أن الله على كل شيء قدير
ب. يعني أن فعل الله يتسم بالعبث.
ج. ضروري لاستمرار المسير.
د. هو من لوازم الإيمان.

4. **إن معرفة الغايات الواقعية عند الناس تتم:**
أ. من خلال دراسة ميدانية استطلاعية.
ب. بالتفكر في السماوات والأرض.
ج. بالرجوع إلى النفس.
د. بمشاهدة البرامج التلفزيونية.

5. **إن التعرّف على الغاية التي يريدها الله لنا يتم:**
أ. بمعرفة الميول الأصيلة التي أودعها فينا.
ب. بقراءة القرآن والأحاديث الشريفة يومياً.
ج. بالعبادة المستمرة والدعاء.
د. لا يمكن التعرّف على الغاية.

6. **أكثر الناس لا يستطيعون الوصول إلى الغاية:**
أ. لأنهم محاطون بآلاف المشاكل.
ب. لأنهم لا يقدرون على ذلك.
ج. السؤال خطأ والصحيح هو أنهم يستطيعون.
د. لأنهم خُلقوا فقراء ومحتاجين.

7. **جميع الناس يمكنهم الوصول إلى الغاية**
أ. لأن الله أمرهم في شريعته به.
ب. لأن الأمر سهل وبسيط.
ج. لأن لديهم القدرات اللازمة.
د. ليس كل الناس قادرين عليه.

8. **إن معرفة الغاية ضرورية للسير المعنوي:**
أ. لأن معرفة الهدف تمكن الإنسان من الوصول.
ب. لأنها مفيدة لكل سالك.
ج. لتوقف حصول الإخلاص عليها.
د. لأنها تدخل في كل عمل.

9. **الإخلاص يتطلّب معرفة الغاية:**
أ. لكي ينال الإنسان حقيقة الورع.
ب. حتى يسير الإنسان بالشكل الصحيح.
ج. لأنها في غاية الأهمية.
د. لأنه عبارة عن التوجه القلبي إليها.

10. **غاية الإنسان هي غاية نفسه المجرّدة:**
أ. لأن الجسد له غايات منحطة.
ب. لأنها حقيقة الإنسان وهويته الأصلية.
ج. لأن الجسد محدود.
د. لأن النفس مطلقة.

2.



.3

حب الطعام ________

التدخين ________

حب الجمال ________

حب الرئاسة ________

الحاجة إلى الشراب ____

حب المال ________

الحاجة إلى الراحة ____

حب التدخين ______

حب الاستطلاع ______

الحاجة الجنسية _____

الحب ________

التعلمغير ذلك ______

طلب الحرية ______

- ميل مكتسب
- ميـل فـطري
- حاجة جسدية
- غيرذلك

.4

1. القول بضرورة وجود غاية للإنسان نابع من ____
2. قول البعض أن المحرك للإنسان هو حاجته الجنسية ____
3. الاختلاف الجوهري بين المادي والإلهي وبين الأديان المختلفة هو ____
4. الوصول إلى الغاية واجب ____
5. معنى الوصول إلى الله هو ____
6. معظم الناس هم منكرون للغاية ____

أ. ما يعني أن عدم الوصول هو الوصول إلى اللاشيء

ب. على مستوى السلوك العملي.

ج. فهم حقيقة الفيض الإلهي

د. معرفتنا بالله تعالى

هـ. الوصول إلى الكمال المطلق

و. يعود إلى الخلط بين الواقع الذي عليه الناس وأصل الخلقة.

5. [illegible]

(تمام الاستعداد. فقدان الاستعداد. نقص الاستعداد. كمال الاستعداد)

أ. الجنون دلالة على

ب. التحقق بالكمال المطلق دلالة على

ج. المسارعة والسهولة في الالتزام بالحكم الشرعي دلالة على ....

د. الشبهات دلالة على

ه. التعرف على أحكام الله وعدم الالتزام بها

7. [illegible]

الميول المكتسبة	الميول الأصيلة

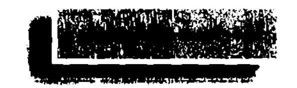
6. [illegible]

7.1. لماذا لا يؤدي التفكر في الميول المكتسبة إلى معرفة الغاية؟

7.2. ميّز بين غاية الذات وغاية الفعل الإلهيين.

7.3. ظن البعض أن الإنسان إذا وصل إلى الكمال المطلق فإنه يصبح إلهاً، فأنكروا إمكانية هذا الوصول. كيف ترد على هذه الشبهة؟

7.4. أذكر مجموعة من الأهداف يضعها الناس عادة كأهداف لحياتهم.



اعتمد النموذج التالي للإجابة عن السؤال.

الإجابة: (النتيجة المتوخاة)

(الفكرة الداعمة تقدم المعطيات، الأسباب، الأدلة، الآيات، الأحاديث الداعمة للإجابة)

الفكرة الداعمة الأولى:

الفكرةالداعمة الثانية:

الفكرة الداعمة الثالثة:

الاستنتاج: (كتابة خلاصة تؤكد على النقطة الرئيسية في الإجابة)

أعد صياغة إجابتك في فقرة.

في الاجتماع التخطيطي للمؤسسة الثقافية، أشار المسؤولون إلى ضرورة رعاية الاستعدادات والقابليات عند إعداد البرامج والمتون الدراسية. وأكدوا على أن تكون الأفكار متناسبة مع مستوى فهم المبتدئين لأنهم يشكلون الأكثرية الساحقة من الطلاب والقراء. وفي الختام، تم حظر أي نوع من الكتب أو البرامج التي يُشم منها رائحة العرفان لأنه علم خاص يحتاج إلى تخصص وتبحر لا يوجد في هذا البلد.

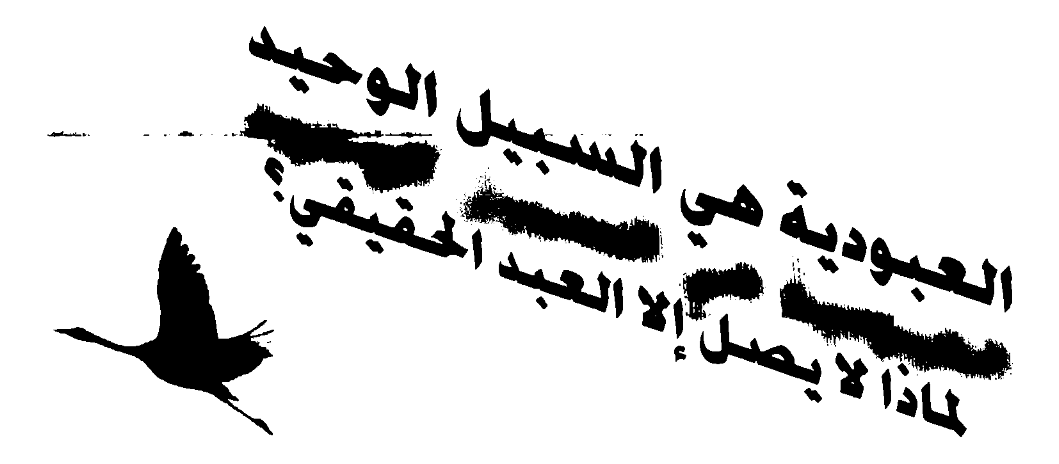
ما رأيك بقرارات هذه المؤسسة، وكيف ترى نتائج أعمالها؟

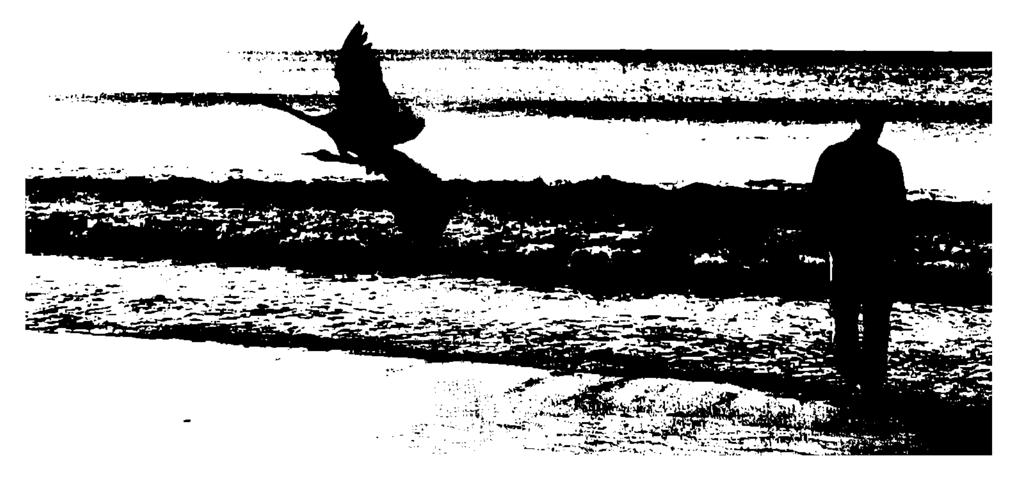
بالرجوع إلى القرآن الكريم استخرج الآيات التي تشير إلى الأعمال التي تؤدي بالإنسان إلى النار وتلك التي تؤدي به إلى الجنة. (مفاتيح البحث: النار، الجنة، المثوى، المأوى، ورد،الوراثة، الدار، جزاء)





العبودية هي السبيل الوحيد
لماذا لا يصل إلا العبد الحقيقي؟





العبودية هي السبيل الوحيد

مع نهاية هذا الفصل تكون قد تعرّفت على:

- أهمية معرفة الطريق الوحيد الموصل إلى الغاية
- حقيقة هذا الطريق وطبيعته
- سبب نفور بعض الناس من السير و السلوك إلى الله
- خصائص منهج الإسلام في السير و السلوك
- أن الطريق الوحيد هو الشريعة الإسلامية
- أن جوهر الشريعة تحقق العبودية لله تعالى
- شروط العبودية وخصائصها
- أن الولي الفقيه هو المرشد الأول
- أهم الشبهات في طريق العبودية

"إلهي ما أوضح الحق عند من هديته سبيله، وما أضيق الطريق على من لم تكن دليله.." الإمام السجادعليه السلام.

لا يختلف اثنان من أتباع الإسلام في أن هذا الدين هو البرنامج العملي الموصل إلى مقام القرب، وأن من يلتزم به يصل إلى رضوان الله تعالى والسعادة الأبدية.

ومع ذلك قد نجد عشرات الفرق الإسلامية التي عيَّنت كل واحدة منها برنامجاً مغايراً عن الأخرى، وادَّعت أنه طريق الدين وصراط الله المستقيم!

إن نشوء الفرق وحدوث الاختلافات في مجال الدين والسلوك في الحياة أمر ضارب في القدم. ولعلّنا نجد بذوره منذ الأيام الأولى لظهور الإسلام وقيام النبي الأعظمصلى الله عليه وآله بتبليغ الرسالة وتعليم الناس! وليس هذا بالأمر المفاجئ إذا التفتنا إلى متانة الإسلام وعمقه وشموليته من جهة، وإلى الطبيعة البدائية والمستويات الذهنية السطحية التي كانت الطابع العام لأفراد ذلك المجتمع من جهة أخرى.

فالمتوقع والحال هذه أن يتفاوت الناس في تَلقّيهم وفهمهم للبرنامج العملي ولأسس الشريعة وأهدافها والنسيج العام المكوِّن لها.

ولم يكن رسول اللهصلى الله عليه وآله بعيداً عن هذه الحقيقة. فإنه الأحرص على

هداية الناس واللطف بهم، وهو الأقدر على تربيتهم ومخاطبتهم على قدر عقولهم. وكان يعلم بالأوضاع والبيئة الاجتماعية وآثارها بشكل عميق. وقد رسم لأجل ذلك كلّه منهجاً وأكّد عليه كثيراً، واعتبر أن التمسّك به سيحول بيننا وبين الضلال والضياع.

ومع ذلك حدثت الفتنة الكبرى وانشق المجتمع الإسلامي إلى فرق كثيرة. وكثرت الاجتهادات والآراء والتحليلات بشأن الطريق الذي رسمه لنا الدين. وقد أشار الإمام علي بن أبي طالب إلى أهم أسباب هذه الفتنة بقوله عليه السلام: "**إنما بدء الفتن أهواء تتبع**". وذلك عندما اتبع الناس آراءهم وأفكارهم الخاصة وقدموها على تعاليم رسول اللهﷺ وإرشاداته، واجتهدوا مقابل النص المقدس.

فأول ما أضاعه المسلمون هو ذلك الحبل المتين الذي أمرهم بالتمسك به، ووعدهم إن هم فعلوا ذلك أن لا يضلوا بعده أبداً. ولكنهم ما أن مات رسول الله (ص) أو قتل حتى انقلبوا على أعقابهم وأضاعوا الأهداف المقدسة للدين والرسالة. وضعف التزامهم بما بعث رسول اللهﷺ من أجله على مستوى الأفراد والمجتمع. وكل ما حصل أن القليل من المسلمين كانوا عبر العصور يسعون للعمل بوصيته الخالدة ووصلوا بفضل سعيهم الحثيث إلى مقام مرضي عند ربهم، والأغلبية الساحقة إن نالها شيء من الخير، فذلك بفضل شيء من الإلتزام بحكم هنا أو عبادة هناك. أما الأهداف فقد ضاعت ونُسيت، حتى وصلنا إلى وضع بتنا معه بحاجة إلى البحث والاستدلال على وجود تلك الأهداف العظيمة للدِّين.

الكثير من المسلمين اليوم لا يلتفتون إلى هذا الأمر، ويتصوّرون أن دعوة رسول اللهﷺ تنحصر في إطار أداء مجموعة من المناسك والعبادات، دون أي توجه إلى الغايات والأهداف الكبرى. وللأسف فإن هؤلاء قد أضاعوا البوصلة التي دلهم عليها هذا المرشد والمربي العظيم.

كان النبي الخاتمﷺ يعلم أن سلوك هذا الطريق المستقيم لا يمكن

أن يتم بدون مرشد يكون بمنزلة الميزان الذي توزن به الأعمال. ومثلما بيَّن الحق سبحانه العلامة الأساسية على طاعته بقوله: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾، حاسماً بذلك أي نوع من المزايدة على النهج الذي يسلكه الرسول، وقوله عزّ وجلّ: ﴿قل إن كنتم تحبّون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾، لأن نيل محبة الله لا يكون بمجرّد الادعاء، بل ينبغي أن يترجم إلى عمل وسلوك يتحقق باتباع النبيﷺ. بل إن اتباعه هو ظهور محبة الله وعشقه بشكل واقعي؛ كذلك قام الرسول الأكرمﷺ ببيان معالم الطريق من بعده بما لا يدع مجالاً للشك والحيرة.

لقد أضاع قسم كبير من المسلمين ـ ولأسباب كثيرة ـ تلك المعالم الأساسية. ووضعوا لأجل تبرير ذلك سلسلة من المقولات الممتزجة بأكاذيب نسجها حكام الجور الذين نصبوا أنفسهم خلفاء لتبرير انحرافاتهم، واختلط الأمر على الاتباع فَضَلّوا ضلالاً بعيداً. ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها.

إن إنكار النبوّة ينشأ من عدم معرفة الله تعالى. لأن وجود النبي من لوازم اللطف. وحيث أن لطف الله واجب منه، لأنه مطلق ولا يعجزه شيء، فلا بدّ من وجود النبي في حياة البشرية. إن النبي يمثل السفارة الإلهية، الذي يأخذ بأيدي الناس إلى الله تعالى، وإن هذه الهداية من صفات الله عزّ وجلّ. فإنكار ضرورة هذه الهداية يعود إلى إنكار صفة أساسية من صفات الله.

هذا بالرغم من بقاء اتفاق الجميع على وجود طريق إلى رضوان الله، واتفاقهم أيضاً على ضرورة استنباطه من الإسلام.

قسم آخر من المسلمين لم يُضيِّعوا المعالم الأساسية. بل التزموا بها وجعلوها أصول مذهبهم، إلاّ أن جماعة كبيرة من هؤلاء لم تستطع الالتزام العملي بتفاصيل البرنامج. وخارت قواهم أمام الدنيا وملذاتها، وفقدوا القدرة على الدفاع عن تلك المعالم والأصول. وأدّى ذلك إلى صيرورة تلك التفاصيل مجهولة مختلطة وعرضة لاجتهادات كثيرة.

وإذا أردنا أن نختصر ما جرى، نستطيع أن نقول:

1. اتفق جميع المسلمين على أن الإسلام هو الطريق إلى الله. أضاع قسم كبير منهم معالمه الرئيسية. وقسم آخر ظن بأن الإسلام يسمح بإدخال آراء أخرى إذا لم تكن موجودة في الدين، ظناً منهم أن الله أنزل ديناً ناقصا ليكملوه!

2. اتفق الجميع على أن طاعة الله واتّباع أوامره هو العنوان العريض للالتزام بالدين. ولكنهم اختلفوا في تفاصيل هذه الطاعة وتحديد الأوامر الإلهية التي يعبر عنها بأحكام الشريعة.

3. انتشرت بين المسلمين أفكار وتعاليم كثيرة تتناول المسائل المعنوية والسلوكية، وكثير منها لم ينطلق من المعالم الأساسية التي حددها رسول الله ﷺ كميزان لقياس الصحيح من السقيم والحق من الباطل. وقد لاقت تلك الأفكار رواجاً كبيراً نظراً لتشجيع بعض الحكام من جهة، وإقصاء الناطقين الحقيقيين بالدين عن متن المجتمع الإسلامي من جهة أخرى.

4. وبسبب الفراغ الناشئ من الابتعاد عن أئمة الدين الواقعيين الذين عينهم رسول الله ﷺ، ونظراً إلى ما اكتسبته تلك الأفكار من رونق وشكل علمي، فقد أضحت المنهج السائد في تناول القضايا المعنوية.

5. لم تتمكّن الأفكار والعلوم الوافدة على العالم الإسلامي بسبب موجات الترجمة والنقل من منافسة الأحكام الظاهرية للدين الإسلامي، والتي كانت قد تشكّلت في علوم مستقلة كالفقه وأصول الفقه داخل المجتمعات الإسلامية. ونظراً لخلو العلوم الوافدة من هذا الجانب، وقوتها وتفريعاتها في المسائل الأخلاقية، فقد نشأ فصل آخر في النظر إلى الدين. كان هذا الفصل يحكي عن افتراق التعاليم المتعلّقة بظاهر الحياة وشؤون المجتمع، عن التعاليم المرتبطة بالأبعاد الروحية الباطنية للإنسان. وبعبارة أخرى، بدأ عصر تقديم نوعين من البرامج العملية. مع نسبة الكل إلى الدين. ولا شك أن حجة أهل الفقه وعلومه كانت أقوى لاعتبارات عديدة. منها أن أصحاب البرامج العملية الظاهرية كانوا أشد تمسكاً بالقرآن والسنّة. ومنها أن العلوم التي تدور حول برامجها كانت إسلامية محلية مئة بالمئة، لم تفد إلى العالم الإسلامي

من الحضارات الأخرى. ولكن جاذبية البرامج الأخرى المتعلّقة بالباطن والروح كانت كفيلة بجلب قلوب مجموعة كبيرة من الذين لم يقنعوا بالاكتفاء بالظاهر دون الباطن.

وقد تعمّق هذا الفصل والافتراق وازداد فصولاً على مر السنين وتضافرت الأبحاث والدراسات من كل جانب، مع محاولات عديدة هنا وهناك للتوفيق والتلفيق. وقد عبَّر البعض عن التيار الأول بتيار الفقهاء وأهل الظاهر أو أهل الشريعة، وعن التيار الثاني بالمتصوفة أو أهل الباطن أو أهل العرفان.

ولكن يبدو أن الغلبة كانت للافتراق لا الالتقاء. واستحكم الفصل بين الظاهر والباطن وتحول إلى صراع فكري تشهده جميع الحوزات والمعاهد العلمية.

هذا، بالرغم من اتفاق الجميع على أن طاعة الله هي الطريق إلى رضوانه.

6. وكان سعي كل فرقة لسد الفراغ الذي برز من الأسئلة والإشكالات المستحدثة يترجم بالمزيد من الاجتهادات، ومحاولة الوصول إلى قواعد كلية. ولكن تلك الاجتهادات كانت تؤسس لمزيد من التشعب والافتراق. وكل ذلك كان يجري أمام ناظري الميزان الحق الذي عيَّنه رسول الله للأمة من بعده، الميزان الذي أجبر على الصمت بأبشع صورة. الميزان الذي اضطر لسلوك طرق خفية وسرية من أجل إبقاء شعلة الحق ولو كره المشركون.

7. من بين أولئك الذين لم يضيِّعوا المعالم الرئيسية والتزموا بالوصية الكبرى، عدد قليل استطاعوا الإهتداء إلى الميزان وأدركوا طبيعة حركته السرية واعتماده التقية واضطراره إلى كتمان العلم. وفهموا نوعاً ما ما تشكله الظروف المحيطة من تهديدات. وقد حاول هؤلاء أن يسلكوا

الطريق ويتحمّلوا الأمانة، عندما غاب الميزان عن الأنظار، بأمرٍ من الله تعالى، ولأسباب تعرَّض لذكرها الباحثون.

8. سعى الاتباع الخُلَّص إلى حفظ ما أمكن، ولكن الناس من حولهم لم يكونوا قادرين على تفهّم طبيعة الظروف بشكل تام. فظنّوا أن هذه الظروف الاستثنائية هي الأصل والعادة الجارية، وقبلوا بالوضع الراهن.

9. ثم هجمت عليهم الفتن من كل جانب واستضعفهم الذين أضاعوا المعالم الكبرى. وكأي إنسان يتعرّض للهجوم، صار همُّهم الدفاع عما يمكن الدفاع عنه، أو على الأقل حفظ الأصول الأساسية وإبقاءَها حية في النفوس.. ونتج عن ذلك خفوت وميض التعاليم التفصيلية والأهداف الكبرى، مما سمح بغلبة الأوضاع الاستثنائية، وصارت أهم تلك المبادئ نسياً منسيا.

هذا، بالرغم من اتفاق الجميع على أن طاعة الله هي الطريق إلى رضوانه.

10. عندما كان اتباع الفرقة الناجية يشعرون بنوع من القوة والأمن، كانوا يسعون جهدهم إلى بيان التعاليم التفصيلية للإسلام انطلاقاً من المعالم الرئيسية. ولكن يظهر أن ثقل الأيام الغابرة كان لا يزال مهيمناً على وعيهم وشديد التأثير على أذهانهم وأبحاثهم العلمية بشكل عام.

11. وقد قيَّض الله تعالى لهذه الفرقة المزيد من الأمن، وبالتالي المزيد من القوة والشعور بالحرية. مما سمح ببدء عملية استخراج تلك الكنوز السرية لأئمة الدين وموازين الحق. فبدأت تظهر إلى العلن تلك الجواهر العظيمة واللآلئ المكنوزة للعالم المعنوي والبرنامج العملي للإسلام.

12. ولكن النكسة الكبرى كانت قد ألقت بثقلها على تفاصيل الحياة. وقد تسرّب إلى وعي هؤلاء آثار الفصل الكبير بين الظاهر والباطن،

وهيمنت المناهج المختلفة على مناحي حياتهم العلمية ودراساتهم الفكرية. وإننا نلاحظ اليوم بصمات تلك العوامل في شتى أبحاثهم ودراساتهم ـ وهم لا يريدون إلا الحق ولا يسعون إلاّ إلى الحقيقة متمسكين بالوصية الكبرى. فها هو مبدأ وجوب السعي لإقامة الحكومة الإسلامية يصبح مورداً للجدال والنقاش بينهم، وقد قرأوا جميعا في الأصول أن أئمتهم قد استشهدوا على طريق هذا الهدف ومن أجل تحققه. وتسللت إبداعات الصوفية بموازاة سيرة الأئمة المعصومين عليهم السلام، وبدت معظم الكتابات والدراسات الأخلاقية التي ألفت كأنها عبارة عن تنقيح مطالب الآخرين، دون السعي لاكتشاف النهج الأصيل!

نظرة إلى الأوضاع الراهنة

ثم أطل عصر الإمام الخميني، وأخرج الإسلام من زوايا الصفوف والمجالس العلمية ليسري كالنهر الهادر في كل مجالات الحياة الاجتماعية. واستطاع هذا العارف الكبير أن ينفض عن الكثير من الإنجازات العلمية الباهرة غبار السنين، مصححاً بذلك مسيرة تلك التعاليم، ليضعها في القناة السليمة التي ينبغي أن تنتهي إلى تحقيق الأهداف الكبرى للدِّين في حياة الفرد والمجتمع.

وإن أعظم ما قام به الإمام هو الكشف عن حقيقة الأوضاع الاستثنائية التي كنا نظن بعد تلك القرون وتطاول العمر أنها هي الوضع الطبيعي والمقبول. وأزاح سحب الخوف من كشف طبيعة الحركة السرية لأئمة الدين.

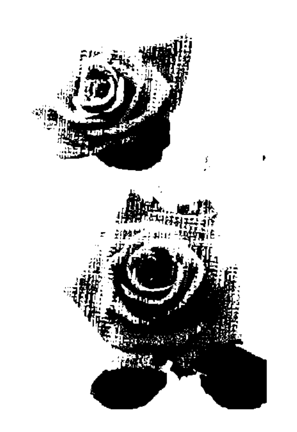
وقد سمح هذا الإنجاز الكبير بقراءة التاريخ ومسيرته قراءة واعية، ووضع بين أيدينا شواهد الانحراف والتحريف والضياع الذي عاشته الأمة الإسلامية. وصار ممكناً أكثر من أي وقت آخر تَبَيُّن الفوارق الدقيقة بين الفرق الإسلامية واجتهاداتها المختلفة.

ولم يكن عمل الإمام منحصراً بالإطار العلمي، بل قدم ذلك في إطار عملي تطبيقي، وذُهل المراقبون من حجم الآثار المعنوية لحركة هذا العارف وشخصيته على مستوى الأتباع. فقد أضحت معظم الآراء الصوفية العابقة برائحة الروحانية والعرفان كنفثة في بحره اللجي.

بيد أن هذه المشاهدة لا تعني أن هذا الإنجاز الكبير قد شمل كل مجالات حياتنا أو نال منه كل فرد نصيبه! وما ذكرناه في الواقع كان يتعلق بعمل الإمام نفسه. وأما بيان الآثار الكاملة ومدى استقبال وتقبّل الأفراد والمجتمعات لتعاليمه ونهجه فيحتاج إلى دراسات وبيانات تفصيلية، ونحن سنكتفي منها بالإشارات:

أ ـ إن هذا النوع من الأعمال، أو لنقل إن هذه النهضة الكبرى هي فيض إلهي ونعمة ربانية تحتاج الاستفادة منها إلى استقبال وقبول والتزام. وعليه، فإن بركات نهضة الإمام قد شملت كل من سمعها وقبلها.

ب ـ رغم أننا في عصر المعلومات حيث تنتقل المعارف والأخبار بسرعة بين بقاع الأرض، إلا أن عمليات وبرامج نقل وانتقال هذه النهضة والتعريف بشخصية الإمام الخميني إلى المسلمين لا زالت تشبه أساليب ووسائل القرون الوسطى.



ولو أجرينا استطلاعاً عاماً حول ما يعرفه المسلمون من حقيقة هذه النهضة وأبعادها لكانت النتائج خجولة جداً (مقارنة بما ينبغي)؛ فكيف إذا أضفنا عوامل التشويه واللعب على وتر الخلافات المذهبية التي حجبت قسماً عظيماً من المسلمين عن هذه المعرفة. ثم أضف إلى ذلك عامل اختلاف اللغة الذي يحول دون التواصل الفاعل.

ج ـ إذا جئنا إلى لبنان كنموذج لدراسة الأوضاع الراهنة، وفيما يتعلّق بالإمام قدس سره، يمكن القول أن للتيارات الأخرى والفرق والاجتهادات المختلفة حضوراً ملفتا. ومثل هذا الأمر لا زال يمثِّل سبباً لضعف وصول تلك النهضة العظيمة والإتصال بها بالشكل المطلوب.

هذا، بالرغم من الاستعداد الكبير عند هذا الشعب لاستقبالها وتقبلها.

بعد هذا العرض التاريخي الاجتماعي السريع، يمكننا أن نقترب من فهم حقيقة الاختلاف في طرح البرنامج العملي للإسلام. وقد يتضح على ضوئه المزيد من النقاط المتعلقة بدراسة الطروحات المختلفة وخصائصها العامة.

عود على بدء: كلّيات وأصول

إن الله سبحانه هو الحكيم. وبمقتضى حكمته المطلقة وفيضه اللامتناهي، جعل لكل موجود غاية كبرى وهدفاً سامياً. ونحن نعلم أنه من العبث والسفاهة أن يدعو أحدنا صديقاً له لضيافته مثلا، ويعده بأشهى الأطعمة وألذّ المأكولات ولا يدلّه على منزله، لا بل يتوعده على عدم المجيء بالعذاب الأليم والعقاب المقيم!

ونستوحي من هذا البيان أن وجود الطريق إلى الغاية أمر ضروري لكل مخلوق من خالقه الرحيم، ومن لوازم الحكمة الإلهية.

لقد وعدنا الله تعالى بالسعادة الكبرى وأمرنا بالسعي للوصول إلى الغاية العظمى. ونحن عباده الضالون لا يمكننا أن نهتدي إلى ما خلقنا لأجله بمفردنا وبحسب إمكاناتنا المتاحة، فأتمّ سبحانه فضله علينا وبعث إلينا من يأخذ بأيدينا؛ ولولا ذلك ما تمت الحجة ولا وسعت الرحمة.

وبمعرفة الغاية والتأمل فيها، وتمييزها عن الغايات التي يختلقها الناس أو تبتدعها الأهواء، وبدراسة العلاقة بينها وبين الغايات المرحلية التي هي محطات ومنازل على الطريق، يمكن فهم مئات النصوص الشريفة من الآيات والروايات، التي اشتبه البعض في فهمها وإدراك موقعيتها في السلوك الكلي.

فإذ بتلك القيم والمقامات العالية، التي كانت بنظر البعض هدفاً نهائياً وغاية قصوى، تصبح محطات أو شروطاً، فلا تضيع الطريق الأساسية

ولا تختفي أبعادها الرئيسية. ولا يشك أحد من علماء الإسلام أن هناك الكثير من القيم السامية التي دعا الإسلام إلى تحصيلها والوصول إليها، ولكنها ليست غاية نهائية للدين وتعاليمه. ولكن بسبب جهل البعض بالهدف النهائي أضحت بعض القيم العظيمة غاية بديلة فاشتقَّ لها طريقاً، واعتبرها الطريق والصراط الأساسي.

فطلب العلم والحصول عليه يعدّ من الكرامات العظيمة ومن القيم الكبرى التي أكد الإسلام عليها بشكل منقطع النظير. وعندما يتصوّر أحدنا أن الغاية من وراء الدين هي تحصيل العلم ونيل المقام العلمي، فإنه قد ينفق كل عمره في طلب العلم وقراءة الكتب ودراسة الأفكار والآراء، ظناً منه أنه يطبِّق الإسلام. وتكون النتيجة أيضاً أنه سيرى كل عمل آخر عبثاً أو تضييعاً!

وهكذا الأمر فيما يتعلّق بمبدأ الحب في الله. حيث أن الحب من أرقى تعاليم الدين وقيمه، بل يمكن اختصار الدين كله فيه. لكن البعض، قد ابتدعوا على طريقتهم مناهج وممارسات خاصة للتعبير عنه، دون أن يلتفتوا إلى أن للدين منهجه الأصيل في تحقق الحب والمودة وتطبيقهما وآدابهما. لا بل يصل بهم الأمر إلى حيث يعتبرون أي عمل أو منهج آخر منحرفاً أو ناقصاً.

هذا بالرغم من اتفاق الجميع على أن طاعة الله هي طريق رضوانه.

إن دعوة الإسلام إلى السعادة لا تنحصر في مطلق السعادة، بل هي السعادة المطلقة. وإن الغاية التي خلقنا الله لأجلها ليست أي كمال، بل الكمال المطلق. وعليه، فإذا وصلنا إلى بعض مراتب السعادة والكمال، فلا يعني أننا قمنا بما علينا وطبقنا الدين وفق برنامجه! فربما نكون في أول الطريق وبداية المسير.. وعلى هذا الأساس قد نتمكن من فهم تلك الآراء والتيارات السلوكية التي تجعل الكرامات والخوارق محور تعاليمها وهي غير ملتفتة إلى الهدف النهائي ومعنى السعادة المطلقة

والكمال اللامتناهي.

من الأمور المسلّمة أن من أطاع الله تعالى واجتنب معصيته، سينال مقام قربه ورضوانه، ويصل إلى جنته، التي هي محل فيضه المطلق ومقر السعادة الأبدية ومستقرها. ويشهد على ذلك:

1. سيرة الكمّل من أولياء الله تعالى كالأنبياء والأئمة المعصومين﴿ع﴾: فإن هؤلاء، ورغم وصولهم إلى أعلى درجات الكمال وتحققهم بحقيقة القرب، لم يحيدوا، ولو قيد أنملة، عن صراط الله المستقيم، الذي هو صراط الطاعة والعبودية التامة. بل إن سيِّدهم ومولاهم وأفضلهم، والذي بشره الله قائلا: ﴿ليغفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر﴾، لم يخرج لحظة واحدة عن العبودية التامة والخضوع المطلق والإلتزام الكامل بما أمره الله تعالى. ولهذا كانت سنَّته ﷺ حجة الله على الناس ومصدراً لمعرفة أحكام الله تعالى.

2. النصوص الدينية الشريفة: فعندما نتأمّل في الآيات والأحاديث الشريفة التي ذكرت المقامات الرفيعة والثواب الإلهي العظيم، نجدها دوماً تقرن ذلك بطاعة الله وعبادته. وأوضح شاهد على هذا قوله تعالى: ﴿إنْ أولياؤه إلاّ المتقون﴾.

جميع الناس يمتلكون نفس القابليات التي تؤهلهم للوصول إلى أعلى درجات الكمال. وهذا من مقتضيات العدل الإلهي وسعة الرحمة الإلهية. إن الله تعالى يحتج يوم القيامة على جميع الناس بوجود النبي الذي وصل إلى الكمال المطلق. وهذا من الثابت الواضح عند الجميع. فكيف تتم الحجة إذا لم يكن بإمكان الناس الوصول إلى نفس المقام. وهذا يستلزم وجود نفس القابليات.

فإذا كانت الولاية هي القرب، فأولياء الله لن يكونوا من غير المتقين. وليس التقي إلا من التزم بطاعة الله في الخط العام والمسار الكلي لحياته، من القيام بما أوجب الله عليه واجتناب ما نهاه عنه. فالولاية والقرب والزلفى والمجد أمور لا يمكن أن تتحقق إلاّ من خلال سلوك سبيل الطاعة والعبودية.

إن الآيات الشريفة التي عرفتنا على الأنبياء وأشارت إلى عظمتهم، لم تخلو من تذكيرنا دوماً بأنهم عبيد الله؛ وإذا كان رسول الله ﷺ أفضل الأنبياء، فإن أكبر افتخاراته هو أنه عبد الله:

﴿سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.﴾

وكذلك الجميع: ﴿واذكر عبدنا أيوب..﴾.

﴿إنه من عبادنا المؤمنين﴾.

﴿فوجدا عبداً من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً﴾.

والعبودية صفة تدل على فناء إرادة العبد في المعبود، وانقياده له في كل شيء. فهي الطاعة الكاملة والتسليم المطلق الذي لا يشوبه عصيان أو تمرّد سواء في الظاهر أم في الباطن.

وفي الحديث عن الإمام الكاظم(ع)، قال:

"يا هشام، نصب الخلق لطاعة الله، ولا نجاة إلاّ بالطاعة..".

وفي الحديث المعراجي عند سدرة المنتهى، قال الله تعالى مخاطباً حبيبه(ص):

"يا أحمد! فمن عمل برضاي ألزمه ثلاث خصال: أعرفه شكراً لا يخالطه الجهل، وذكراً لا يخالطه النسيان، ومحبة لا يؤثر على محبتي محبة المخلوقين فإذا أحبني أحببته، وحببته إلى خلقي، وافتح عين قلبه إلى جلالي وعظمتي، فلا أخفي عليه علم خاصة خلقي، فأناجيه في ظلم الليل ونور النهار حتى ينقطع حديثه مع المخلوقين ومجالسته معهم، وأسمعه كلامي وكلام ملائكتي واعرفه سري الذي سترته عن خلقي.. ولاستغرقن عقله بمعرفتي ولأقومن له مقام عقله، فتقول الروح: إلهي عرفتني نفسك فاستغنيت بها عن جميع خلقك، وعزتك وجلالك لو كان رضاك في أن أقطع إرباً إرباً أو أقتل سبعين قتلة بأشد ما يقتل به الناس لكان رضاك أحب إلي.. وافتح عين قلبه وسمعه حتى يسمع بقلبه مني وينظر بقلبه إلى جلالي وعظمتي".

وفي الأحاديث القدسية الأخرى إشارات عميقة ودلالات واضحة على العلاقة بين مقام الكمال المطلق والعبودية. منها:

"عبدي أطعني تكن مثلي تقول للشيء كن فيكون".

"يا ابن آدم أنا غني لا أفتقر أطعني فيما أمرتك أجعلك غنياً لا تفتقر، يا ابن آدم أنا حي لا أموت أطعني فيما أمرتك أجعلك حياً لا تموت، يا ابن آدم أنا أقول للشيء كن فيكون أطعني فيما أمرتك أجعلك تقول للشيء كن فيكون".

"ما تقرّب إليَّ أحد بمثل ما تقرّب بالفرائض، وإنه ليتقرّب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها".

والآية الشريفة: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾ تُبين الوظيفة الوحيدة والدور المطلوب من الإنسان في هذا العالم. ولعلها تظهر أن العبودية هي المقام الأعلى لأهل التكليف.

وفي الدعاء عن الإمام زين العابدين؈:

"إلهي هذا ذلي ظاهر بين يديك، وهذا حالي لا يخفى عليك. منك أطلب الوصول إليك. وبك استدل عليك، فاهدني بنورك إليك وأقمني بصدق العبودية بين يديك".

كان هذا نذراً يسيراً من النصوص الإسلامية التي تعرضت بشكل مباشر لبيان روح الطريق، وبيّنت أن جميع الأحكام الإلهية إنما شُرِّعت لأجل تحقق الإنسان بحقيقة العبودية. والآن ننتقل إلى الاستدلال بطريق اخر على هذا الأمر الشريف.

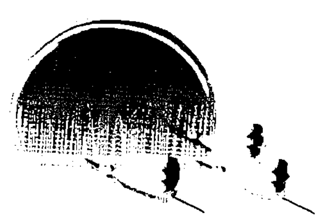
3. طريق معرفة النفس: إذا نظرنا إلى أنفسنا، وتعرّفنا على قابلية الوصول إلى الكمال اللامتناهي التي جعلها الله في كل مخلوقاته، وعرفنا أن الله يفيض علينا بالفيض المطلق. نتساءل عن سبب عدم اتصافنا به ووصولنا إليه. وعندما نتعرّف على المانع الجوهري، سنكتشف الطريق الأوحد أيضاً.

وقد اتضح في الفصول السابقة أن معنى القابلية هو استعداد الإنسان لنيل المطلق من الكمال، لأن وعاء النفس وسعتها غير محدودين.

وقد اتضح أيضاً أن الإنسان هو الوحيد المسؤول أمام هذا الفيض، فهو الذي يستقبله وهو الذي يرفضه أو يعرض عنه، وجميع العوامل الأخرى يمكن أن تتحول إلى عوامل مساعدة في الحقيقة.

وعند التأمل الهادئ نعلم أن مرجع هذا الإعراض ودافعه هو سعي هذا الإنسان للحصول على الكمال الموهوم. وذلك لأن الإنسان بفطرته لا يرفض الكمال بل يطلبه، ولا ينفر منه بل يرغب به؛ غاية الأمر أنه يخطئ في تحديد المصداق الواقعي للكمال المطلوب، ويتجه نحو الكمال الموهوم. فالإعراض عن الكمال المطلق تكون صورته في هذا العالم عبارة عن تصور الكمال في الأمور الدنيوية (التي هي بحقيقتها فانية زائلة) والسعي نحوها. وهو أحد مظاهر اتّباع الهوى، حينما يجعل المخلوق رضا نفسه هدفا وشهواتها غاية، ويجعل جميع تحركاته وأعماله في خدمة مبتغياتها ورغباتها.

هذا التحرك نحو الكمال الموهوم هو الذي يقف حجر عثرة أمام السعي نحو الكمال المطلق. وهو في الحقيقة طلب للكمال في غير محله ومن غير مصدره الأصيل. وطبيعي أن النتيجة ستكون الحرمان والخسران. هناك عندما تبلى السرائر وتظهر الحقائق، فتكون الدنيا وما فيها سراباً.



إن طلب الكمال المحدود بلحاظ محدوديته مضاد لطلب الكمال المطلق، لأن المحدود والمطلق أمران متباينان لا يجتمعان. ولعله لهذه الجهة يُعلم سر قول أمير المؤمنين﷣ بشأن الدنيا والآخرة أنهما **"عدوان متفاوتان وضُرَّتان لا تجتمعان"**. ويعلم أيضاً سر الحديث القدسي الذي يذكر أن بقاء مثقال حبة من خردل من حب الدنيا في قلب الإنسان يؤدّي إلى حرمانه من نظر الحق تعالى إليه يوم القيامة.

وإن النظر إلى وجه الله الذي هو من كرامات الآخرة العظمى لا يحصل مع بقاء حب الدنيا وطلبها الذي هو طلب الكمال المحدود

الزائل. فإن النظر إلى كرامة الله هو التعبير عن طلب الكمال المطلق. ولا يمكن أن يجتمع طلب المحدود مع طلب المطلق، إلا إذا كنا نظن أن المطلق عبارة عن كثرة كثيرة للمحدود!

إن طلب الكمال المطلق يقتضي أن يجعل المرء وجوده قابلاً له، فلا يخسر تلك القابلية المودعة فيه، ولا يطفئ نور الفطرة الطالبة له. وإن أكبر سبب لخسارة القابليات وفقدان التوجه نحو الكمال المطلق هو التوجه نحو الكمالات المحدودة وطلبها. وأن أفضل طريقة للحفاظ على القابلية المطلقة هي الاستجابة لنداء الفطرة الصافية التي لا ترضى بأقل من الكمال المطلق. فالذين يسعون لنيل الكمالات المحدودة ويجعلونها غايتهم ونهاية أمانيهم إنما يعملون خلاف الفطرة ويخسرون القابلية التي تؤهلهم ليكونوا في المقام الأعلى: **﴿ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنّم خالدون﴾**.

إنّ التحرك والسعي الحثيث لنيل ملذات الدنيا الفانية ليس سوى ظهور غلبة الأهواء النفسية على دعوة الحق الأصيلة: "**يا بن آدم خلقت الخلق لأجلك وخلقتك لأجلي فهل تفر مني**". وصحيح أن الهوى يدعو صاحبه لنيل الملذات، لكن قد يصل الأمر بالبعض إلى درجة ينساقون نحو طاعة كبرائهم طاعة عمياء دون أن ينالوا من حظوظ الدنيا شيئاً. ويقال أن لذة هؤلاء تكمن في أن يروا أنفسهم تابعين لكبرائهم وزعمائهم.

فاتضح أن المانع الأوحد من بلوغ الكمال المطلق هو اتباع الهوى. وبمعرفة السبب يصبح طريق الحل والنجاة معلوماً. فإذا اختصرنا وصف هذا الطريق بمخالفة الهوى مطلقاً لا نكون مبالغين.

والسر في ضرورة أن تكون هذه المخالفة مخالفة مطلقة تشمل جميع حالات الهوى، أن الإبقاء على بعض الأهواء حتى مع القضاء على الكثير منها وزوال تأثيرها، يعني استمرار حكومة النفس والشيطان، وإمكانية تسلل جنوده ليسيطروا بشكل تام على مملكة القلب التي لا

ينبغي أن تخضع لغير الحق تعالى. إن قلب أي إنسان لا يمكن أن يكون له توجهان في نفس الوقت: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾، والقبول ببعض الهوى يعني القبول بسلطان غير الله سبحانه. ويعني أيضاً أن القياد سيكون للهوى لا للحق. ومن المعلوم أين تأخذنا أهواؤنا.

فالقاعدة العامة التي تعبّر بوضوح عن الطريق إلى الغاية هي:

مخالفة الهوى مطلقاً هي الطريق إلى الغاية

والآن نأتي إلى كيفية تحقيق هذا الأمر.. فكيف يمكننا أن نصل إلى مرحلة المخالفة التامة والقضاء على الهوى بشكل كلي.

إن أفضل طريق لمخالفة الهوى يكون في أن ننقاد ونطيع غيره كلما أمر أو نهى.. وأهواؤنا هي أنفسنا، فإذا خالفناها إلى غيرها، ضعفت سلطته وزالت: فيحصل المطلوب.

وهكذا فنحن بحاجة إلى شخص آخر نرجع إليه عند بروز سلطان النفس والهوى وشروره بإصدار الأوامر في أية قضية أو مسألة. فإذا حدثتني نفسي (وهو أمر باطني) بشرب هذا الكوب من العصير ـ مثلاً ـ اتجه إلى ذلك الشخص واسأله: ماذا أفعل؟ وإذا أطعته فيما يأمر (سواء أمرني بشرب العصير أم نهاني) فهذا سيكون مخالفة واضحة للنفس وأهوائها. وإذا استمر الحال على هذا المنوال سضعف الأهواء حتى تزول.

ولكن أين نجد مثل هذا الشخص الذي يمكن أن يكون حاضراً ومصاحباً لنا في جميع قضايا حياتنا؟ فإنّ غيابه عنا هنا أو هناك سيمكن الهوى من الرجوع ثانية. هذا الشخص الذي نبحث عنه ينبغي أن يكون مطلعاً على شؤوننا التفصيلية ويتوقع ما سندخل فيه من تجارب، ويعلم دقائق الأمور وما نخفي وما نعلن، وهو قادر على إصدار الأوامر في كل قضية.

وعند أدنى تأمل في تاريخ البشرية وتجاربها المختلفة لن نجد من

بين جميع الناس من تدخل في جميع شؤونهم وقضاياهم على شكل القوانين والأحكام سوى الأنبياء والرسل وأوصياؤهم. وفي عالم الشرائع، لن نجد شريعة تقدم برنامجا شاملاً لكل أبعاد الحياة سوى شريعة الإسلام.

إن الإسلام الذي لا يمكن معرفته بشكل صحيح إلا من خلال سيرة الرسول وآل بيته ﷺ هو الدين الوحيد الذي يمتلك الأحكام الشاملة لكل شأن أو حادثة في الحياة. ولهذا فهو البرنامج الأوحد الذي باتباعه يمكن تحقيق المخالفة المطلقة للهوى. وسر ذلك واضح: لأنه البرنامج الصادر عن خالق الخلائق أجمعين، الذي يعلم حاجاتنا وشؤوننا وكل شيء فينا: باطننا وظاهرنا..

إن هذا البرنامج العملي هو الشريعة بمفهومها الكلي. الشريعة التي هي عبارة عن الأحكام الصادرة عن المولى القدير في كل واقعة أو شأن أو حركة.

وهكذا يثبت لنا أن طاعة الله (التي تتحقق من خلال اتباع شريعته) هي الطريق الوحيد إلى الغاية.

ويتضح من هذا البيان سبب انحراف المسالك الصوفية والبوذية التي قامت على أساس مخالفة الهوى بالاعتماد على الآراء الشخصية والرؤيه الذاتيه. فطالما لم تحصل المخالفه التامه للهوى، لن تكون الأعمال التي تنطلق في الظاهر لمخالفة الهوى سوى اتباعاً خفياً للهوى.

إننا إذا تأملنا حالاتهم وتعمقنا فيما وصلوا إليه، نجد أن للنفس حضوراً قوياً في رياضاتهم. فلكي يقدروا على تلك الرياضات الشاقة ويحملوا النفس والجسد على المصاعب المرهقة، يؤملون النفس بالكمالات والخوارق.

أليست تلك الرغبات الباطنية سوى مظهر آخر لميول النفس وأهوائها؟!

إنّ هذا هو حال كل من يجعل الرياضة، مهما كانت شاقة وصعبة ومخالفة للأهواء والرغبات، لأجل الوصول إلى المقامات والدرجات.

حقيقة العبودية

اتضح مما سبق أن الطريق الوحيد إلى الغاية الحقيقية هو الانقياد التام لله سبحانه والذي يظهر بصورة اتّباع رسله وتطبيق شريعته. ولو فرضنا أن شخصاً قام بالأعمال العبادية والطاعات الشرعية، وكان مطابقاً في كل ما يفعله لإرادة الله تعالى، لكنه لم يكن في نفسه منقاداً ولا في قلبه مطيعاً فكأنه لم يفعل شيئاً. بل لو فرضنا أن شخصاً ما قام بجميع الأعمال ظناً منه أنها أحكام الله تعالى (ولم يكن مقصّراً في تحصيل العلم بذلك) واتضح أن قسماً منها لم يكن كذلك، فإنه يثاب على الجميع.

كل ذلك لأن الشرط الجوهري هو الانقياد وترك التمرد والعناد.

ومن هنا، يكون استخدام مصطلح العبودية أبلغ في العبادة. فالعبادة هي القيام بالأعمال العبادية. والعبودية هي حالة الانقياد والخضوع والتسليم وفناء الإرادة في إرادة المعبود.

إن إبليس اللعين، عبد الله لأكثر من ستة آلاف سنة، (كما حدثنا أمير المؤمنين عليه السلام)، ولكن جميع عباداته التي فاقت أعمال الملائكة لم تقرّبه خطوة واحدة نحو المعبود سبحانه. حتى إذا امتحن وابتلي بالسجود والطاعة للإنسان، ظهر كفره واستكباره ومبارزته لربه سبحانه. ولما كان الخلق الإبليسي قائما على المعاندة والتمرد على رب العالمين وكانت عزة النفس هي أساس شخصيته، فإن أفضل السبل لمواجهته والنجاة من الإتصاف بصفاته المهلكة هو العبودية التامة؛ فمن دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام:

"اللهم واعمّ بذلك من شهد لك بالربوبية وعاداه لك بحقيقة العبودية

واستظهر بك عليه في معرفة العلوم الربانية".

وعن الإمام الصادقؑ قال:

"العبودية جوهرة كنهها الربوبية".

فالوصول إلى مقام قرب الرب لا يتم إلاّ بالعبودية الخالصة. والسلوك إلى محل الأنس لا يكون مع عزة النفس.

أجل، إن الطريق إلى العبودية يُسلك بتمرين النفس وترويضها بالعبادة والطاعة. فعلى أثر دوام الطاعة، يصبح الانقياد العملي ملكة راسخة في النفس. ومن خلال المواظبة على الصالحات يصبح الباطن صالحاً، ومن خلال التصبر والإصطبار نصل إلى خُلق الصبر؛ وهذا أحد أهداف تكرار العبادات في الإسلام.

إن مفهوم العبودية وجميع لوازمها من التسليم والإنقياد والطاعة وترك الأنا وعدم الملك والفناء والذوبان والإنتظار وغيرها هي من المفاهيم الوجدانية التي يدركها من تصورها وعرفها. فإن الخضوع والالتزام وترك الاعتراض مطلقاً من معاني العبودية. والعبد الحقيقي هو الذي لا يملك شيئاً أمام سيده ومولاه، لأن سيده هو الذي يملكه ويملك جميع شؤونه. ولا يعترض عليه فيما يفعله به، ويلتزم بكل ما يأمره. ولو أردنا أن نعطي غير ذلك للعبد لكان شيئاً آخر، كالشريك أو الزميل، ولكانت العلاقة بعيدة عن معنى العبودية. ولو كانت إرادة الله أن نموت جوعا وعطشاً فعلينا بالتسليم، ولو أراد تعالى أن يهلكنا بالشواظ والنحاس والتفتيت والتفجير فعلينا بالقبول؛ إذا كنا نعرف قيمة العبودية حقا. فلا حد لولاية الله على عباده مهما بلغوا، وليست الإماتة والإحياء إلا بعض شؤون هذا الإله الواحد القهّار سبحانه وتعالى.. أجل، يجب على العبد السعي والجهاد لأجل محاربة الحرمان والفقر ومواجهة ظلم الطواغيت والحكومات الظالمة التي تجوّع المستضعفين. ولكن لو فرضنا أنّ الله يريد لعبده أن يموت جوعاً، فبمقتضى العبودية

لا ينبغي أن يعترض عليه مطلقاً. ولو اعترض لخرج من العبودية. فإن عبودية الإنسان لله سبحانه لا تتأطر بحدود معينة، لأن ربوبيته سبحانه للعالمين وملكه لهم ليس له حد أيضاً. وقد أمر الله تعالى نبيه قائلاً:

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾

وقوله تعالى: ﴿..إنا لله وإنا إليه راجعون..﴾ يبين أحد معاني عبودية الخلق كلهم لله تعالى. وفي هذه الآية يقول الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام:

"إنا لله" إقرار على أنفسنا بالملك.. و"إنا إليه راجعون" إقرار على أنفسنا بالهلك".

فإن جميع الناس، بل كل المخلوقات مملوكة لله يفعل بها ما يشاء بمقتضى مالكيته للكل. وبالتأكيد إن مالكية الحق تعالى للأشياء ليست كملكنا، لأن ملكه وتدبيره وتصرفه فيها لا ينفصل عن حكمته ورحمته وغناه عما سواه؛ سواء أدركنا ذلك أم لم ندركه؛ ومن عرف هذه الحقيقة كيف يجوز له أن يعترض عليه. فليس مثل هذا الاعتراض إلا تعبير عن إنكار حقيقة ربوبيته.

إن الإنسان مهما بلغ من الكمال، فكماله لن يصبح من ذاتياته التي لا تنفك عنه أو تزول، بل إن أي كمال يناله لن يكون سوى محض التفضل من الله تعالى. ولهذا نجد أن الكمل من أولياء الله، ومع بلوغهم مراتب الكمال التي لا تحد ولا تعد، كانوا إذا وقفوا بين يدي الله تعالى وقفة الحقيقة يعترفون بعجزهم وفقرهم ونقصانهم لأنهم أهل اليقين؛ وأهل اليقين يعلمون أن الله أصل كل كمال وجمال. إن أمير المؤمنين عليه السلام الذي وصفه رسول الله صلى الله عليه وآله بأنه عين الله وعلم الله (راجع أحاديث أصول الكافي)، عندما يقف بين يدي الله يقول: **"إلهي وارحم عبدك الجاهل"**. وهذا حفيده الإمام الكامل زين العابدين عليه السلام يقول مخاطباً ربه: **"وأنا بعدُ أذلّ الأذلين ومثل الذرة أو دونها"**.

لقد وقف الرسول الأعظم حبيب إله العالمين وأفضل الخلائق أجمعين

- الذي لا يمكن لعقول البشر معرفة كنه عظمته وحقيقة مقامه ورتبته. قائلاً: "**أنا أفقركم إلى الله**".

إن العبودية مقام للنفس وحالة للباطن والقلب تتجلّى في أعمال الإنسان وظاهره. والعبد هو الذي يلاحظ إرادة سيده، فيتبعها دون حرج في نفسه، ويجعل إرادته تابعة لها مطلقاً. ولكي يتحقق السالك بهذا المقام عليه أن يمارس هذه التبعية في باطنه وظاهره حتى يصبح ملكة راسخة لنفسه، فيكون عبداً لله تعالى بالحقيقة.

ولهذا يصرف السالك جلّ وقته في البحث عما يريده الله منه. ولا يوجد في مسيرة حياته ما هو أهم من هذه المعرفة. وأول ما يعرفه الله عليه هو أنه تعالى يريده لنفسه خالصاً لا يشرك به أحداً: **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾**.

إن المعبود لا يريد أن يبقى في قلب السالك سواه: **﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾**، والقلب السليم كما يقول الإمام الصادق هو "**الذي ليس فيه أحد سوى الله**". إذا عرف السالك هذا الطلب لا يفتر في البحث عن ذلك الشراب الطهور الذي يطهّره من كل دنس سوى الله، **﴿وسقاهم ربهم شراباً طهورا﴾**، وفي الحديث: **أي يطهّرهم مما سواه.**

إن الأحكام الإسلامية شاملة لكل قضايا الحياة. وقضايا الحياة منها ما هو ثابت ومنها ما هو متغير تابع لمقتضيات الزمان والمكان فالقضايا المتغيرة لها أصول ثابتة يقوم الفقيه بالرجوع إليها لاستنباط أحكام القضايا المتغيرة.

فإذا أراد سلوك طريق العبودية، عليه أن يسقط من نواياه ودوافعه ومن غايات أعماله وعباداته كل ما عدا الله. فلا يصدر منه عمل أو فعل أو تفكر إلا لله وحده. وهذا هو الإخلاص.

ثم يعلم السالك إن الله تعالى يريد منه أن يؤدّي دوراً محدداً في الحياة، وأنه لم يخلقه في هذا الزمان المعيّن وذاك المكان المحدد، إلاّ لينجز خدمة أو يؤدي دوراً ضمن مسيرة البشرية وسلسلتها التي كان أحد حلقاتها؛ فينهض من غفوته باحثاً عنها في ليله ونهاره لكي يتمم حق الربوبية ويكون كما كان أولياء الله: "**إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد**

المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك..". وربما يأتيه الجواب: "**إن لك في الجنان لدرجات لن تنالها إلا بالشهادة**".

ثم يعلم أن معبوده أراده أن يصلي، ويصوم، وأن يحج، ويزكي ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويتولى أولياءه ويتبرّأ من أعدائه. وشيئا فشيئاً تتراءى له الحياة وكأنها سلسلة من المسؤوليات التي سيطالب بها يوم الحساب؛ ويعلم أنه ما من شيء إلا وقد جعل الله له حداً أو حكماً، فيوقف نفسه لشريعة الله، ويتبع كل ما حكم به الله؛ قال الله تعالى:

﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾.

وقال عزّ من قائل:

﴿وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾.

فيعلم أن أولي الأمر هم الأئمة المعصومون، وفي غيبة الإمام الثاني عشر منهم، تكون الطاعة للولي الفقيه الجامع لشرائط التقليد. فكما أن لرسول الله الولاية من الله تعالى:

﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم﴾.

وقد انتقلت بأمر من الله للأئمة الهداة من بعده:

"**من كنت مولاه فهذا علي مولاه**".. "**وأطيعوا الأئمة من بعدي**"، فإن أهل البيت عليهم السلام قد عينوا أولي الأمر في غيبتهم بالصفات العامة لتكون لنا دليلا إليهم.

ومثلما كانت ولاية رسول الله في زمانه علامة على الايمان بالله وعبادته الحقة:

﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله﴾.

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾.

فبولاية رسول الله صلى الله عليه وآله تميّز المسلم من الكافر، وظهر كذب من ادّعى حب الله وولايته. كذلك تميّز المؤمن من غيره بولاية علي بن أبي طالبعليه السلام؛ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: "**لولاك يا علي لم يعرف المؤمنون بعدي**"..

وفي عصر الغيبة يتميّز الذي يسلك طريق وخطى الأئمة الأطهار من غيره بطاعة الولي الفقيه الذي أمرنا بطاعته وصار حجة علينا من بعدهم.

يذكر أن اليهود كانوا يدَّعون أنهم أولياء الله وأحباؤه. ولما بُعث رسول الله محمد بن عبدالله قال الله لهم إن كنتم أوليائي وأحبائي حقاً وصدقاً، فاتبعوا رسولي وحبيبي.

وإن جماعة من المسلمين ادَّعوا أنهم أتباع سنّة رسول اللهصلى الله عليه وآله، فقال لهم الرسول: "**من كنت مولاه فهذا علي مولاه**". أي من تولاني وأطاعني فإني آمره تولي علي وطاعته.

وفي زمن الغيبة، أمرنا أهل البيت إن كنا شيعتهم حقاً أن نطيع من يُعَيِّنونه حاكماً: "**فإني قد جعلته عليكم حاكماً**".

ولهذا كانت الولاية أفضل ما نوديَ به في الإسلام، لأنها الفاروق بن الحق والباطل. وبها يتميّز العبد الحقيقي من الذى يعبد هواه.

إن معنى الربوبية المطلقة لله تعالى هو أنه ليس لولايته على مخلوقاته حد محدود أو شرط موضوع. ومعنى العبودية التامة هو الانقياد التام له في كل شيء.

وللإنسان في وجوده وحياته شؤون ظاهرة وباطنة، ولنفسه أبعاد ظاهرية وباطنية. والعبودية تستلزم خضوع جميع شؤون ومراتب الإنسان لله سبحانه. ولعل قوله تعالى: ﴿وذروا ظاهر الإثم وباطنه﴾، إشارة إلى هذا الأمر.

وفي الدعاء المروي عن رسول اللهﷺ أنه كان يقول:

"إلهي سجد لك سوادي وخيالي وبياضي".

ففي مرتبة جسده وبدنه الذي هو ظاهره، عليه أن يجعل كل قواه وحواسه مطيعة لله.

وفي مرتبة خياله ومثاله، ينبغي أن يروض خيالاته فلا تطير إلا إلى ما يريده الله.

وفي مرتبة فكره وذهنه وقلبه وسرّه التي هي باطنه، عليه أن يسلّم الكل لله.

فإن ربوبية الحق للعالمين، وعبودية الكائنات له سبحانه، تستلزمان تنظيم جميع شؤونها من جانب المولى الحق. وعلى هذا الأساس جاء الاسلام كدين يهتم بجميع شؤون الإنسان من أدنى مراتبه إلى أعلاها.

وإذا كانت شؤون الإنسان في عالم الظاهر تشمل الصحة والمجتمع والاقتصاد والعلاقات والجسد وغيرها، فإن الإسلام قد عين لكل شأن نظامه.

فإذا خضع الإنسان في مرتبة ظاهره، عليه أن ينقل الخضوع إلى مرتبة خياله، ومن ثم إلى قلبه، وهكذا..

أما خضوع مرتبة الظاهر فتحصل بالالتزام بأحكام الشريعة التي تشمل كل شؤون عالم الظاهر. وأما خضوع المراتب الباطنية الأخرى فيحصل من خلال خضوع الظاهر أيضاً، لأن الظاهر في الحياة الدنيا هو الطريق إلى الباطن. وبدون صلاحه وانقياده لا يصلح الباطن. هذا، بشرط أن يكون السالك حين الانقياد الظاهري متوجهاً بقلبه وملتفتاً إلى مقام ربّه؛ **﴿وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى﴾**.

- إن السالك يعلم بأن انقياد الباطن وتسليم القلب لله هو الأساس.

- ثم يعلم أن خضوع القلب يعني خضوع البدن وقواه.

- فإذا رأى أعضاء البدن الظاهرة غير خاضعة، يعلم باليقين أن القلب لم يخضع لمولاه الحق؛ وأنه لا زال تحت تصرف الشيطان وجنوده.

ولا شك بأن طريق النجاة والخلاص يبدأ بإخضاع الظاهر، وجعل مملكة البدن تابعة طائعة للمولى الحق.

وإذا وُفق لذلك، فإن الخضوع والخشوع والسكينة والإخبات ستسري إلى مرتبة الباطن والقلب.

وما يقال بأن هناك أحكاماً للظاهر وأخرى للباطن، مما نتصور معه إنفكاك المرتبتين وانفصال المسارين فهو ليس دقيقاً. وقد يكون من باب التأكيد على أهمية الباطن ولزوم تصفيته وتطهيره مثلما نقوم بتطهير الظاهر وإخضاعه. وقد يكون من الجهل بطبيعة الأحكام ودورها؛ ذلك لأنه ما من حكم في عالم الدنيا والإعتبار إلاّ ويكون متوجهاً إلى الأفعال الخارجية. وما دام الإنسان في الحياة الدنيا فإن وسيلة تكامله هي الحركة والسعي والعمل بالجوارح؛ وبالتالي فإن ظاهره هو الذي يرسم مصيره، وبدونه سيتوقف عروجه وينتهي تكامله!.. أجل، عندما يمنع الإنسان من القيام بالعمل المطلوب، ولا يوجد بديل عنه، ستكفيه نيّته. فإن الله ولسعة رحمته يثيبه على نية القيام بالعمل. ولكنه إذا كان قادراً ونوى ألف مرة ولم يقدم على ما نوى دون أي عذر، فإن نيته لن تكون ذات فائدة تذكر. بل لا تكون نيّة أصلاً.. وقوله صلوات الله عليه وآله "**إنما الأعمال بالنيات**"، يشير إلى روح الأعمال والعبادات الذي هو الإخلاص. والعمل كاشف عن الإخلاص، لا ينفصل عنه مع توفر شروطه بالطبع. وإن الله يثيب على النوايا دون الأعمال حينما يحول حائل أمام العبد والعمل. أما إذا تقاعس عنه وأهمله دون عذر فهو بمنزلة من لم ينوِ.

ولا شك بأن رحمة الله قد تشمل أمثال هـؤلاء فيدخلهم الله

جنته. ولهذا نتوجه إلى الله دوماً بأن يعاملنا بلطفه ولا يعاملنا بعدله. لكن الوصول إلى رحمة الله ولطفه وتجاوزه لا يتيسر مع التساهل والإستخفاف بأحكامه وتعاليمه. ومن كان رجاؤه متعلقاً برحمة الله الشاملة، فإن عمله واهتمامه يزداد كلما كبر رجاؤه.

الذين يظنون أن برنامج الإسلام ينقسم إلى ظاهر وباطن، ويفصلون بينهما في مجال العمل والتطبيق إنما يعبّرون عن جهلهم بحقيقة الدين والشريعة. بل أننا نقول لو فرضنا شخصاً لا يهتم بباطنه أبداً، ولكنه يلتزم بشكل دقيق بأحكام الظاهر التي تشمل كل شؤون حياته دون إهمال شيء منها، مع معرفته ووعيه التام بضرورة الإلتزام والتعبد المحض ووجوب الإمتثال للرب المتعال فإنه سيصل إلى أعلى درجات القرب والكمال بعد أن يفتح الله عليه سريعاً أبواب الخشوع والسكينة والعرفان: "**يا ابن آدم أعمل ما افترضت عليك تكن أعبد الناس**". الحديث القدسي. وقال تعالى: ﴿**واتقوا الله ويعلّمكم الله**﴾.

فالالتزام الواعي والانقياد اليقظ يؤدي إلى صلاح الباطن ويقظة القلب ونورانية العقل وانقياد الخيال، مثلما أن صلاح الباطن يظهر في أفعال الإنسان: ﴿**ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب**﴾. ولهذا، فإن غفلة القلب وجمود العين وقساوة الباطن هي علامات على وجود خلل في الظاهر. ومن أراد إصلاح باطنه فعليه أن يبدأ من ظاهره. وربَّ ذنب خفي على صاحبه وهو يكبله ويحرمه من حياة القلب وصفاء النفس.

فعلى هذا الأساس يمكن حصر البرنامج السلوكي بالظاهر والشريعة عند الحديث عن المسؤولية العملية والتطبيق. هذا، وإن كان الهمّ الأكبر والاهتمام القلبي ينبغي أن يتركّز في الحصول على صفاء الباطن وسلامته. فمن العجيب قول من يقول أننا نطيع الولي الفقيه ونقلّده في الظاهر وشؤونه، ولكننا نأخذ برامجنا السلوكية من فلان العارف وفلان المرشد! وعندما تسألهم: وبماذا يأمركم هذا المرشد؟ هل

سيكتفي بتوجيهكم إلى المعاني والعقائد وحثّكم على التفكر وإخلاص النية؟ أم أنه يطلب منكم أن تقوموا بالأعمال المختلفة؟ فإذا كان بتلك العقائد والأفكار مذكّراً، فإن هذه الأمور لا تعد برامج سلوكية، بل هي أسس وقواعد البرامج ومبانيها الضرورية. ومثل هذه الأمور لا تتطلب مرشدا خاصاً، لأنها تحصل من إعمال العقل وقواعده وهي ثابتة بالبرهان والوجدان ولا تحتاج إلى فتوى فقيه، أو غيره. وبالتالي فهي ليست مما لا يمكن الاستغناء فيها عن المرشد.. فهل هذا الكلام مجرد عذر لتبرير الابتعاد عن الولي الفقيه ومناهضته.. وإن لم يكن كذلك، فقد شاهدنا أمثال هؤلاء كيف بدأوا من النقطة المزعومة ثم تحولوا بعد مدة إلى تيارات مناهضةٍ أو مزايدةٍ على الولي الظاهر!

ولكي يتضح الأمر أكثر ونتفهم الدور المتوقع للمرشد الحقيقي وعلاقته بالسير والسلوك نعرض الحالات التالية:

حالة 1: ترويض عالم الخيال

من المعروف بين أهل السلوك أن ترويض الخيال والسيطرة عليه تعد من مهمات السير إلى الله. ذلك لأن بقاء طائر الخيال متفلّتاً ومتنقلاً بين أغصان الأفكار والوساوس، يحرم السالك من جني ثمار العبادة. حيث أن الوساوس والخيالات الفاسدة أو الباطلة تمنع من حضور القلب في الصلاة والذكر والعبادة. وبدون حضور القلب عند الله وحضور الله فيه، لا تتحقق العبادة بالقبول كما في الحديث: "**إن لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك**".

ولأجل معالجة هذه المشكلة الصعبة، ينصح أهل السلوك بأمرين؛ الأول: العمل بالضد، من خلال مطاردة هذا الخيال وارجاعه إلى حيث بدأ كلما حاول الانتقال من فكرة إلى فكرة ومن صورة إلى أخرى. فإذا داوم السالك على هذه الرياضة مدة، يحصل على نتائج مهمة.

والثاني: أن يسعى لاقتلاع تلك الشجرة التي هي محل طيران طائر الخيال. وهي شجرة حب الدنيا بأغصانها المتشعبة.

فالعمل الأول فكري ذهني؛ لكنه يعتمد على الثاني اعتماداً تاماً، لأنه ما دامت شجرة حب الدنيا في القلب راسخة، فإن السيطرة على الخيال ستكون أشبه بنقل الجبال برموش العين. ومن الواضح أن القضاء على حب الدنيا واقتلاع شجرتها من القلب لا يتحقق بدون السعي والعمل. ومع بقاء التعلقات الدنيوية تبقى المحفزات المستمرة للخيال وتستحيل السيطرة عليه.

فكيف ننتزع حب الدنيا من قلوبنا ونقتلع شجرتها الخبيثة؟؟ وكيف نقضي على ذخائر الخيالات الفاسدة التي تتكاثر مع عشق القلب ومراودته الدائمة لهذه الدنيا التي هي محل الكثرات؟

لا شك بأن أفضل الحلول وأقواها هو ما تقدمه لنا مدرسة الإسلام بشريعته المفصلة التي أنزلت لتنظيم علاقتنا بالدنيا من أجل شق الطريق نحو الحياة الحقيقية التي هي الحياة الآخرة.

يقول الامام الخميني قدس سره في آداب الصلاة: "وانّ الذين يظنّون أن لدعوة النبي الخاتم والرسول الهاشميّ صلى الله عليه وآله جهتين دنيوية وأخروية، ويحسبون هذا فخرا لصاحب الشريعة وكمالا لنبوّته، ليس لديهم معرفة بالدين، وهم عن مقصد النبوّة ودعوتها في تمام البعد.

ان الدعوة إلى الدنيا خارجة عن مقصد الانبياء العظام بالكلّية، ويكفي في الدعوة إلى الدنيا حسّ الشهوة والغضب والشيطان الباطن والظاهر دون حاجة إلى بعث الرسل. إن إدارة الشهوة والغضب لا تحتاج إلى القرآن والنبي، وإنما بعث الانبياء لينهوا الناس عن الدنيا ولتقييد إطلاق الشهوة والغضب وتحديد موارد المنافع. والغافل يظن أنهم يدعون إلى الدنيا. ان الانبياء يقولون إن المال لا يجوز تحصيله كيفما كان، ونار الشهوة لا يجوز إطفاؤها بأيّ نحو بل لا بدّ من

إطفائها من طريق النكاح وتحصيل المال بواسطة التجارة والصناعة والزراعة. مع أن في أصل الشهوة والغضب إطلاقا. فالانبياء يقفون بوجه إطلاقهما، لا إنهم يدعون إلى الدنيا. فروح الدعوة إلى التجارة هو التقييد والنهي عن التكسّب الباطل، وروح الدعوة إلى النكاح هي تحديد الطبيعة والنهي عن الفجور وعن إطلاق قوة الشهوة".

الطريق الوحيد للتخلص من حب الدنيا هو في اتباع شريعة الله التي تنظم علاقتنا بالدنيا وتضع لها حدودا من شأنها أن تؤدي بالنهاية إلى اقتلاع تلك الشجرة السيئة التي هي أصل كل الخيالات المشتتة والمانعة من لذة العبادة ونورانية المناجاة. وإن مجرد التفكر في حقارة الدنيا وضعتها وزوالها وفنائها لا يكفي لتحقق هذا الأمر وإن كان الاعتقاد بهذا مهما ولازما؛ فلنا في الدنيا حاجات اضطرارية وعلينا تجاهها مسؤوليات شرعية. ولو كان مجرد الاعراض عنها وتركها كافياً لربما أمكن أن يقال أن مجرد التفكر كاف. هذا، مع أن الترك والإعراض يعد من شؤون الفعل وعالم الظاهر.

حالة 2: علاج الرياء

من المعروف أيضاً أن الرياء عبارة عن طلب المنزلة في قلوب الناس. وفي التعريف الدقيق أن المرائي هو الذي يستعمل العادة أو العمل الصالح لأجل كسب المنزلة في القلوب أو التأثير عليها. ومنشؤه الداء الأكبر وهو الشرك، الذي هو أصل جميع الأمراض القلبية. والرياء محبط للعمل لأن الله تعالى لا يقبل إلا ما كان له خالصاً. فالتعبير عن الرياء بأنه مرض قلبي من باب المسامحة. لأن الرياء إذا لم يظهر في الأعمال يوشك أن يزول بالكامل. بل الأحرى أن نقول أنه ليس برياء وإن كان صاحبه يعتقد بتأثير أعماله في القلوب والنفوس. أجل إن مثل هذا الاعتقاد شرك خفي، بل هو عند أهل الله شرك جلي. لكن مثل هذا الشرك ما لم يترجم في حياة الانسان بأي فعل، فسرعان ما يزول، ليحل محله التوحيد الخالص.

وفي العلاج: فإن أفضل ما ينصح به هو أن على السالك المجاهد حين التفاته إلى انبعاث داعي الرياء من قلبه إلى جوارحه أن ينظر إلى العمل الذي يقوم به أو القول الذي يريد أن ينطق به، ويخضعه لميزان الشريعة. فإذا كنت تصلي، وأثناء صلاتك جاء من يهمك أمره، وشعرت برغبة شديدة في أن تخضع وتخشع في صلاتك أكثر من السابق؛ وعلمت أن هذا الشعور لم يكن إلا بسبب مجيئه، فمن الواضح أن هذا الشعور يحكي عن وجود الشرك في القلب! وفي هذه الحال كيف لك أن تخلص من هذه الورطة؟ أتقطع الصلاة وهو غير جائز، أم ماذا؟.

فالحل في هذا العمل وأمثاله هو أن تقول لنفسك: أليس الخضوع في الصلاة مطلوباً من جانب الله. ولما كان كذلك، فالتزم به مهما شعرت. والمؤمل أنك إذا واظبت على هذا النظر مدة من الزمن، والتزمت بهذا المعيار كلما حدثتك نفسك بفعل شيء لأجل جلب قلوب العباد، أن يزول باعث الرياء من قلبك بالكامل. ذلك لأن من جعل شريعة الحق سبحانه ميزان أعماله فقد خضع لله بالإجمال، وسوف يحصل له الخضوع التفصيلي والإخلاص الحقيقي لاحقاً.

حالة 3: المراقبة

المراقبة من المسائل التي يؤكد عليها أهل السلوك كثيراً. ويعتبرونها شرطا أساسياً في السير إلى الله. وقد لا نجد سالكاً حقيقياً ليس لديه برنامجا دقيقاً للمراقبة؛ فهي بمنزلة المصباح الذي يضيء طريقه المعنوي. وبدونه يصبح السالك متخبطاً لا يعرف سبيله. ونظراً إلى ضرورة المراقبة، يبتكر البعض بحكم تجاربهم برامج مفصلة لكيفية تطبيقها، مما لا نجد له أثراً في الفتاوى العملية والأحكام الشرعية.. فلأننا نحتاج إلى المراقبة، يقول البعض، ولأن المراقبة شرط أساسي للسير المعنوي، نحن مضطرون لأخذ برامجها من غير الولي الفقيه!. أليس هذا دليلا على ضرورة الفصل بين الظاهر والباطن؟!

ولنا في المقابل أن نسأل هؤلاء عن طبيعة هذه البرامج وأساليبها. لأن قسما مهماً من المراقبة يرتبط بشكل أساسي بالجانب الذهني والقلبي. وهو أمر يعود إلى الأصول والمبادئ التي تنبع من الرؤية الكونية التي يحملها الانسان ويصل إليها بالوجدان والبرهان. وإذا كان من دور في هذا المجال للمربي فلن يكون من جهة أنه مربٍّ أو مرشد بل من جهة ما يقدمه من توضيح وشرح لتلك الأصول. سواء حصل بأسلوب الوعظ أو غيره. فالمواعظ التي تحث على المراقبة تريد أن تجعلنا متيقظين ومتوجهين إلى خالقنا الذي ينبغي أن يحضر في كل عمل نقوم به. وليس هذا بالبرنامج العملي. بل هو روح البرامج. ولا يحتاج بالضرورة إلى مرشد خاص يتحلى بالصفات الكمالية والعرفانية. فإصرارنا على التقوى والإلتزام بالأحكام يجعلنا متنبهين دوما إلى أفعالنا ونحن نقيسها بالشرع الأنور. ومن شأن هذا الأمر أن يولد وعياً راسخاً بما وراء هذه الأفعال، حيث ندرك بعد المداومة على هذه المراقبة، أن جميع أفعالنا تصدر من محل واحد. وعلى أثر الاهتمام بالتقوى ومراتبها يزداد هذا الإدراك قوة، حتى يصل إلى مرحلة لا يرى سوى فاعل واحد وهو الله ويدرك حقيقة ﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾، وهو بداية مراتب التوحيد الحقيقي والإخلاص التام.

كانت هذه بعض الحالات التي يشار فيها إلى ضرورة وجود المربي والأخذ عنه؛ وقد اتضح أن المرشد بالمعنى الخاص الذي يقرّ له بالطاعة والتسليم ليس ضرورياً في مقابل الذي يعيّن التكليف. وإن كان الإهتداء بكل مؤمن صالح من أوجب واجبات العقل والوجدان.

وما نريد أن نؤكد عليه هنا أن الاسترشاد بكل ذي لب وحال والاستفاضة من أهل المعنى من الأمور الاساسية التي تحكي عن مدى الحرص على السير المعنوي والتكامل الحقيقي. لكن لا ينبغي أن نعطي لأمثال هؤلاء من الموقعية والدور ما يفوق حجمهم، لأن في هذا الأمر ضلالا مبيناً.

إن وجود الفقيه العارف بأحكام الإسلام المتصدي لشؤون الأمة وقضاياها من الضروريات المؤكّدة في دين الاسلام. وهذا الفقيه إما أن يكون معصوماً كالإمام‏(ع) أو يرجع إلى المعصوم كالفقهاء الجامعين للشرائط في عصر غيبة الإمام‏(عج). وبناء على شمولية التصدي تصبح طاعته واجبة على جميع المكلفين لأنه يمثل أحكام الله الشاملة لكل قضايا الحياة. فولاية الفقيه هي ولاية الشرع والفقاهة. وهذه هي الحاكمية الملزمة للجميع.

ففي العمل ليس المطلوب سوى الإلتزام ببرنامج التقوى الذي تحدد تفاصيله شريعة الإسلام؛ أما التوجهات القلبية والذهنية فإنها عبارة عن المقدمات والنتائج والثمار. فالتعبير عن هذه الأمور الباطنية بالبرامج العملية يكون من باب المسامحة أيضاً.

أجل، إن ما نناله من الصالحين الملتزمين بدين الله والأولياء الأتقياء المتعبدين بالشرع الأنور هو هبوب نسائم أرواحهم علينا، وشمول لطائف أسرارهم لقلوبنا، حيث نتزود من روحانيتهم الطيبة ونلتمس منهم دعاءاً. وكذلك يذكرنا هؤلاء بحقائق الدين، وهذا نوع من الرجوع إلى أهل الخبرة والمعلمين الذين يأمرنا الولي الفقيه بالرجوع إليهم ويحثنا على ذلك دائماً، ويؤسس المعاهد والمدارس لأجلها. وولاية الفقيه لا تعني أنه سيكون المعلم الأوحد والمصدر الوحيد لتعاليم الإسلام.

يوجد العديد من أصحاب المراتب المعنوية الذين يمكن أن نستفيد منهم علماً ومن ذواتهم روحانية. ولكن عندما يصل الأمر إلى مرحلة العمل، لا يجوز أن نأخذ الحكم أو الأمر إلاّ من مصدره الشرعي الذي عينه الله والأئمة وهو في عصرنا الحالي ممثل بالولي الفقيه.

التسابق في طريق العبودية

معرفة الدور الخاص

إن هذه الدنيا دار البلاء والامتحان، دار تظهر الأنفس فيها في صورة الأعمال والمواقف. ولكن هذا الظهور والتجلي قد يبقى بالنسبة للكثيرين خفياً رغم وضوحه؛ فلا تنكشف لهم الحقائق ولا يعرّفهم بحقيقة الباطن. ولا ينبغي أن نحكم على باطن أحد من خلال عمله إلا إذا كان الحكم مما أجازه الشرع وعيّن حدوده. ولطالما خفي أمر المنافقين ـ الذين هم أصحاب القلوب المريضة ـ على أكثر المسلمين؛ ولم يكن يعرفهم بحقيقتهم سوى خلّص خاصة الأصحاب.

ويقال أن التوفيق الذي يناله أحدنا للقيام ببعض الأعمال المهمة أو البطولية لا يعني بالضرورة رسوخ الإيمان في نفسه؛ فالشواهد التاريخية وتجارب الحياة اليومية تبيّن هذا الأمر. هذا، ولو أخلص الإنسان لمعرفة باطنه وطلب ذلك بصدق فسوف يطلع عليه ولن تخفى عليه منه خافية، وعندما ننقلب إلى ربنا، فإنه تعالى يظهر لكل منا سريرته وما أخفاه في نفسه. من كان يسعى لمعرفتها ومن لم يكن. هناك: **﴿يوم تبلى السرائر﴾**.

وسر ذلك أن عالم الدنيا بقنواته وأدواته الإدراكية والمعرفية لا يتسع لظهور البواطن ولا تنسجم قوانينه ولا تتسع حدوده لظهور الحقائق كما هي. وفي الأحاديث الكثيرة أشير إلى أن نور الإنسان الكامل، بل المؤمن الصادق، إذا أشرق على هذا العالم يحرقه من شدة نوره. وكذلك، فإن بشاعة الكافر، بل وأعمال الفاسق تكون من السوء بدرجة لو ظهرت في الدنيا لجعلت الحياة فيها لا تطاق.

فإذا انتقل الفاسد إلى العالم الآخر، تظهر حقيقته بصورة تحسُن عندها صور القردة والخنازير مع بشاعتها هنا. والأحاديث التي تدل على هذا المعنى كثيرة؛ منها "**أن أهل النار يتأذون من ريح العالم التارك لعلمه**". فإذا كان أهل النار مع ما هم فيه من النتن يتأذون من رائحة العالم التارك لعلمه؛ فكيف بالدنيا التي لا تقدر على تحمّل جزء بسيط ونذر يسير من جهنم!

إن أهل الله وسالكو طريق العبودية يترجمون ما في نفوسهم بالعمل؛ وأعمالهم تظهر بعض ما خفي من باطنهم من إدراك مقام ربّهم. ومن المؤمنين من يتخذ العمل الصالح مركباً للوصول إلى مقام العبودية والفناء في إرادة المعبود. فبالعمل يسعون لعمارة الباطن وتطهير السر، والله سبحانه لا يتركهم هملاً بل يمتحنهم بالمواقف الكثيرة، ليظهر لهم ما في نفوسهم ويعرفوا حقيقتها، وليستفيدوا من بلائه في الرجوع إليه.

أما الكمّل من أولياء الله فإنهم يمتازون بميزة أخرى غير النجاح والثبات في البلاء. وهي إنهم لا ينتظرون البلاء لينزل بهم حتى يستفيدوا منه تلك الإستفادة! فمقامهم يدل على أنهم نجحوا في الامتحانات ووصلوا إلى المطلوب، وصارت نفوسهم متحققة بالعبودية التامة والتسليم المطلق. لهذا، لا تكون الأعمال العبادية من أمثالهم طريقاً أو وسيلة للوصول والانتقال من مقام إلى مقام. وإنما هي تعبير عن الشكر، وتجل لعبوديتهم الخالصة لله. وعن هذه الحقيقة تحكي قصة رسول الله ﷺ عندما سئل عن سبب إصراره على تلك العبادة الطويلة بعد أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر حيث قال: "**أفلا أكون عبداً شكوراً**".. "وسئل رسول الله ﷺ: بأي شيء سبقت الأنبياء وفضلت عليهم وأنت بُعثت آخرهم وخاتمهم؟

قال: "**إني كنت أول من أقر بربي جل جلاله، وأول من أجاب حيث أخذ الله ميثاق النبيين وأشهدهم على أنفسهم ﴿ألست بربكم قالوا بلى﴾، فكنت أول نبي قال بلى، فسبقتهم إلى الإقرار بالله عزّ وجلّ**".

ويعلم من هذا الحديث وغيره من الآيات التي ذكر فيها التفضيل كقوله تعالى: **﴿تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض﴾**. وقوله عز من قائل: **﴿هم درجات عند الله﴾**.

هؤلاء الأصفياء درجات ومراتب عند الله، وما ادراك ما هم! والأولياء والمؤمنون درجات. فمنهم المؤمن الكامل ومنهم المتوسط وبعضهم الضعيف الايمان. فهل يعود هذا التفاوت والتفاضل بينهم إلى درجة معرفتهم بالله؟ إم إلى كثرة أعمالهم وقلتها؟ أم إلى نوعية تلك الأعمال من ناحية النية والإخلاص؟!

وإذا عرفنا سرّ الوصول وحقيقة السير التكاملي الذي يختصر في العبودية، نعرف أيضاً سبب التفاوت بين العباد. ففي العبودية يشترك أهل الله والسالكون، وفي العبودية يتفاضلون ويتفاوتون. ودرجاتهم

ترجع إلى درجات العبودية ومستوياتها في أنفسهم. ولأجل فهم هذا التفاوت نحتاج إلى فهم المعنى الحقيقي للعبودية. يقول الإمام الخميني قدس سره:

"وليعلم أن العبودية المطلقة من أعلى مراتب الكمال وأرفع مقامات الإنسانية وليس لأحد فيها نصيب بالأصالة سوى الأكمل من خلق الله محمد صلى الله عليه وآله، ولأولياء الله الكمّل بالتبعية. وأما بقية العباد فهم في طريق العبادة عُرج وعبادتهم وعبوديّتهم عليلة. ولا يُنال المعراج الحقيقي المطلق إلا بقدم العبودية ولهذا قال الله تعالى: ﴿**سبحان الذي أسرى بعبده**﴾ فقد أسرى الله سبحانه بتلك الذات المقدسة إلى معراج القرب والوصول بقدم العبودية والجذبة الربوبية".

(معراج السالكين، الفصل الأول).

فهناك عبودية مقيدة ببعض الأهواء وإن كانت خفية، وهناك عبودية مطلقة ليس فيها أية بقية من النفس والأنانية، حيث يكون العبد فيها مستعداً للقيام بأي شيء يأمره الله به، مهما تطلب من التضحيات. ولعل السرّ في تقدم الرسول صلى الله عليه وآله على سائر الخلق هو ما أشارت إليه بعض الروايات التي تذكر ما حدث في عالم الحقائق عندما عرض على جميع الأنبياء عليهم السلام مثل تلك التضحية التي عرضت على رسول الله في كربلاء.

ففيما روى المولى الفقيه الكاشاني في التذكرة نقلا عن مولانا الجواد عليه السلام في قوله تعالى إنا عرضنا الأمانة.. أنه عرضت الأمانة ثلاث مرات..وفي الثالثة نودوا بنداء عظيم: من يحملها ومن يشتري ومن يقبل.. حتى يأتي يوم القيامة وبيده لواء الشفاعة للعصاة.. فلما أجاب الحسين عليه السلام قال أنا المشتري أنا افدي بنفسي ومالي وولدي وعيالي..إلى أن ذكر أن الله تعالى أخذ من الحسين عليه السلام العهد والميثاق وأعطى الصحيفة للنبي صلى الله عليه وآله، فلما رآها تغير

وجهه الشريف حتى ظهر أثر الدم من وجهه وبكى بكاءا شديدا وقال رضيت بما يرضى الله لنا واصبر على هذه المصيبة..

ثم بعد أن أمضاها النبي وختمها بخاتمه أرسلها إلى علي عليه السلام .. فلما رآها علي بكى ..ثم قال رضيت بما يرضي الله ورسوله ووصيه. وأعطى الصحيفة إلى الزهراء عليها السلام فأخذتها فلما رأتها واطلعت على ما فيها بكت بكاءا شديدا.. ثم قالت رضيت إلى آخر الرواية.

ونحن نقلنا من الرواية مع طولها ما يناسب المقال.

إن نوعية العمل الممتزج بالتضحية والفداء تدل في الحقيقة على مرتبة الإخلاص وتكشف عن خلوص النية. وإن كان تفصيل هذا الميزان من الأمور التي تخفى على الكثيرين. وتساؤلنا عن سبب أفضلية الرسول الخاتم ﷺ على سائر الرسل تجيب عنه مثل هذه الروايات. وتمسكنا ببعض أحاديث الطينة من أجل تفسير الاختلاف في القابليات ليس في محله، ولا يشفي العليل.

إن التفاوت في النوايا التي هي باطن الأعمال لا بد وأن يظهر يوماً ما في هذه الدنيا. (ليس بالضرورة لي ولك). ولو كانت لنا قدرة التحقيق وكشفت لنا وقائع الأيام لعرفنا أن وراء أي التفاوت بين الأولياء والأنبياء نوعاً من الأعمال التي قام بها من كان أعلى رتبة حينما أحجم الأدنى. وإن كانوا جميعا في جوار القرب متنعمين.

ولما علمنا ذلك، فهمنا شيئا من الحديث المروي عن رسول الله ﷺ الذي يشير إلى سبب عدم وصول الناس إلى مقامه حيث يقول: "**لولا تكثير في كلامكم وتمريج في قلوبكم لرأيتم ما أرى ولسمعتم ما أسمع**". وفي وصية رسول الله ﷺ لأمير المؤمنين ؑ:

"**يا علي! إذا تقرّب الناس إلى الله بأنواع البر فتقرّب إليه بالعقل تسبقهم**".

وإذا كنا مستغرقين في بحث الطينة والنوايا الحسنة ودرجاتها فإن أهل الله العارفين بمقام ربّهم يبحثون عن تلك الخدمة التي توصلهم إليه. وقد نقل عن حفيد رسول الله ﷺ دعاءه: **إلهي ترددي في الآثار يوجب بعد المزار فاجمعني عليك بخدمة توصلني إليك**" فيا رب ما هي تلك الخدمة التي كان الشهيد العطشان يطلب التوفيق لها؟ أهي ذبح الرضيع، أم انكسار الظهر بالعباس؟ أم سبي زينب؟

فهذه أسرار خواص أولياء الله.. والأفضل أن ندع الكلام ونمضي..

عزيزي، عندما تود أن تفتح كتاب محاسبة النفس، وتريد أن تعرف سر قصورك عن بلوغ مراتب الأولياء ودرجات المؤمنين من حولك.. تذكر جيداً أنك قد أعطيت الفرصة ذات يوم لتقوم بعمل كرهته نفسك وأنف منه هواك وآثرت الراحة والسهولة عليه. وسرعان ما ستعرفه بالدقة في الزمان والمكان والنوع. أما إذا كنت ممن آثر الرئاسة والجاه والدنيا على العمل الصالح، فلا أحسب أنك ستهتدي لذلك أبدا!

إن طلب الشهرة والمنزلة من وراء الأعمال مهما كانت، لا تزيدنا سوى عمى عن الحقيقة. وعندما تكشف الحجب عن البصائر تود تلك النفوس لو أن بينها وبين أعمالها أمدا بعيدا.

وليُعلم أن كل من وفقه الله تعالى ليقوم بالمحموز الشديد من الأعمال ينال توفيقين إضافيين أو كفلين من رحمته:

الأول التوفيق للأعلى والأشد الذي هو في حقيقته سبب إضافي للمزيد من القرب.

الثاني التوفيق للمزيد من قوة البصيرة والإطلاع على الحقائق.

فمثل هؤلاء تتدافعهم الأبواب إلى باب السلامة ودار الإقامة. ويبرق لهم لامع كثير البرق ليريهم الطريق:

قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: قد برق له لامع كثير البرق وتدافعته....

إن لكل واحد منا خدمة من نوع خاص قد خلق لأجلها. وجميع الأعمال والخدمات تكون مقدمة لها. فلو قام بالخدمة الأولى كما ينبغي يفتح له باب التوفيق للخدمة الثانية وهكذا حتى يصل إلى معرفة تلك الخدمة الخاصة به والتي تكون في الظاهر كذلك وفي الواقع والمضمون تضحية من نوع شبيه بتضحية رسول الله ’. وحيث أننا نعلم مسبقاً أننا لن نقدر عليها لأسباب نعرف أكثرها، فإننا لن نصل إلى ما وصل إليه هذا الانسان العظيم. ولكن لا ينبغي أن نيأس.. يقول الإمام الخميني قدس سره:

"..ولكن أول شيء هو أن نخرج من قلوبنا اليأس من روح الله والقنوط من رحمة الله اللذين هما من الجنود الكبرى لإبليس ومن إلقاءات شياطين الجن والإنس ولا نتوهم أن لباس هذه المقامات قد خيط على قامة أشخاص خاصين وأن أيدي آمالنا عنها قاصرة وأرجل سير البشر عن ركوبها مترجلة فلا نخطو أصلا ونبقى على البرودة والوهن مخلدين في أرض الطبيعة. لا فليس الأمر على ما نتوهم. نعم أنا أيضا أقول أن المقام الخاص لكمل أهل الله لا يتيسر لأحد، ولكن للمقامات المعنوية والمعارف الإلهية مدارج غير متناهية ولها مراتب كثيرة يتيسر للنوع أكثرها فيما إذا تركوا البرودة والتهاون الذي في أنفسهم.." معراج السالكين ص 137.

ويا له من توفيق أن يكشف لنا طريق الخدمات المتلاحقة التي تتصل بخدمة الرسول الأعظم وأهل بيته عليهم الصلاة والسلام فهم قد جاؤوا إلى هذا العالم من أجل أن يدلونا على طريق العبودية ويأخذوا بأيدينا إلى المعبود الأوحد وبشرونا بلقائهم ومجاورتهم عند مليك مقتدر. وليست حقيقة الدين من جهة، سوى هذا الطريق الذي سلكه هؤلاء العظماء عليهم السلام.

فإذا كنّا من المحجوبين عن إدراك أي من هذه الحقائق فلنتوسل بذواتهم المقدسة التي لا نعلم عن حقيقة قربها من الله سوى الإجمال وأنهم أقرب الخلق وأخصّهم إليه سبحانه، وأنهم شجرة طوبى وأصحاب

مقام قاب قوسين أو أدنى، بهم عرف الله وبهم عُبد، وبحبّهم وقربهم نرجو نجاة من الله.. فمثل هذه التوسلات مع البكاء والتضرع له أثر كبير في كشف الحجاب عن البصيرة ومعرفة الخدمة الخاصة والتكليف الخاص بكل واحد منا.

وإذا كنّا من أهل العقل والوعي بالزمان ومقتضياته وفهمنا حقيقة ما يجري على هذه الأرض على ضوء الدور الكبير لإمام الزمان عجل الله فرجه الذي هو طريق الهداية أمكننا بتوفيق من الله أن نضع أقدامنا على هذا الطريق. وإذا أسعدتنا الرحمة الرحيمية للحق بفضل تلك العنايات الخاصة والنظرة الرحيمة لربما عرفنا ما ينبغي أن نقوم به حتى يرضى عنا ذلك القلب المقدس وننال شرف الخدمة.

إن أهل العقل يعلمون أن التكليف يبدأ من القدرة، لكنه يمر بالاستعداد. لهذا فإنهم لا يكتفون بتحديد تكليفهم من خلال وسع الطاقة الحالية، بل يعتبرون أن تفعيل طاقاتهم الكامنة مسؤولية شرعية أيضاً. فهم أهل العمل والإعداد. يرون العمل مقدمة للمزيد من الطاقة والإمكانية. ويعدّون العلم والمعرفة باباً من أبواب البصيرة، ويتمسكون بالتضرع والدعاء من أجل نورانية الباطن والصفاء.

هؤلاء علموا أن فهم الزمان ومعرفة المسؤوليات موقوفان على الإتصال بالولايه وأهدافها وتطلعاتها. ويرون الولي الفقيه العارف بالزمان والمتصدي لشؤون الأمة والإسلام مؤهلا ليحدد لهم أولويات المسير ومتطلبات الخدمة. ولهذا لا يقدمون عليه أحداً. ولا يعتبرون لغيره مقاماً في السير المعنوي إلا إذا كان به متصلاً ومنه نابعاً.

إن الكلام عن مراتب النفس السبعة هو من الكشوفات العرفانية المستلهمة من النصوص الشريفة كقوله تعالى: (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن..) حيث يستفيد أهل الله منها وجود مراتب سبع في موجود كان بدؤه من تراب، أي من الأرض. وأيضاً الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله: "إن أمرنا هو الحق(1)، وحق الحق وهو الظاهر(2)، وباطن الظاهر(3)، وباطن الباطن وهو السر(4)، وسر السر(5)، وسر المستسر(6)، وسر مقنع بالسر(7)، (البصائر). على أن القارئ ليس ملزماً بهذا التقسيم، وإنما معرفة أن النفس هي في وحدتها كل القوى، وليس فيها تركيب إعتباري أو صناعي أو ذهني. وليس هذا الاكتشاف إلا فتحاً مهماً في مجال معرفة النفس التي هي باب معرفة الله تعالى.

إشكال وحل

نطالع في سيرة بعض الأولياء الكاملين أنهم كانوا يقومون بأعمال عادية وربما دنيوية وأحياناً لفترات طويلة. كما كان حال موسى الكليم

عليه السلام مع شعيب، وعلي عليه السلام في حفر الآبار والعمل عند اليهود في الزراعة، ألا يعد هذا الأمر دليلاً على أن المسألة ليست في نوعية العمل؟

والجواب المتناسب مع هذه الأوراق هو أنهم عليهم السلام من جهة أرادوا أن يبينوا للناس أن العمل الشريف مهما كان هو أفضل بكثير من البطالة والتواكل. ومن جهة ثانية لم تكن مثل هذه الأعمال سوى في مقطع من حياتهم له حكاية بل ألف حكاية. فإن أمير المؤمنين عليه السلام ما كان ليعمل في الزراعة مع شرفها وأهميتها لولا التضييق والحصار الذي فرض عليه. وهو عليه السلام بمجرد أن رأى حضور الحجة بوجود الناصر تصدى لمسؤولية الحكم وقيادة المجتمع الإسلامي وإكمال ما بدأه رسول الله في إنقاذ البشرية.

وفي الوقت الذي كان الكثير من الشباب يبحثون عن الوظيفة لكسب المعاش وتأمين العيش كان شهداء المقاومة الإسلامية ـ ومنذ أن دلّهم إمامهم الخميني على طريق الشهادة ـ يترنّمون بالدعاء وعيونهم دمعى: "فافتح لي طريقاً إني آت إليك.." وما كان أسرع الملتقى.

أسئلة وشبهات حول العبودية

لقد اتضح من البيانات السابقة أن العبودية هي الطريق الوحيد للوصول إلى الله، وأن العبودية لا تتحقق إلا بأداء التكليف الشرعي وأن العبودية درجات بتبع هذا التكليف. وعلمنا أيضاً ما هي القناة الصافية لمعرفة تكليفنا في عصر الغيبة.

ورغم هذا الوضوح، قد تبرز إشكالات من هنا أو أسئلة من هناك تحتاج إلى أجوبة واضحة. وبعض هذه الإشكالات قد يضعف هذه الأصول في عيوننا، ويصعّب علينا الالتزام.

ومن جملة الشبهات الرائجة اعتبار المستحبات طريق الوصول

إلى المقامات العليا. وشبهة الوصول إلى الكرامات مع مخالفة التكليف الشرعي، وغيرها. وسيتضح لنا أن جميع هذه الشبهات تحلّ من خلال التمسك بالأصول الأولية والتأكيد عليها.

- الشبهة الأولى: المستحبات هي النهج!

نجد لهذه الشبهة شيوعاً في أوساطنا بصورتيها: النظرية والعملية. فيقال أنك إذا أردت النجاة من النار فالتزم بالواجبات، وإذا أردت نيل الكرامات وتحصيل المقامات فعليك بالمستحبات!

ويتفرّع من هذا الاعتقاد جملة من البرامج السلوكية والعملية، تؤكد بشكل كبير على مستحبات كثيرة، وتعطي لها وقتاً كبيراً.

لعل منشأ هذه الشبهة هو أن المرتكز في الأذهان من حالات العارفين وسيرتهم اشتهارهم بكثرة القيام بالمستحبات. وعندما نسمع عن هؤلاء، أو نقرأ من سيرتهم شيئاً، نلاحظ التركيز على قيام الليل وكثرة الذكر والأعمال المستحبة منهم.

وإذا كان لأحد هؤلاء دور جهادي في تحدي الطواغيت ومواجهة خططهم مثلاً، فإنه يذكر تحت عنوان الحياة السياسية. فالأخلاق والعرفان عند هؤلاء في الصلاة والذكر، والسياسة هي الجهاد والعمل الاجتماعي.

إن هذا الفصل الذي قام به باحثون ومؤلفون وتبعهم فيه آخرون، يحكي عن عدم الالتفات إلى حقيقة العرفان والتقوى والأخلاق. لأن قمة العرفان بالله تتجلى في العمل الجهادي والسياسي ـ الاجتماعي. وإلى هذا المعنى يشير الإمام الخميني في وصاياه العرفانية:

"لقد سقط موسى الكليم‎ﷺ بحال الصعق نتيجة تجلي الحق على قلبه وأفاق بعناية إلهية خاصة ثم أمر بتحمل أمر ما. وكذلك خاتم النبيين أمر بعد بلوغه القمة من مرتبة الإنسانية وما لا تبلغه الأوهام من

مظهرية الإسم الجامع الأعظم بهداية الناس بعد أن خاطبه الحق تعالى: **﴿يا أيها المدثر قم فأنذر﴾**.

ونحن هنا نتساءل ما هو الأمر الصادر إلى موسى الكليم؟

إن هذا النبي العظيم كلّم ربّه بعد أن عبر كل تلك الفتن وشاهد كل تلك النعم، كما حكى القرآن عنه بقوله: **﴿ربِّ بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾**. فأعلن عن استعداده التام لمواجهة المجرمين في كل العالم وبتبع ذلك العزم أمر بتحمل تلك المسؤولية الاجتماعية الكبرى وهي تحرير شعب بأسره من الرق والاستعباد.

وقد شوَّهت بعض كتب المناقب التي تناولت حياة أئمتنا الأطهار عن غير عمد صورة الشخصية المتكاملة لهؤلاء العظماء الذين هم قدوة البشر، فنجدها تركز على عباداتهم الفردية الخاصة أكثر من أعمالهم الجهادية والسياسية حتى كأن البعض منهم عليهم السلام لم يكن له أي دور اجتماعي يذكر مما كان يتركنا حيارى أمام عمليات الإغتيال التي تعرضوا لها من قبل حكام الجور.

وجاءت قصص العارفين مشحونة بهذا الجو الذي تخيل القارئ معه أنهم لا همَّ لهم سوى الأذكار وأداء المستحبات المحدودة. وكانت النتيجة ضياع الأولويات واختفاء النهج الأصل.

يقول الإمام الخميني في إحدى خطبه:

"إن أعلى المراتب العرفانية كانت متحققة عند الإمام علي. ولم يكن لمثل تلك الحركات الصوفية وجود في سلوكه.. لقد تخيلوا أن العارف يجب أن يعتزل كل شيء، ويتنحى جانباً ويتلو ذكراً ويتغنّى حيناً، ثم يفتح دكاناً!!

إن أمير المؤمنين وفي نفس الوقت الذي كان أعرف الخلق بعد رسول الله بهذه الأمة، وأعرف خلق الله بالحق تعالى، مع ذلك فإنه

لم يتنحَ جانباً ولم يفعل شيئاً عبثاً. لم يكن له في أي وقت حلقة ذكر.. لقد كان مشغولاً بأعماله". [رشحات ملكوتية].

إن الإسلام لم يكتف بتقديم مجموعة من الأوامر والنواهي، بل قدم قبل أي شيء نهجاً واضحاً يرسم نظام العلاقات بين جميع الأحكام بطريقة يعتبر الإخلال بها ضرباً للنهج بأسره.

وإن العبودية الحقة تستلزم ـ بمعناها الواقعي ـ أن يعتقد العبد أن مولاه هو الذي يرتب الأولويات له، كما أن لها معاني أعمق ترتبط بأحداث ووقائع الحياة.. فعلى سبيل المثال قول أمير المؤمنين: "**إن النوافل إذا أضرت بالفرائض بطلت**" الذي يشير إلى أحد أبعاد هذا النظام.

فمجرد الالتزام بالأحكام ليس هو المطلوب النهائي، بل المطلوب حصول روح ذلك الالتزام وهو الامتثال والانقياد لربوبية الحق المتعال. أن يقوم الإنسان برسم أولويات الالتزام والعبادة من نفسه ويمارس ذلك في حياته، يعني إنه لم يرتبط بروح الشريعة التي أرادت له أن يترك عبادة النفس واتباعِ الهوى. ولهذا اعتبرت الشريعة أن الذي يزيد على صلاة الصبح، مثلاً، ركعة واحدة عمداً فهو صاحب بدعة وصلاته باطلة. هذا، بالرغم من أنه أضاف شيئاً جميلاً!

وبالالتفات إلى ملاكات الأحكام، يُعلم أن وجوب القيام بأمر ما يدل على شدة اهتمام المولى سبحانه به، وأن استحباب شيء يدل على درجة أقل من اهتمامه. فإذا كان السالك ملاحظاً لآداب العبودية، هل يصح منه أن يقدم ما كان أقل أهمية على الأكثر. إن هذا، ولا شك، يدل على الجهل أو التمرّد.

وقد ذكر في الأحاديث التي تلوناها عليك سابقاً أن العبد لا يمكن أن يتقرّب إلى الله بشيء أعظم من الفرائض، وأنه لو أدى ما افترض الله عليه فسيصل إلى أعلى درجات العبادة. ولهذا يقال أن أعلى التوفيقات الإلهية للعبد هي عندما يجعل الله تعالى كل أوقاته أداءاً للواجب،

فتكون بعض الأمور التي تعد مستحبة لغيره واجبة عليه. وبعدها لا يوجد توفيق أعلى.

وقد رأينا في حياتنا رجالا صار نومهم واجباً وأكلهم واجباً ولقاؤهم بعيالهم واجباً. إن أمثال هؤلاء قد غاصوا في الحياة الجهادية إلى درجة كأنهم نسوا النوم والراحة والجسد. فصار لزاماً عليهم أن يعطوا نصيباً من الدنيا لأنفسهم للإستمرار والتوازن!

ومن اللازم أن نلفت النظر إلى مسألة دقيقة. وهي أن هناك فرقاً بين من يوفق لأداء المستحبات، ومن يوفق للوصول إلى مقام المستحبات. لأن القيام بالمستحبات قد لا يكون علامة خير أو هدى. لكن من أدى ما عليه وانتقل من مقام الواجب إلى مقام المستحبات فهو صاحب التوفيق.

وليس كل من يجتنب المحرّمات تقيّاً بالملكة. فقد يكون ذلك بسبب خوف طارئ أو نزاهة نفس أو أجواء مساعدة. لهذا، فالمهم هو أن يصبح هذا الاجتناب ملكة راسخة في النفس. فيكون عندها من أهل المقام.

إن سلوك طريق التكامل على صراط العبودية يتطلب عبور المقامات بالترتيب التي هي عليه. ومثلما أن كمال الأجسام يتطلب التوازن في تكامل جميع الأعضاء وإلا حصل التشوه، كذلك الأمر في السير والسلوك. وقد يقفز البعض إلى بعض التمارين التي تعتمد في المراحل اللاحقة قبل عبور المراحل السابقة، لكنهم سرعان ما يقعون في الورطة ويهلكون أنفسهم. وقد يبدو للوهلة الأولى أن الإهتمام بالمستحبات وترك المكروهات أمر سهل على حساب الإهتمام بالواجبات وترك المحرمات، لكنه في النهاية لن يؤدي إلى شيء. لأن مثل من يفعل ذلك مثل من يبني بيته دون أسس أو قواعد.

ولهذا، فإن فعل أي مستحب أو ترك أي مكروه لا ينبغي أن يكون تحت المراقبة العرفانية إلاّ بعد التثبت من عدم وجود تقصير متعمّد في ترك المحرمات وفعل الواجبات. وإذا وُفق السالك لترك مكروه أو فعل

مستحب، فليعد ذلك محض التوفيق والمنّة، وليكن ما يؤديه من نوافل على نحو تأديب النفس.

إن السالك الحقيقي لا يهتم بأي شيء كاهتمامه بحقيقة التقوى. ويمكن اختصار السلوك إلى الله بهذه القاعدة. ومنها تنبثق المراقبة العرفانية، حيث يواظب السالك على مراقبة أفعاله التي صدرت والتي تصدر والتي ينبغي أن تصدر بناءً على البرنامج المذكور الذي ينقسم إلى المقامين المذكورين.

وأنت إذا سمعت عن عارف قدير قوله أنك إذا أردت أن تصل إلى أعلى المقامات فعليك أن تصلي أول الوقت. وتتساءل فيما بينك وبين نفسك: أليست رعاية أول الوقت من المستحبات المؤكدة وتركها يعد مكروها؟ فكيف يمكننا أن نجمع بين الأقوال؟.

إن هذا العارف يعدنا بأننا إذا راعينا مثل هذا المستحب فسوف نبلغ في العرفان شأناً، وكأنه لم يعد هناك شيء سوى هذا المستحب؟

لكنك إذا علمت سياق الكلام، فهمت جيدا أن هذا العارف يعتبر الإلتزام بالواجبات وترك المحرمات أمراً مفروغاً منه، وهو يوصينا بأمر يمس أعظم الواجبات وهو الصلاة. فلاحظ كيف أنه يوصي بما أوصى به أئمتنا في أحاديثهم كثيرا، ولو تفقهت في دينك لعلمت أيضاً أن رعاية أول الوقت هو أحد أهم طرق تعظيم ذلك الواجب المقدس، الذي إن قُبل قُبل ما سواه.

- الشبهة الثانية: شبهة أصحاب الخوارق

إذا كانت العبودية هي الطريق الوحيد الموصل إلى الكمال، فكيف نفسر وصول أشخاص إلى الكمالات الخارقة للعادة، وهم مخالفون لشروط العبودية؟

هذه شبهة تعتبر من أشد الشبهات العلمية والعملية التي أضلت

شعوباً وأمما بأسرها عبر التاريخ الممتد للبشرية، ولا زالت!

وفي كل عصر، نسمع عن أشخاص يظهرون فجأة، ويقومون بأمور وأعمال خارقة تخلب الألباب، وتهيئ المجال لادعاءات عقائدية فاسدة وابتداع مذاهب باطلة.

ولا زال القرآن يذكرنا بقصة سحرة فرعون الذين كانوا من أهم أركان حكمه وتسلطه على الناس. وقصة السامري الذي أضل بني إسرائيل وعبّدهم العجل.

وقد تفاوتت أعمال هؤلاء، ولكنها اجتمعت تحت عنوان خرق العادة والإتيان بأعمال يعجز عنها الأفراد العاديون. وكانت المشكلة أساساً في استغلال هذا التفوق والإمتياز لإضلال الناس وادعاء أباطيل وأكاذيب وإيهامهم أنها حقائق ثابتة أو خصائص تنبع من مصادر ذات قيمة عالية. وإذا جلنا في معظم بلاد العالم، نجد أن تمسك أتباع دين ما بدينهم يرتبط بشكل وثيق بمشاهدتهم لبعض الخوارق تصدر من الكهنة ورجال الدين.

ومن حين لآخر، نسمع عن اكتشاف تماثيل مقدسة ترشح زيتاً أو دماً، وتكون هذه التماثيل تصويراً لأحد القديسين أو الأرباب المقدسة!

إن ظهور بعض هذه الخوارق وحدوثها مما لا يمكن إنكاره بالإجمال. لهذا لن ندخل في تفاصيل الكثير من الخدع التي يمارسها المدّعون، ويُكشف زيفها بالتحقيق والفحص العلمي (راجع ملحق هذا الفصل). فما يعنينا الآن هو دراسة تلك الخوارق الواقعية التي لا تكون خداعاً للبصر أو من الألعاب الخفية.

لقد كشفت الدراسات التي أجريت على بعض تلك الخوارق أنها نوع من استخدام متطور لقوانين الطبيعة والنفس. مثلما يقوم لاعب السيرك، وعلى أثر التمرين المتواصل والشاق، بالحركات المدهشة التي تعتمد على مراعاة قوى الجسد لقوانين التوازن في الطبيعة. فبعض

إن رسول الله ﷺ كان آخر الأنبياء ﷺ على هذه الأرض. فهو المسبوق في زمن الدنيا. وهذا السبق ليس له شرافة بحد ذاته. بل الشرافة في السبق المعنوي. وهذا ما كان لرسول الله ﷺ بالنسبة لسائر الأنبياء. وإذا نظرنا إلى هذه الحقيقة من جانب يلي الله (أي من عالم الله) فإنه الأول ولا شك. وفي الحديث عنه قال: أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر.

الخوارق تحصل من جراء ترويض قوى النفس الخفية الموجودة في كل إنسان. غاية ما في الأمر أن قلة قليلة من الناس وعلى أثر التمرين الدائم والرياضة الشاقة تتمكن من التعرف على القوانين النفسية وتسخيرها بالشكل الذي تريد، كقراءة الأفكار والاطلاع على بعض المغيّبات.

ومنذ مدة نلاحظ قيام بعض المدارس والمعاهد بتدريس هذه المعارف وتدريب المهتمين بها.. مما يعني أن ما كان يحجبنا عن الكثير من تلك الخوارق التي كانت تسمى في الماضي سحراً أو شعوذة ليس سوى بضع مئات من الدنانير!

كثيرة هي الأعمال التي كانت تعد خارقة للعادة تم الكشف عن تفاصيلها وكيفياتها، ولم تعد من الأسرار التي يتلاعب بواسطتها بالعقول!

وإذا علم السبب، بطلت الحيرة، وانتقل العجب إلى عالم الطبيعة وقوانينها المذهلة، ومنها إلى خالقها ومبدعها عز اسمه. ومن هنا نجد أن العديد ممن يمارسون تلك الخوارق كفّو عن الادعاءات الفكرية والعقائدية، واستبدلوا ذلك بالاستعراضات الفنية. فقد وجدوا أنها أكثر ربحيةً. وها هي صناعة السينما وصالات المسرح جاهزة لتجعل من أمثال هؤلاء نجوماً!

بيد أن عدداً من تلك الخوارق بقي مستعصياً على الدراسات والتحقيقات العلمية؛ وذلك ربما لأحد سببين:

الأول: إما لأن العلم لا زال بحاجة إلى المزيد من البحث لاكتشاف تلك القوانين الكامنة في الطبيعة والنفس.

الثاني: وإما لأن العلم بمسيرته الغربية التي بدأت منذ عدة قرون لن يتمكّن من اكتشاف قوانينها لأسباب تتعلق بمناهجه البحثية وأساليبه الدراسية.

ونحن نقول بأن العلم على موعد مع المزيد من الاكتشافات والمزيد

من حل الألغاز المتعلّقة بتلك الخوارق المجهولة. وفي نفس الوقت نقول بأن عدداً من تلك الخوارق سيبقى على ما يبدو مستعصياً على منهجيته المعتمدة في الجامعات، والتي لا يتوقع أن تتغير في المدى المنظور.

فلن يتمكّن من كشف رموزها سوى العقل المجرّد مستفيداً ومستلهماً من الوحي الإلهي.

إنّ ما يعنينا الآن هو هذا النوع من الخوارق التي تصاحب بادعاءات كبيرة، ويصعب فك رموزها بما أوتينا من علم.

فقد ثبت في الدراسات العقائدية المتعمّقة أن هناك بعض البشر قاموا بأمور خارقة يعجز الناس عن الإتيان بمثلها وادعوا أنهم أنبياء ورسل الله تعالى. وقد تميّزت سيرة هؤلاء بالصلاح والإصلاح والدعوة إلى المكارم والقيم العظيمة. ولم تكن الأمور الخارقة التي صدرت على أيديهم المسماة بالمعاجز سوى أدلة على سفارتهم ورسالتهم الإلهية. وكان للتصديق بنبوتهم أكبر الأثر على الناس والمجتمع. ولولاهم لكانت الأرض مظلمة قاحلة.

وهناك من يقوم بالأعمال الخارقة ويرجع ذلك إلى سلوك خاص ومبادئ فكرية معيّنة، سواء صرح بذلك أم كانت سيرته تحكي عنه. وعند مراقبة سلوكه ونهجه في الحياة على أساس ميزان الشريعة، نجده لأهم أحكامها وتشريعاتها مخالفاً! وقد شاهدنا أشخاصاً يتميّزون بقدرة عالية على كشف الغيب من خلال النظر إلى القرآن، مع أنهم يعارضون الولي الفقيه ويخالفون أوامره. وأنت تعلم أن مثل هذه المخالفة عند الله ذنب عظيم!

قد نعجز هنا عن وضع اليد على القانون الذي يستفيد منه هؤلاء، ونكتفي بطرح مجموعة من الاحتمالات التي أشار الوحي إلى بعضها. منها ما يتعلّق بالاتصال بعالم الجن الذين يتميّزون عنا بأمور تبدو لنا خارقة وغير عادية. ومنها قوة النفس الحاصلة من جراء التركيز على إحدى الحقائق الغيبية. ومنها نيل البعض منهم ثوابه في الدنيا دون الآخرة.

وفي المقابل، نحن لا نشك، ولا ينبغي، في أن المؤمن قد ينال أثناء سفره الملكوتي كرامات وكمالات خارقة، ويُطلع البعضَ عليها أو يبقيها مخفية لمصلحة سلوكية. ولهذا، لا ينبغي أن نتهم من نعرف فيه مثل هذه الأمور لمجرّد انتهاء عصر النبوة وغيبة الإمام (عجل الله فرجه)!

وإذا أُصبنا بالحيرة في أمره، فقد جعل الله لنا ميزانين، تتبعهما إشارة لطيفة.

الميزان الأول: الشرع الأنور

فعن الإمام الصادق﵇ أنه قال:

"إن آية الكذاب أن يحدثك بما في السموات والأرض حتى إذا سألته عن حلال الله وحرامه لم يدرِ شيئاً".

فإذا كان صاحب الكمال أو الكرامة المذكورة ولياً، فإن أولياء الله الواقعيين هم المتقون فقط: ﴿إنْ أولياؤه إلا المتقون﴾.

وأهل التقوى هم الذين يتمسكون بظاهر الشريعة، ولا يحيدون عنها قيد أنملة. وخصوصاً في مثل القضايا الكبرى التي لا تسامح فيها، كالجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتحمل المسؤولية السياسية.

فإن كنت تبحث عن أولياء الله لتقتدي بهم وتستفيض من روحانيتهم فهم المتقون المجاهدون العاملون الزاهدون.

الميزان الثاني: معرفة الهدف النهائي

فإن الهدف النهائي هو الكمال المطلق. وشتان ما بين المطلق والمحدود. وعليه، لا ينبغي القول بأن الذين تصدر منهم تلك الكرامات هم واصلون إلى الله تعالى. نعم إذا تحققوا بحقيقة الكمال المطلق، وصاروا مظهراً تاماً لأسمائه وصفاته فهم حجة علينا في سلوكهم

وأفعالهم وأقوالهم، وينبغي الاقتداء بهم، ما داموا كذلك.

وقد يقال إنه قد حصلت حالات في التاريخ وصل فيها أشخاص إلى قمة الكمال وكانوا فاسدين في الواقع، كبلعم بن باعوراء المذكورة قصته في سورة البقرة بقوله تعالى:

﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾.

ولكن مع صحة تفسير "آتيناه آياتنا" بالمقام النهائي، فإن ذلك لم يدم طويلاً، بل انتزع منه بمجرد عزمه على الإتيان بخيانته الشنيعة، وهي محاولة قتل النبي موسى عليه السلام للحلول مكانه!!

إذاً، فلنبق في أذهاننا حقيقة الفارق بين المحدود والمطلق من الكمال حتى لا نتزلزل أو نضل عندما يعرض البعض بضائعهم السلوكية علينا.

إشـارة لطيـفة:

يقول الإمام الخميني في كتاب "مصباح الهداية":

"نور: ومن ذلك المقام، إباء الأنبياء والمرسلين والأولياء الراشدين (صلوات الله عليهم أجمعين) إظهار المعجزات والكرامات التي أصولها عبارة عن إظهار الربوبية والقدرة والسلطنة والولاية في العوالم العالية والسافلة إلا في موارد اقتضت المصلحة إظهارها. وفيها أيضاً كانوا يصلون ويتوجهون إلى رب الأرباب بإظهار الذلة والمسكنة والعبودية ورفض الأنانية وإيكال الأمر إلى بارئه واستدعاء الإظهار من جاعله ومنشأ وعلة قدرته، مع أن تلك الربوبية الظاهرة بأيديهم عليهم السلام هي ربوبية الحق جلّ وعلا، إلا أنهم عن إظهارها بأيديهم أيضاً يأبون".

ويقول أيضاً:

"وأما أصحاب الطلسمات والنيرنجات وأرباب السحر والشعوذة والرياضات ـ التي أصولها الاتصال بعالم الجن والشياطين والكفرة وهو الملكوت السفلي الذي هو الظل الظلماني لعالم الملك مقابل الظل النوراني الذي هو الملكوت العليا وعالم الملائكة ـ تراهم لا زالوا في مقام إظهار سلطنتهم وإبراز تصرفهم لفرط العشق لأنانيتهم وزيادة الشوق لحيثية نفوسهم. فهم عبّاد أصنام النفس وتابعي الجبت والطاغوت، غافلون عن رب العالمين، وإن جهنّم لمحيطة بالكافرين".

- الشبهة الثالثة: النجاح والنصر أهم من التكليف!!

إن جوهر الإنسانية ومعدن الإيمان يظهران في لحظات الابتلاء والامتحان، حين تتعارض مصالح الفرد مع مبادئه ومعتقداته؛ عندما يطلب منه أن يتخلّى عن آرائه الخاصة، أو يتجاوز طريقته وأسلوبه في العمل.

في مثل هذه الأحوال لا يثبت إلا من أدرك عظمة التكليف وذاق حلاوة الطاعة.

"اللهم إنك أيّدت دينك في كل أوان بإمام أقمته علماً لعبادك ومناراً في بلادك بعد أن وصلت حبله بحبلك وجعلته الذريعة إلى رضوانك، [illegible] معصيته وأمرت بامتثال أوامره والانتهاء عند نهيه..". [الإمام السجاد]

وقد يمر وقت طويل علينا لا يحدث أن تتعارض التكاليف مع مصالحنا، أو تخالف خططنا ومشاريعنا، ثم يأتي موقف واحد يكشف عن اهتراء سلوكنا وخواء ادعاءاتنا!

ولا شك بأن الطاعة والالتزام بالتكليف أمر سهل ويسير عندما يتوافق مع مصالحنا الخاصة أو مع ما نراه صحيحاً ولازماً، ولكنه أمر في غاية الشدة والصعوبة إذا وجدنا أنه أصبح خلاف ما نرى!

إن ساحة العمل والجهاد مليئة بغير المعصومين، وحافلة بالسلائق والأساليب المتباينة والطبائع المتنافرة. ولهذا، فمن المتوقع دائماً أن يحصل الاختلاف والخلاف بين وجهات النظر وطرق إدارة الأمور،

ومستويات التحليل. وبسبب ذلك قد تحدث الأخطاء وتقع الخسائر والأضرار. فإذا لم نوفق لإيجاد قواسم مشتركة وثوابت حاكمة، سينعدم التعاون، ويحل الفشل والهزيمة.

وفي ساحة العمل الإسلامي، يكون الحاكم على جميع العلاقات والتحركات مبدأ ولاية الفقيه بامتداداتها إلى جميع المراتب والمستويات، حيث يعلم الجميع أن ولاية الفقيه هذه نابعة من ولاية المعصومﷺ. وإن هذا الولي يحق له أن يُفوِّض الولاية أو الإمرة لمن يشاء وبالمقدار الذي يراه مناسباً. وعندها تكون إطاعة من يُنصَّب أو يُكَلَّف لعمل ما، وضمن ما عُيِّن له من صلاحيات كطاعة الولي الذي تكون طاعته طاعة الإمام.

فإذا أمرنا الولي بطاعة شخص ما وحدد لنا مجال مسؤوليته، يجب علينا الالتزام، مثلما نلتزم بأوامر هذا الولي الفقيه. وقد تكون مسؤولية هذا الشخص شاملة لصلاحية تعيين آخرين، وهكذا.

ففي هذه السلسلة الممتدة إلى الولي الفقيه، تعتبر مخالفة المسؤول المعين ـ ضمن صلاحياته ـ مخالفة للإمام دون أي اختلاف. ومن يعصِ قائد فرقة في جيش بقيادة رجل عيَّنه الولي فقد عصى الولي عيناً. وما أقبحها من معصية.

وهنا يأتي السؤال: ما هو الموقف السليم الذي ينبغي اتخاذه عندما أرى أن مسؤولي أو قائدي مخطئ في تحديد التكليف، وأن هذا التكليف سيؤدي إلى الهزيمة أو الفشل؟ وقد أكون متيقناً أحياناً من ذلك، وهو يأمرني بما يخالف العقل؟!

إن هذا البلاء من أشد البلاءات على العاملين في الواقع. والتاريخ الطويل للبشرية يحدثنا عن رجال كبار سقطوا فيه. وكم من أبطال كانت لهم صولات وجولات وأمجاد ومآثر وإنجازات، أضاعوا كل شيء في لحظة واحدة، عندما طلب منهم أن يتجاوزوا حيثياتهم ويدوسوا على آرائهم ويطيعوا غيرهم، ثم رفضوا!

ورغم وضوح الامتحان ونصاعة الحق، فإن حب الذات واتباع الهوى أعمى بصيرتهم ـ فلجأوا إلى تبرير مخالفتهم قائلين: "إن هذا الأمر مخالف للعقل". أو "نحن على يقين بأنه مخطئ". أو "أن الله لا يرضى أن نموت جوعاً أو نقتل بهذه الطريقة"؛ وعشرات التبريرات الأخرى.

وما ينبغي أن نعرفه جيداً، قبل البدء بالجواب، ما يتعلق بحدود العقل وعمله. فغالباً ما نسمع أن هذا مخالف للعقل، ويكون المقصود من هذا التعبير عقولنا نحن. فنخلط بين عقولنا والعقل المجرّد.

إن العقل الذي لا يخطئ هو العقل غير المشوب بالأهواء والشهوات. "**فكم من عقل أسير تحت هوى أمير**" يمنعه من معرفة قوانينه واستخدام حدوده. إن القول بأن الله لا يريدنا أن نموت جوعاً ليس مما يمكن للعقل أن يحكم بصحته أو فساده. ما يحكم به العقل ويستدل عليه هو أنه لا حد لولاية الله تعالى، وأن بيده كل شيء وله الإماتة والإحياء. والعقل يثبت ضرورة طاعة الولي، ويثبت لزوم كون ولايته مطلقة شاملة لجميع شؤون الحياة، لكن العقل لا يقدر على تحديد صحة هذا التكليف أو ذاك. مثلما أن تحديد عدد ركعات الظهر خارج عن حدوده.

وعدم دخالة العقل في هذه التفاصيل، ليست إسقاطاً له أو لتلك التكاليف. لأن العقل قام بدوره الذي خلقه الله له على أكمل وجه حيسما دلنا على القواعد العامة والمصادر الصافية للتكليف الشرعي.

وينبغي أن يعرف المكلّف حدود صلاحيات المسؤول عنه بدقة. لكي يتمكّن من تحديد الأمر الصادر إليه إذا كان تكليفاً شرعياً أم طلباً شخصياً.

فإنه ليس كل أمر يصدر من المسؤول الأعلى يعد تكليفاً شرعياً يجب امتثاله. بل التكليف هو الأمر المنطلق من دائرة الصلاحيات التي عُيِّنَت لكل واحد داخل السلسلة الممتدة إلى الولي الفقيه.

وبوضوح هذه المقدّمات، يُطرح السؤال مجدداً:

إذا اعتقد المكلّف خطأ مسؤوله في التكليف، ما هو الموقف الذي يجب اتخاذه؟

والمفترض أن المسؤول لا يتجاوز صلاحياته هنا، ومع ذلك يرى المكلّف أن هناك خطأ سيؤدي إلى وقوع خسائر قد تصل إلى إزهاق نفوس بريئة.. فماذا يفعل؟

وهذه الحالة تنقسم إلى شقين: فقد يكون التكليف فوتياً مستعجلاً يتعلق باللحظة. مثلما يحدث في أرض المعركة عندما يأمر القائد بالهجوم أو الانسحاب أو إطلاق النار. والموقف الشرعي هو الالتزام والطاعة دون تردد حتى لو كنا نرى أن دماً سيسقط. فهذه طبيعة الحرب. كانت هكذا، وسوف تبقى..

وقد يكون التكليف مؤجلاً متعلقاً بالزمن الآتي كالغد وما بعده. فهنا تجب على المكلّف النصيحة وبيان الخطأ (مع رعاية أصول الأدب). وفي حال لم يقتنع مسؤوله المباشر بوجهة نظره، يمكنه أن يتدرج ويرفع النصيحة إلى الأعلى ثم الأعلى، وهكذا. وفي النهاية، إذا لم يرَ في المسؤولين اقتناعاً بوجهة نظره فعليه الامتثال والتنفيذ في الوقت، ولا يجوز له تحت أية حجة أن يخالف التكليف المتوجه إليه. (وينصح مثل هذا المبتلى بأن يستغل الوقت المتبقي في الدعاء والتوسل بصاحب الزمان عجل الله فرجه، فإنه عظيم الأثر في كشف كربته وبيان صوابه).

وليعلم أن الطاعة في مثل هذه الموارد من أفضل وسائل إصلاح ذات البين، وإصلاح الآخرين وهدايتهم على فرض أنهم مخطئون أو ينطلقون من مزاج وحالة غضب وتهور في إصدار الأوامر. وهي تهيّئ الأرضية المناسبة لمعرفة الحق من الباطل وتحديد المسؤول الواقعي عن الخطأ الذي وقع. أما في حالة التمرد والعصيان، فإن الحق يضيع بالباطل، وتحل الفوضى ويعم الفساد، وتنفصم عرى النظام الذي لا بد منه في العمل الجهادي.

"اللهم وإني أتوب إليك من كل ما خالف إرادتك أو زال عن محبتك من خطرات قلبي ولحظات عيني وحكايات لساني، توبة تسلم بها كل جارحة على حيالها من تبعاتك". [صحيفة السجادية].

"إن الظالم الحالم يكاد أن يعفى على ظلمه بحلمه وأن المحق السفيه يكاد أن يطفئ نور حقه بسفهه" [الإمام الهادي]

وليلتفت المكلّف ها هنا إلى أنه في العديد من الموارد قد تغيب عنه تفاصيل وجوانب من القضية لا يتصورها أبداً، وهي حاضرة بيّنة الوضوح عند المسؤول الأعلى.

درس من المقاومة

صدر الأمر لقائد المجموعة بالتقدم إلى إحدى النقاط الميدانية، وكانت هذه المجموعة معنية بإلهاء أي تحرك عسكري مفاجئ قد يقوم به العدو. واكتفى القائد الأعلى للعمليات ـ ولضرورات أمنية ـ بتكليف قائد المجموعة بصد أية محاولة تقدم عند النقطة المذكورة، دون الإشارة إلى تفاصيل العملية في النقاط والمواقع الأخرى.

وأثناء تقدم هذه المجموعة إلى نقطتها، لاحظ قائدها أن التواجد فيها سيشكل بعد قليل خطراً على عناصرها، فقرر التراجع من تلقاء نفسه حفاظاً على من معه.

وبدأت العمليات في جميع المواقع فما كان من العدو إلا أن تقدم إلى النقطة التي أخلتها المجموعة من دون أية مقاومة، ثم بدأ باصطياد عدد كبير من المجاهدين في المجموعات الأخرى الذين ظنّوا أن ظهورهم ستكون محمية، وتكبدوا خسائر فادحة جداً.

- ما هو الدرس الذي نتعلّمه من هذه المعركة.
- هل تجد لهذا الدرس مثيلاً في تاريخ الإسلام؟ وأين؟



الخوارق الجديدة
أوهام أم معجزات؟!



كلنا سمعنا في الفترات السابقة عن سلسلة من الحوادث التي ظهرت كخوارق وتناقلتها وسائل الإعلام، وقامت باستغلالها بعض الجهات الدينية لأجل نشر معتقدها وأفكارها.

لقد وقف الكثيرون موقفاً حائراً وهم لا يستطيعون تفسير هذه الظواهر، وقام آخرون بإنكارها دون توجيه علمي أو عقلي. وبين هؤلاء وأولئك ضاع الكثيرون وتاهوا أو شعروا بالعجز والنقص وهم يرون سكوت أو صمت علماء أو زعماء مقابل الادعاءات المختلفة.

ونظراً لخطورة هذه المسائل وتأثيرها على عقائد الناس كان لا بد من التحقيق بشأنها وتفسيرها على أساس الأصول العقلية والتجارب العلمية وإعطاء النتيجة الواضحة حولها.

ولكن للأسف اندفع البعض ممن لا يمتلك الركيزة العقائدية القوية لتناول هذه الظواهر بطريقة خاطئة مما زاد المسألة تعقيداً. ونحن نتحدث هنا بهذه اللهجة لتكون لنا عبرة للمستقبل ومنهاجاً لتناول أية ظاهرة مشابهة في الأيام المقبلة. وعلينا أن نتوقع استمرار الحديث عن المعجزات من قبل اتباع ديانة لا تمتلك سوى الإيمان الأعمى وتقمع كل برهان ودليل وتخالف المنطق العقلي بقوة وتتحدّى منجزات الفلسفة والحكمة النظرية. ولكن لا ينبغي أن يستمر الحديث في وسائل إعلامنا ومجلاتنا عن هذه الظواهر بالصورة التي حدثت سابقاً ونحن اتباع الدليل واتباع دين

موغل في العمق الفكري وشامل لكل مجالات الحياة وقادر على تفسير ظواهر الكون كافة، بالإضافة إلى التجربة الواسعة والعريقة لأئمته وعلمائه على مستوى مواجهة الخدع والشبهات التي كانت تطرح في أوساط المجتمعات الإسلامية ولا زالت.

ومما يؤسف أيضاً أن هؤلاء قد استخدموا عبارات علميةً في غير محلها. كمصطلح المعجزة الذي يستخدم في العقيدة للدلالة على فعل خارق للعادة لا يمكن لأحد أن يأتي بمثله وهو لا يحصل بالتمرين والتعليم، ويصاحب بدعوى عقائدية.

والفكرة الأخيرة هنا تعنينا أكثر من غيرها، فالإدعاء العقائدي أساس في المعجزة. أي أن المعجزة تأتي لخدمة العقيدة ولإثبات صدق صاحب المعجزة. ولهذا يلتزم علماء العقيدة عادة باستعمال هذه المصطلح في مورد النبي. وقد يكون لغيره من الأولياء والكمّل كرامات خارقة للعادة أيضاً.

ينبغي أن نعي حقيقة أساسية، وهي أن الخوارق على فرض صحتها وانتسابها إلى عالم الغيب وخروجها عن مألوف الإنسان وقدرته العادية أو الميسورة تقنياً. تصاحب عادة بقوة عقلية وقيمة أخلاقية رفيعة.

فأصحاب الخوارق الحقيقية، أي الكرامات الواقعية الغيبية يتميّزون بقوة العقل واليقين وبوضوح الشخصية وتميزها الأخلاقي، ولأجل التعرف إليهم جيداً أعطانا الله ميزاناً واضحاً وهو الشرع الأنور، كما قال صادق أهل البيت﵇ : "**إن آية الكذاب أن يحدثك بما في السموات وما في الأرض حتى إذا حدثته عن حلال الله وحرامه لم يدر شيئاً**".

لقد لفت نظري مقالة في مجلة "العلوم الأمريكية" تحت عنوان "تفحص المعجزات على الطريقة الإيطالية". وهذه المقالة رغم أنها تنطلق من كاتب لا يؤمن بالدين إلاّ أنها تنطوي على مجموعة من الملاحظات اللافتة وأتمنى أن يستمر التحقيق على منوالها أكثر.

إننا إذا قرأنا هذه المقالة قد نلتفت إلى بعض أسباب شيوع الإلحاد في المجتمعات الغربية، وربما نضيف هذا العامل إلى العوامل الأخرى التي ذكرها الشهيد السعيد مرتضى المطهري في كتابه "الدوافع نحو المادية".

يقول الكاتب ويدعى جايمس راندي:

".. لحسن الحظ ما زال في إيطاليا رجال مثل "غارلا شيللي" وهو عالم نشيط شديد الملاحظة يعمل في قسم الكيمياء العضوية في جامعة بافيا. وعندما لا يكون منهمكاً بأبحاثه الرسمية يعمل مع زميله راماشيني في الخوارق مقدمين تفسيرات عقلانية للمعجزات المزعومة. تتكون المعجزة الإيطالية الراهنة من تماثيل للسيدة مريم العذراء منتشرة في كل أرجاء إيطاليا ومصنوعة من الجص أو الخزف المطليين وهي تذرف دمعاً من الماء أو الدم، إن مالكي هذه التماثيل يطلبون إلى المشاهدين الأتقياء الذين يبقون على مسافة لا يتعدونها أن يشهدوا المعجزة. وفي إحدى الحالات الحديثة العهد أكد أكثر من ضابط في الشرطة أنه شهد الظاهرة بأم عينيه. وبذلك النوع من المصداقية تبدو الحالة ذات الأصل الخارق مؤكدة ولا يتطرق إليها الشك بالنسبة لوسائل الإعلام وبالتالي لكثير من الناس. إن أدنى حد من التفحص العلمي يبيّن أن شيئاً مريباً يحدث. لقد تم فحص الدموع الدامية التي يذرفها أحد تلك التماثيل، فتبين أنها ذات منشأ ذكري ولم يهب الكاهن المحلي من التصريح بأن تمثال السيدة العذراء سيذرف دماً ذكرياً. إنه بالطبع دم ابنها وطلب قاض يحقق في القضية أن يخضع دم صاحب التمثال إلى فحص الحمض النووي لكن راعي الأبرشية عارض ذلك لأسباب دينية مستنداً إلى أنه يجب ألا يشكك في مثل هذه المعجزات، ناهيك عن تعريضها للاختبارات.





ليس من الصعب تفسير ذلك، فقد أوضح غارلا شيللي أنه يمكن تحضير معظم التماثيل الجصية والخزفية بحيث تفرز دمعاً أو دماً زائفاً بحفر ثقب صغير في قمة الرأس وحقن سائل عبر هذا الثقب ثم إزالة طبقة رقيقة من الطلاء أسفل العينين. وبطريقة أبسط، يمكن ملء تمثال جصي مجوف بسائل ثم تصريفه. فالمادة المسامية تحتفظ ببعض السائل ومن ثم تبدأ القطرات الشبيهة بالدمع بالسيلان من العينين في حين يتجمّع حوض من السائل حول قاعدة التمثال. ولا تترك العملية أي مفتاح لحل اللغز. وإن معارضة مالكي التماثيل السماح للشكوكين مثل غارلا شيللي بفحصها جعلت من الصعب تقويم تفسيره.

ومن حين لآخر تعلن الصحافة الإيطالية عن أشكال أخرى من المعجزات المتعلّقة بالدماء. فإذا رجعنا إلى عام 1264 نجد أن البابا أوربان الرابع شرع عيد القربان إجلالاً لقدّاس أقيم في مدينة بالقرب من روما بادعاء أن خبز القربان المقدّس للعشاء الرباني قطر دماً. ومنذ ذلك الوقت صار يروي بانتظام أن الخبز والبطاطا المطبوخة وبعض المواد الغذائية الأخرى تنزف دماً.

ومما لا شك فيه أن البقع القرمزية الفاتحة - التي تظهر تلقائياً على الطعام - تشبه الدم، لكن التحليل الكيميائي لم يكشف عن أي أثر للهيموغلوبين الذي يعتقد أنه مكون أساسي حتى في الدم الخارق للطبيعة.

وعلى نقيض ذلك فإن الفطر سرايتا مارسفنفز غير المؤذي، سريع النمو على الأطعمة النشوية واللاحمضية في البيئات الحارة والرطبة كما بينا تماماً في مشهد المعجزة.

وينبغي أن نتذكّر أن للفطر سرّايتا مارسفنفز لوناً أحمر دموياً مفزعاً. لقد استنبت غارلا شيللي الفطر على خبز أبيض عادي فوجد

أنه يعطي نسخة طبق الأصل عن المعجزة التي يهلل لها. وقد أجرت طالبة في جامعة جورج ماسون بحثاً في تاريخ المعجزة في المدينة بولسيتا، فاكتشفت أن ظهور الحوادث الخارقة يتم في الفترة الواقعة ما بين أيار إلى أيلول (ويصل إلى ذروة منيرة في تموز) عندما يكون الجو أكثر حرارة ورطوبة فتظهر البقع الحمراء على أنواع مختلفة من الأطعمة – بما فيها الفراريج – التي تحقق متطلبات نمو الفطر. واستنتجت هذه الطالبة أن أكثر معجزات القرن الثالث عشر شهرة هي ميكروبيولوجية أكثر من كونها ميتافيزقية.

وأغرب المظاهر الدينية الراسخة التي دفعت غارلا شيللي إلى القيام بتحركات شبه بوليسية هو تلك الشعائر التي تروج لها دعاية مكثّفة وتقام سنوياً في كاتدرائية نابولي، وتروي القصة أنه عندما استشهد مسيحي من القرن الثالث الميلادي يدعى جينارو وذلك بقطع رأسه، قام أحد المتفرجين بتعبئة قارورة من دم الضحية واحتفظ به. وفي كل عام يعرض رئيس أساقفة كاتدرائية نابولي على الناس قارورتين مدعياً أنهما تحويان دم الشهيد المتخثر. وعندما تقلب القارورتان أمام جموع المصلين المحتشدة تتميّع المادة الموجودة فيها وتتحول من لون بني ضارب للحمرة إلى لون أحمر فاتح، وهو تحول اعتبر بمثابة دلالة على أن كل شيء على ما يرام في مدينة نابولي.

خفق غارلا – وراماشيني خليطاً يكرر التحول: أي إنه يميّع المادة ويغيّر اللون بخضة بسيطة مع أنه لم يكن بينهما رئيس للأساقفة. لقد تم تشكيل الخلِيط من مواد وجدت بجوار بقايا أثرية باستخدام تقنيات متوافرة لدى سمكريي القرون الوسطى. أما بخصوص الدم في القارورتين فإن الكنيسة رفضت بإصرار السماح بأخذ عينات منه وعلى هذا لم تجر أية فحوص أو تحاليل كيميائية عليه.



إنني لا أعترض على الإيمان بالمعجزات والعجائب ما دام لا يؤخذ كحقيقة مسلّم بها لكنني لا أهادن عندما يرفض الإيمان الأعمى التقصّي العلمي، لقد ناضلنا طويلاً وبعنف للتخلّص من الأفكار الخرافية التي سادت العصور الوسطى وإنني شخصياً لن أتراجع عن ذلك أبداً.





في التوجه إلى عز الربوبية وذل العبودية



من الآداب القلبية في العبادات والوظائف الباطنية لسالك طريق الآخرة التوجّه إلى عزّ الربوبية وذلّ العبودية، وهو بالنسبة للسالك من منازل السلوك المهمّة بحيث تكون قوّة سلوك أي إنسان بحسب قوة هذا التوجه والنظر، بل الكمال والنقص في الإنسانية يكونان تابعين لنقصانه وكماله. وكلما كان النظر إلى الإنّية والأنانية ورؤية النفس وحبّها في الإنسان غالبا كان بعيدا عن كمال الإنسانية ومهجورا من مقام القرب الربوبي، وأن حجاب رؤية النفس وعبادتها لأضخم الحجب وأظلمها، وخرق هذا الحجاب أصعب من خرق جميع الحجب التي يعد خرقها مقدمة له. بل إن مفتاح مفاتيح الغيب والشهادة وباب أبواب العروج إلى كمال الروحانية هو خرق هذا الحجاب. وما دام الإنسان قاصر النظر إلى نفسه وكماله وجماله الموهوم فهو محجوب وبعيد عن الجمال المطلق والكمال الصرف. والخروج من هذا المنزل هو أول شرط للسلوك إلى الله بل هو الميزان في حقانية الرياضة وبطلانها. فكل سالك يسلك بقدم الأنانية ورؤية النفس ويطوي منازل السلوك في حجاب الإنيّة وحب النفس تكون رياضته باطلة، ولا يكون سلوكه إلى الله بل إلى النفس (نفسك هي أمّ الأصنام) (مصراع بيت للعارف الرومي المشهور) قال تعالى: ﴿ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله﴾. فالهجرة الصورية وصورة الهجرة عبارة عن الهجرة بالبدن الذي هو "المنزل الصوري" إلى الكعبة أو إلى مشاهد الأولياء عليهم السلام، والهجرة المعنوية هي الخروج من بيت النفس ومنزل الدنيا إلى الله ورسوله، والهجرة إلى الرسول والوليّ هي أيضاً هجرة إلى الله. وما دام التعلق بالنفس والتوجّه إلى الإنيّة موجودين، فلا يكون مسافرا، وما دامت بقايا الأنانية أمام نظر السالك، وجدران مدينة النفس غير مختفية، وأذان إعلان حبّ النفس مسموعا، فهو في حكم الحاضر لا المسافر ولا المهاجر.

وفي مصباح الشريعة قال الصادق(ع): **العبودية جوهرة كنهها الربوبية فما فقد في العبودية وجد في الربوبية، وما خفي من الربوبية أصيب في العبودية.**

فمن سعى بخطوة العبودية ووسم ناصيته بسمة ذلّها سيجد سبيل الوصول إلى عزّ الربوبية. وطريق الوصول إلى الحقائق الربوبية هو السير في مدارج العبودية؛ فما فقد من الإنّيّة والأنانية في عبوديّته يجده في ظّل حمى الربوبية، حتى يصل إلى مقام يكون الحق تعالى سمعه وبصره ويده ورجله كما ورد في

الحديث الصحيح المشهور عند الفريقين. فإذا أسقط العبد تصرفاته وسلّم مملكة وجوده كلها إلى الحق وخلّى بين البيت وصاحبه وفني في عزّ الربوبية فحينئذ يكون المتصرف في الدار صاحبها فتصير تدبيراته تدبيرات إلهية، فيكون بصره بصراً إلهياً وينظر ببصر الحق ويكون سمعه سمعاً إلهياً فيسمع بسمع الحق. وبمقدار ما تزداد ربوبية النفس ويكون عزّها غاية في نظره، ينقص من عزّ الربوبية، لأن هذين متقابلان "الدنيا والآخرة ضرتان".

فمن الضروري أن يدرك السالك مقام ذلّه، ويضع ذلّ العبودية وعزّ الربوبية نصب عينيه. وكلما قوي هذا النظر زادت روحانيته في العبادة وكانت روح العبادة أقوى؛ حتى إذا تمكن العبد بنصرة الحق وأوليائه الكُمّل عليهم السلام من الوصول إلى حقيقة العبودية وكنهها، أدرك لمحة من سرّ العبادة. وهذان المقامان ـ أعني مقام عزّ الربوبية الذي هو الحقيقة ومقام ذلّ العبودية الذي هو رقيقته ـ مرموزان في جميع العبادات وبالأخص في الصلاة التي لها مقام الجامعية، ومنزلتها بين العبادات منزلة الإنسان الكامل ومنزلة الإسم الأعظم بل هي عينه. وللقنوت الذي هو من الأعمال المستحبة، وللسجدة الواجبة اختصاص بهذه الخصوصية وسنشير إليها فيما يأتي إن شاء الله .

وليعلم أن العبودية المطلقة من أعلى مراتب الكمال وأرفع مقامات الإنسانية وليس لأحد فيها نصيب بالأصالة سوى الأكمل من خلق الله محمد صلى الله عليه وآله، ولأولياء الله الكمّل بالتبعية. وأما بقية العباد فهم في طريق العبادة عُرج وعبادتهم وعبوديّتهم عليلة. ولا يُنال المعراج الحقيقي المطلق إلا بقدم العبودية ولهذا قال الله تعالى: ﴿سبحان الذي أسرى بعبده﴾ فقد أسرى الله سبحانه بتلك الذات المقدسة إلى معراج القرب والوصول بقدم العبودية والجذبة الربوبية .

وفي التشهد الصلاتي الذي هو رجوع من الفناء المطلق الذي يحصل للمصلّي في السجدة، نجد التوجّه إلى العبودية أيضاً قبل التوجه إلى الرسالة.

ويمكن أيضا أن يكون إشارة إلى أن مقام الرسالة هو نتيجة لجوهرة العبودية. ولهذا المطلب ذيل طويل خارج عن نطاق هذه الأوراق .

(معراج السالكين - ترجمة آداب الصلاة للإمام الخميني)

في الفهم والتحليل

1. [illegible]

1. **إن الاعتقاد بضرورة وجود طريق إلى الغاية:**
   أ. ينبع من حسن الظن بالوجود.
   ب. يعود إلى أصول الدين وفروعه.
   ج. ينبع من اعتقادنا بلزوم الهداية من الله تعالى.
   د. متروك لكل إنسان.

2. **يصل بعض السالكين إلى أزمات كبرى:**
   أ. من شدة إصرارهم على السلوك.
   ب. لأنهم حصروا السلوك ببعض الأحكام.
   ج. لأنهم لم يدرسوا الفلسفة والعرفان.
   د. ارتكبوا بعض الذنوب الحساسة.

3. **المانع الأوحد من نيل فيض الله هو:**
   أ. البيئة الاجتماعية السيئة.
   ب. الحكام الظالمون.
   ج. العبادة المنحرفة.
   د. الهوى الذي هو منشأ المفاسد كلها.

4. **لا يلعب العمر والمكان دوراً أساسياً في التكامل:**
   أ. لأن الزمان متغير عبر العصور.
   ب. لأنهما ماديان ولا يؤثّران في الجوهر.
   ج. لأن الكمال عطاء الله القدير.
   د. لا، بل يؤثران بشكل كبير.

5. **المنكر لوجود الطريق إلى الله:**
   أ. يعتقد بأصول الدين إلاّ أنه جاهل.
   ب. يعود إنكاره إلى عدم معرفة الله تعالى.
   ج. لا تثريب عليه ولا إشكال.
   د. لم يدرس العقيدة في المستوى الثاني.

6. **أفضل تعبير عن الطريق الإلهي هو:**
   أ. المنهج الرباني العظيم.
   ب. السير والسلوك إلى الله.
   ج. الصراط المستقيم والحبل المتين.
   د. الشريعة التي تشمل أوامر الله في كل شيء.

7. **جوهر الشريعة هو:**
   أ. الالتفات إلى حقيقة النفس.
   ب. تحقق حالة العبودية التامة لله.
   ج. ابتغاء رضوان الله تعالى.
   د. الطريق إلى السعادة.

8. **حقيقة العبودية هي:**
   أ. الرق وعدم الحرية.
   ب. الرجوع إلى النفس.
   ج. الانقياد والتسليم التام لإرادة الله.
   د. مطابقة الأعمال للحكم الإلهي.

9. **الواجبات أهم من المستحبات:**
   أ. لأنها عند الله أهم وأولى.
   ب. لأنها أكثر تأثيراً في النفس.
   ج. لأن المستحبات لا تفيد في السير والسلوك.
   د. المستحبات هي الأهم لأنها أكثر ثواباً.

10. **الولي الفقيه هو المرشد والمربي:**
   أ. لأنه أحد العلماء الكبار.
   ب. لأنه يمثل الشريعة في عصر الغيبة.
   ج. لأنه تعرّف على الأحكام الشرعية.
   د. بالإضافة إلى عشرات المرشدين.

2. مفردات للمذاكرة

3. [illegible]

الجسد: ......

الخيال: ...

العقل: ......

القلب: ......

4. صل بين العمودين بما يتمم المعنى:

1. أكبر مانع من طلب الكمال المطلق	أ. أداء للواجب في كل الأوقات
2. أعلى التوفيقات الإلهية للعبد	ب. طاعة الولي الفقيه
3. أفضل طريقة للحافظ على القابلية المطلقة	ج. التوجه نحو الكمالات المحدودة
4. الطريق الوحيد للوصول إلى الله	د. الاستجابة لنداء الفطرة الصافية
5. برامج مخالفة النفس التي وضعهاالصوفيون وأمثالهم	هـ مخالفة الهوى مطلقاً
6. طاعة الله في زمن غيبة المعصوم	و. اتباع خفي للهوى

5. بالانطلاق من فهمك لبرنامج الدين في التربية، عالج هذه المشكلة:

5.1. الخيالات والوساوس التي تمنع من حضور القلب في الصلاة

- o علاج مرحلي آني:
- o علاج كلي نهائي:

5.2. تكلّف الخشوع في الصلاة مراءاة للناس:

- o علاج مرحلي آني:
- o علاج كلي نهائي:

6. إملأ الفراغ بما يناسب:

فعل المستحب. السير والسلوك. أهم. فعل الواجب. صفاء الباطن. ترك المكروه. ترك الحرام. العبودية التامة. مقام. الشريعة. انقياد الباطن. الواجب. العملية.

- إن ... يتضمن عبور مقامات أربعة هي بالترتيب: ... ...
- مجرد أداء المستحبات لا يعني بالضرورة تحصيل ... المستحب ما لم يعبر السالك مقام ...
- يمكن حصر البرنامج السلوكي برعاية الظاهر واتباع ... على مستوى المسؤولية وإن كان الهم والاهتمام النفسي يجب أن يتركز على ... وتسليمه.
- إن سيرة الكمل من أولياء الله تبين أن الطريق إلى الله هو ...
- إن أحد أسرار تكرار العبادات في الإسلام هو ... لإرادة الله تعالى.

7. ضع إشارة ✓ للعبارة الصحيحة و ✗ للعبارة الخاطئة

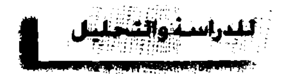
1. إن سبب اختلاف العباد في المراتب والدرجات هو كثرة العمل.
2. ما دام الإنسان في الحياة الدنيا فإن وسيلة تكامله هو العمل بالجوارح.
3. يكفي أن يؤدي الإنسان الطاعات الشرعية وإن لم يكن منقاداً في قلبه.
4. لو قام إنسان ببعض الأعمال ظناً منه أنها أحكام الله يثاب عليها.
5. إن الفصل بين أحكام الظاهر والباطن في الدين نشأ من إقصاء الناطقين الحقيقيين عن الدين من متن المجتمع الإسلامي.
6. نميز بين الولي الحقيقي من غيره ممن يظهرون كرامات خارقة للعادة من خلال التمسك بالشرع الحنيف.
7. إن نشوء الفرق الإسلامية المتعددة وحدوث الاختلافات فيما بينها هو نتيجة طبيعية لتطور الناس واختلاف الزمان.
8. إن طاعة الولي الفقيه تعني عدم الالتفات إلى غيره من الصالحين والأولياء.
9. لقد قام بعض الأولياء الكاملين بأعمال دنيوية عادية وربما لفترات طويلة في حياتهم ليؤمنوا رزقهم المادي وليحثوا الناس على العمل.
10. القول بأن هناك أحكاماً للباطن وأخرى للظاهر يدل على فهم حقيقة الشريعة وطريقة الدين في التربية.

8. أجب باختصار

8.1. لماذا لا تظهر حقيقة كل من المؤمن والكافر في الدنيا؟

8.2. كيف نفسر وصول البعض ممن يخالف الشريعة إلى بعض الكرامات الخارقة للعادة؟

8.3. لماذا يؤدي بقاء مثقال حبة من خردل من حب الدنيا في قلب الإنسان إلى عدم نظر الحق تعالى إلى صاحبه؟



منه بعد؟

اعتمد النموذج التالي للإجابة عن الأسئلة:

الإجابة: (النتيجة المتوخاة)

فكرة داعمة أولى:

فكرة داعمة ثانية:

فكرة داعمة ثالثة:

(الفكرة الداعمة تقدم المعطيات، الأسباب، الأدلة، الآيات، الأحاديث الداعمة للإجابة)

الاستنتاج: (كتابة خلاصة تؤكد على النقطة الرئيسية في الإجابة)

أعد صياغة إجابتك في فقرة.

إن فاطمة في حيرة من أمرها.

لقد أنهت للتو دراستها الثانوية بدرجة ممتاز ولكنها لا تدري أي اختصاص جامعي تختار. أهلها يريدون منها أن تدرس الطب، وهي تهوى الهندسة، وعندما سألت أحد علماء الدين عما ينبغي لها أن تتخصص فيه وجهها نحو فرع من فروع الدراسات الإنسانية والاجتماعية لأن الساحة تحتاج إلى اختصاصيين في هذه المجالات.

تشعر فاطمة أن لديها القدرة على النجاح والتفوق في اي من هذه الخيارات، ولكن أيها تختار؟

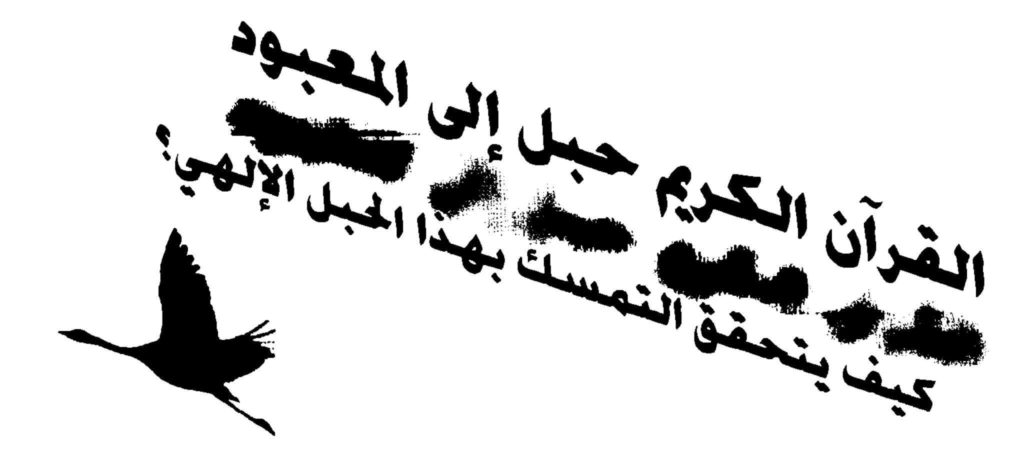
كيف نساعد فاطمة على ضوء ما تعرفت عليه في الدرس، على اختيار الاختصاص المطلوب؟



بالرجوع إلى القرآن الكريم استخرج مجموعة من الآيات تبين خصائص أصحاب الدرجات العلى عند الله تعالى وما هي العوامل التي تقف وراء تميزهم؟ (مفاتيح للبحث: القربة، السبق، العلى، أعظم [illegible])

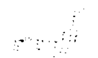






القرآن الكريم حبل إلى المعبود
كيف يتحقق التمسك بهذا الحبل الإلهي؟





القرآن الكريم حبل إلى المعبود

مع نهاية هذا الفصل تكون قد تعرّفت على:

- أن الأوامر الإلهية تتفاوت من حيث الأهمية.
- أن أعظم التكاليف الإلهية هو التمسك بالثقلين.
- ضرورة فهم الشريعة ودورها.
- حقيقة القرآن الكريم الذي هو الثقل الأكبر.
- كيفية التمسك بالثقل الأكبر.

* القرآن ودوره في العبودية

قال رسول الله ﷺ:

"**إني تارك فيكم الثقلين، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي أبداً: كتاب الله وعترتي أهل بيتي**".

أودع الله سبحانه شريعته وحقائق دينه في كتاب أنزله للناس هادياً، وأمر نبيّه والأوصياء من بعده أن يفسّروا آياته ويبيّنوا تعاليمه. فهو كتاب الله وهم كلماته التامات؛ وفيه أودع إرادته الكاملة للبشرية لكل عصر ومكان، وهم المتصفون بالإلتزام التام. ومن أراد الوصول إليه سلك سبيله؛ ومن اهتدى فإنما يهتدي به، والضال هو الذي يزيغ عنه.

إن هذا الكتاب هو مظهر هداية الله التامة. وصراط العروج في مراتب الكمال. فإن كل آية فيه تمثّل درجة من درجات الجنة التي حَوت كل كمال على نحو الإطلاق.

وإن من ضرورات شريعة الإسلام التمسك بالقرآن، لأنه مصدر التشريع وحافظ العقيدة وملهم الأرواح. فمن تركه، فقد ترك دينه وأعرض عن الله. ولهذا، كان التمسك بالقرآن باب الدخول إلى الدين، لأنه سند النبوة الخاتمة والمعجزة الإلهية الخالدة، والحجة على العالمين.

وسوف تظهر جميع المقامات الإنسانية والمراتب الكمالية ذات يوم بصورة آيات القرآن. فكل كمال يناله الإنسان هو في حقيقة الأمر والباطن الذي خفي عن المحجوبين، آية قرآنية، وإليه الإشارة في الحديث النبوي أنه يقال لقارئ القرآن إقرأ وارق. فعن رسول الله ﷺ قال:

"إذا جاء يوم الحساب قيل لقارئ القرآن إقرأ وأرقَ. فلا يكون في الجنة من الدرجات إلا بعدد آيات القرآن الكريم".

وحقيقة القرآن التي يصل إليها الأولياء هي النور الخالص والكمال المطلق. فعن رسول الله ﷺ أنه قال:

"القرآن غنى لا غنى دونه ولا فقر بعده".

وعن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

"واعلموا أنه ليس على أحد بعد القرآن من فاقة ولا لأحد قبل القرآن من غنى، فاستشفوه من أدوائكم واستعينوا به على لأوائكم فإن فيه شفاء من أكبر الداء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال. فاسألوا الله به وتوجهوا إليه بحبه ولا تسألوا به خلقه.." [نهج البلاغة].

"للقرآن ظاهر وباطن ولباطنه باطن إلى سبعين بطن" هذا الحديث الشريف يشير إلى أن للقرآن حقائق أخرى غير هذا الظاهر الذي نراه. هذه الحقائق ليست من سنخ الألفاظ والمصطلحات، وفوق عالم المفاهيم والكليات، إلى أن يصل الأمر إلى معدن الوجود. فهو حقيقة عالم التكوين الذى هو مظهر الكمال المطلق.

إن القرآن هو الشافي لأمراض النفوس والمزيل لأمراض القلوب. فهو إكسير السعادة في الدارين. ومن أراد تطهير باطنه من الأمراض والرذائل الأخلاقية، فليتمسّك به. كيف لا؟ وفيه الشفاء من أكبر الداء وهو الكفر. ومن جعله وراءه قاده إلى النار. أي من أعرض عنه أو تقدم عليه بآرائه وأحكامه، ومن استقل شأنه أو قدم غيره عليه فقد استصغر عظمة الله!

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

"من قرأ القرآن فكأنما أُدرجت النبوة بين جنبيه إلاّ أنه لا يوحى إليه".

وعن رسول الله ﷺ:

"إن أكرم العباد إلى الله بعد الأنبياء العلماء ثم حملة القرآن، يخرجون

من الدنيا كما يخرج الأنبياء، ويحشرون من قبورهم مع الأنبياء ويمرّون على الصراط مع الأنبياء ويأخذون ثواب الأنبياء. فطوبى لطالب العلم وحامل القرآن مما له عند الله من الكرامة والشرف".

وعن أمير المؤمنينعليه السلام:

"وتعلّموا القرآن فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب واستشفوا بنوره فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص وإن العالم العامل بغير علمه كالجاهل الحائر الذي لا يستفيق من جهله بل الحجة علَيه أعظم والحسرة عليه ألزم وهو عند الله ألوم".

وعن رسول اللهصلى الله عليه وآله قال:

"تعلّموا القرآن واقرأوه واعلموا أنه كائن لكم ذكراً وذخراً، وكائن عليكم وزراً. فاتبعوا القرآن ولا يتبعنّكم. فإنه من تبع القرآن تهجّم به على رياض الجنّة، ومن تبعه القرآن زجّ في قفاه حتى يقذفه في جهنّم".

وعن معاذ بن جبل قال: كنا مع رسول اللهصلى الله عليه وآله في سفر، فقلت: يا رسول الله حدِّثنا بما لنا فيه نفع، فقال:

"إن أردتم عيش السعداء وموت الشهداء والنجاة يوم الحشر والظل يوم الحرور والهدى يوم الضلالة فادرسوا القرآن، فإنه كلام الرحمن وحرزَ من الشيطان ورجحان في الميزان".

وعنه صلى الله عليه وآله:

"أنا أول وافد على العزيز الجبار يوم القيامة وكتابه وأهل بيتي".

وكذلك قال صلى الله عليه وآله:

"يقول الله عزّ وجلّ: يا حملة القرآن تحببوا إلى الله تعالى بتوقير كتابه يزدكم حباً ويحببكم إلى خلقه".

وبهذه البيانات، وعشرات غيرها، تَبيّن لنا:

1. أن القرآن أساس الدين وباب الإسلام الذي هو طريقة السير إلى الله تعالى.

2. أن القرآن يحوي جميع مراتب الكمال ودرجات القرب.

3. وأنه يهدي إلى الكمال المطلق، ويأخذ بيد الإنسان سالكاً به مراتبه.

4. وأنه يشفي من جميع الأمراض القلبية ويزيل جميع الرذائل الأخلاقية.

5. وأنه يزيد الإنسان إيماناً ويقيناً.

والنتيجة الكلية التي نخلص إليها هي أن القرآن المجيد كتاب السفر إلى الله ودليل الوصول إليه. وعليه يمكن القول بأن جميع الأعمال والعبادات في الإسلام تهدف إلى توطيد علاقة المؤمن بالقرآن الكريم. وليس الرجوع في الدنيا إلى الله إلا بالرجوع إلى كتابه. يقول الإمام الخميني قدس سره: "وهذا الكتاب الشريف هو الكتاب الوحيد في السلوك إلى الله، والكتاب الأحدي في تهذيب النفوس وفي الآداب والسنن الإلهية، وهو أعظم وسيلة للربط بين الخالق والمخلوق". [معراج السالكين].

وإن جميع الكتب التي صنفت ولا تزال في العرفان والسير والسلوك والمعارف الإلهية، إنما تكتسب قيمتها من مدى قربها من كتاب الله تعالى. وينبغي أن تكون بمنزلة المفسّر أو المبيّن لآياته وتعاليمه.

وإذا لم نتعامل مع جميع البرامج والطروحات الدينية والمناهج الفكرية على هذا الأساس لن نهتدي إلى المطلوب، وسنبتعد عن الغاية النهائية. فالهدف النهائي هو الوصول إلى الله. والله سبحانه قد تجلّى لخلقه في كتابه بأعظم تجلٍّ وأعلى ظهور. فكان الوصول إليه في الوصول إلى حقيقة كتابه.

ليس الهدف هو تحصيل المعارف وكشف أسرار الوجود، ولا عبور مراتب الكمال. إنه ليس سوى الله. الله فقط ولا غير. ﴿قل الله ثم ذرهم﴾؛ وكل مطلوب إنما يُطلب لأجله. فهو غاية كل مطلوب ونهاية كل مأمول. قال الله تعالى:

﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نُزّل إليهم ولعلّهم يتفكرون﴾.

إن جميع أعمال النبي وآله وتضحياتهم التي لا تقدّر إنما كانت لأجل تحكيم أسس القرآن في المجتمع، وجعله الكتاب الهادي للبشرية. ولم يكن لديهم هدف آخر.

كل تحركاتهم كانت من أجل أن يصبح القرآن المصدر الأوحد للتشريع والفكر والروحانية والكمال. ومن أراد الاقتداء بهم حقاً فليعمل عملهم، وأول شيء أن يبدأ بنفسه.

إن عنوان الدخول إلى ساحة القرآن المقدسة، والوسيلة الوحيدة للسير في آياته هي القراءة. وإذا اجتمعت القراءة مع تلك التوجهات القلبية النابعة من المعرفة بمقامه العظيم، حصل المطلوب من نزول هذا الكتاب المقدّس.

يقول الإمام الخميني قدس سره:

"وبالجملة، فالمطلوب من قراءة القرآن انتقاش صورته في القلوب وتأثير أوامره ونواهيه ودعواته. وهذا المطلوب لن يحصل إلا إذا لحظت آداب القراءة فيه..". [آداب الصلاة].

وليس المقصود من آداب القراءة أعمال تضاف عليها. بل القراءة الواعية الهادفة. القراءة التي يمارسها العقلاء عندما يبحثون فيما يقرأونه عن المعاني المقصودة والهدف من ورائها، ويستحضرون شخصية الكاتب وموقعيته في حياتهم.

مقام الاسم الأعظم هو مقام جمع الأسماء والصفات. ويقصد به أن جميع الصفات الإلهية يمكن أن تشاهد في مقام لا يرى فيه أي تعدد بينها. وهذا هو شهود حقيقة الصفات والأسماء. لأن الاسم في حقيقته هو عين الاسم الآخر. فالرحيم هو عين القدير وهو عين العليم وهكذا. ففي هذا المقام يصل العارف إلى حيث لا يرى تعدداً بل الكل مندك في الكل. وهذا المقام أعلى من أي مقام آخر.

آداب قراءة القرآن:

ونحن سنقتبس هذه الآداب من المعلّم الكبير والحامل لراية القرآن في عصر الغيبة، الذي تمسك به، فقاده إلى النصر العظيم، وأقام به صرح الجمهورية الإسلامية. وقد عبّر عن سرّ ذلك بقوله قدس سره: "إن سر الانتصار هو في القرآن ووحدة الكلمة".

1. التعظيم:

التعظيم أدب يمارسه عقلاء الدنيا بالوجدان، وينشأ من خلال إدراك عظمة شيء أو شخص، حيث يظهر في حركات أعضائهم وأقوالهم وأفعالهم. إنه أمر وجداني فطري مغروز في طبيعة البشر. وإدراك عظمة الشيءٍ يقتضي وجود مبادئ ومعان للعظمة في النفس والذهن. ولهذا قد يعظّم قوم شيئاً يستحقره آخرون بسبب ما يٍعتقدونه ويؤمنون بعظمته. وقد يصل الأمر بالناس إلى درجة يعظّمون فيها المغنِّين والراقصات والطواغيت والأشرار. ومع اختلافهم في تحديد العظماء، فهم متوافقون في نوعية وممارسة التعظيم بالإجمال. ومن خلال التأمل في حياة المجتمعات، حتى البدائي منها، نجد حالة التعظيم وأشكاله سارية فيها.

ولهذا، فإذا رأينا شخصاً لا يعظم عظيماً، فهذا إما لأنه جاهل بعظمته وإما لأنه شقي. ولا يوجد أسوأ من الشقي حالاً.

ومن هنا، نستطيع أن نعرف منزلة القرآن فينا من خلال تصرفاتنا معه وعندما نسمع تلاوته في بيوتنا، وفي المجالس التي يتلى فيها، وعندما نقابل حملته و..

فإذا طلب منا أن نصفه بعدة كلمات، هل نستطيع أن نعبر عن حقيقته؟!

هل يمكن للإنسان العادي أن يحيط بعظمة القرآن، فيعظمه حق تعظيمه؟

عظمة كل شيء في الحقيقة (وليس في اعتبار الناس الذي غالباً ما ينشأ من العقائد المنحرفة والأهواء المضلة) ترجع إلى كماله، وإلى مرتبته الوجودية. ولأن القرآن هو الكمال المطلق ومظهر أسماء الله وصفاته، فإننا عاجزون عن الإحاطة به، وغاية ما ندركه فيه هو أننا لن ندركه أو نحيط بعظمته. فهذا أكبر تعظيم قلبي. يقول الإمام:

"إن الله تبارك وتعالى لسعة رحمته بعباده أنـزل هذا الكتاب الشريف من مقام قربه وقدسه، وتنزل به على حسب تناسب العوالم حتى وصل إلى هذا العالم الظلماني وسجن الطبيعة وصار على كسوة الألفاظ وصورة الحروف، لتخليص المسجونين في سجن الدنيا المظلم، وخلاص المغلولين بأغلال الآمال والأماني، وإيصالهم من حضيض النفس والضعف والحيوانية إلى أوج الكمال والقوة والإنسانية، ومن مجاورة الشيطان إلى مرافقة الملكوتيين، بل الوصول إلى مقاصد أهل الله ومطالبهم". [معراج السالكين]

فقد حوى هذا الكتاب الحكيم جميع مراتب العظمة الممكنة في أي كتاب.

فمنزّله وكاتبه على الحقيقة هو الله سبحانه، جامع كل صفات الجمال والجلال على الإطلاق الذي عجزت العقول عن إدراك كنه عظمته. فلا يمكن الإشارة إليه بعين أو اسم أو رسم لأنه أكبر من أن يوصف.

وعن أمير المؤمنين‏ عليه السلام قال: "**إن الله تجلى لخلقه في كتابه ولكن لا يبصرون**".

وحامله هو جبرائيل أمين الوحي وسيد الملائكة، وهو الذي عند ذي العرش مكين.

أما شارحه ومبيّنه فهو الرسول الأعظم صاحب المقام الأكرم أعظم خلق الله وأفضل أنبيائه ورسله، وخلفاؤه العظام أصحاب السر المكنون والمقام المصون الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهّرهم تطهيراً.

أما وقت تنزيله فهو ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر.

وإن التفكر في كل واحد من أركان عظمة القرآن كفيل بأن يوصل الإنسان إلى الصعق والمحو ثم يفيق به ويصحو وقد زالت عنه جميع مراتب الأنانية.. فإن هذه المعرفة غاية آمال العارفين.

ونحن المحجوبون المحرومون من جميع مراتب تلك المعرفة وقد أقفلنا على قلوبنا أبواب التعظيم، لا ينبغي أن نيأس بل نلقّن القلب بتبع الفكر بعض مراتبها على نحو الإجمال.. فلعله يُفتح لنا باب على حقيقة العظمة أو رشحة من آثارها. وما لم نكن من أهل الفكر والمعنى فعلى الأقل نقوم بالتصرف بها كما يتصرف العارفون. نقلدهم لأنهم أئمتنا وقدوتنا وهداة طريقنا. فإنه يوشك أن ننال شيئاً من لطائف برّه وإحسانه.

إن كل كلام يستبطن روح متكلمه. والهدف من القراءة، الانتقال من ظاهر القرآن إلى باطنه ومن باطنه إلى الباطن الذي يليه حتى الوصول إلى معدن العظمة بخرق جميع الحجب النورانية. فعن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: "**ما زلت أردد هذه الآية حتى سمعتها من المتكلم بها**". ولا يمكن أن يحصل هذا الانتقال في قراءة القرآن إلا مع استحضار عظمة المتكلّم والحضور عنده، بدءاً من حضور الجوارح والأعضاء على هيئة الوقار والتعظيم، مروراً بالطهارة الظاهرية، إلى الطهارة الباطنية التي هي هيئة الحضور في عالم الباطن. قال الله تعالى: ﴿**لا يمسه إلاّ المطهرون**﴾.

2. رفع الموانع وإزالة الحجب

إذا علمنا أن التمسك بالقرآن تكليف أساسي يعطي جميع الأعمال قيمتها وهويتها الإلهية، وأردنا البدء بأداء هذا التكليف، سنجد أحياناً

أن بيننا وبينه حجاباً غليظاً ومانعاً نفسياً كبيراً يسد علينا طريق الإقبال عليه أو تحصيل الفوائد الموعودة منه. فهذا الكتاب الإلهي وعدُ الله بالرحمة المطلقة والهداية الشاملة لكل من تمسك به:

﴿.. قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم﴾.

ومع ذلك فغالباً ما لا نلحظ هذه الآثار التي وعدنا الله بها في أنفسنا إذا قرأنا القرآن.. فهل أن هذا القرآن الذي بين أيدينا هو غير القرآن الحقيقي؟

أم هل أن وعد الله يمكن أن يخلف؟ أم ماذا؟

إن القرآن محفوظ ومصان من أي تحريف بيد الله سبحانه. والله تعالى لا يخلف وعده.

لهذا فإن المشكلة ترجع إلى تقصيرنا ونقصاننا. فالله تعالى يقول **﴿من اتبع رضوانه﴾** وهو شرط لتلك الهداية العظيمة التي ستنتهي إلى الله: **﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾**. أما نحن فلم نراع شروطه التي تتطلب منا الطهارة المعنوية: طهارة الضمير والفكر والقلب. يقول الإمام:

حيث أن النفس هي سلطان البدن، فإن الأعمال ليست إلاّ تجلي إرادة النفس. والعمل في عالم الطبيعة يرى في هيئته المادية الفيزيائية. وفي عالم الملكوت يرى بحقيقته الملكوتية وهكذا.

"فاللازم على المتعلم والمستفيد من كتاب الله أن يجري أدباً آخر من الآداب المهمة، حتى تحصل الاستفادة. وهو رفع موانع الاستفادة. ونحن نعبّر عنها بالحجب بين المستفيد والقرآن". [آداب الصلاة].

فكل دنس أو رجس باطني مانع من عبور نور القرآن إلى الباطن، واختلاط حقائقه وهدايته بلحم الإنسان ودمه. وأما سبب حصول مثل هذا الاختلاط في وجود الشباب، كما في الحديث: "**إذا قرأ المؤمن القرآن في شبابه اختلط بلحمه ودمه**"، فذلك لأن قلب الشاب يكون صافياً

مقارنة بالكهول والشيوخ، ويكون لطيفاً قابلاً للتصفية.

ولا بأس أن نشير إلى أهم الحجب التي تلوّث باطن الإنسان، فتمنعه من تحصيل الاستفادة المطلوبة من القرآن الكريم، عسى أن يكون ذلك مقدمة لإزالتها والقضاء عليها:

أ- حجاب رؤية النفس مستغنية:

يقول الإمام الخميني قدس سره: "من الحجب العظيمة حجاب رؤية النفس، فيرى المتعلم نفسه بسبب هذا الحجاب مستغن أو غير محتاج للاستفادة وهذا من أكبر المكائد المهمة للشيطان حيث أنه يزيّن للانسان دائما الكمالات الموهومة ويرضي الانسان ويقنعه بما فيه ويسقط من عينه كل ما ليس بحوزته، مثلا يقنع أهل التجويد بذاك العلم الجزئي ويزيّنه في أعينهم ويسقط سائر العلوم من أعينهم ويطبّق معنى "حملة القرآن" عليهم، ويحرمهم من فهم الكتاب الالهي النوراني والاستفادة منه، ويرضي أصحاب الادب [اللغوي] بتلك الصورة الفاقدة للّب، ويمثّل جميع شؤون القرآن بما عندهم، ويشغل أهل التفاسير المتعارفة بوجوه القراءات والآراء المختلفة لارباب اللغة ووقت النزول وشأن النزول و كون الآيات مكية أو مدنية و تعدادها و تعداد الحروف وأمثال تلك الامور. ويقنع أهل العلوم أيضا بعلم فنون الدلالات فقط ووجوه الاحتجاجات وأمثالها حتى أنه يحبس الفيلسوف والحكيم والعارف الاصطلاحي في الغليظ من حجاب الاصطلاحات والمفاهيم وأمثال ذلك". [معراج السالكين].



إن التدبر في نفس القرآن يبين فساد هذا الحجاب وخطورته. فالأنبياء العظام والأولياء الكرام ما اقتنعوا يوماً بما وصلوا إليه بالرغم من مقاماتهم الشامخة ودرجاتهم الرفيعة، وهذا سيدهم حبيب إله العالمين يؤمر من جانب الحق تعالى: ﴿وقل رب زدني علماً﴾.

ب. حجاب الآراء الفاسدة والمذاهب الباطلة:

منذ صدر الإسلام وإلى يومنا هذا، والتحريفات المتعمّدة والمغفلة

تنصبّ على كتاب الله. ويعرض كل تيار بضاعته الكاسدة في أسواق المسلمين لتتبعه فرقة وتحيد عنه أخرى. فالقرآن كان ولا يزال أقدس المقدسات عند المسلمين. ولهذا وجد المنحرفون فيه فرصة لتحقيق مآربهم من خلال تفسير بعض آياته وتوجيهها بما يحلو لهم.

ومن جانب آخر، ونتيجة سوء استعداد الكثيرين والتبعية العمياء ورسوخ العادات والتقاليد الباطلة، استُغلت الآيات القرآنية لإضلال الناس وإبقائهم على ما هم عليه من تخلف وضياع.. ولهذا، لم يتحقق الهدف الرئيسي الذي أنزل القرآن من أجله، وهو إخراج الناس من جميع أنواع الظلمات إلى النور الخالص.

فالحكام الظَلمة من جهة، والمستفيدون من خنوع الجماهير من جهة أخرى، قاموا بإلقاء مجموعة من الآراء الفاسدة والأفكار الباطلة حول القرآن الكريم، جعلت الاستفادة المطلوبة منه بعيدة المنال. وبهذا أضحى القرآن غريباً مهجوراً. ومن جملة ما ألقوه في هذا المجال أن معرفة الله تعالى غير متيسرة لأحد، وأن هذه المعرفة من المستحيلات. فيقول الإمامقدس سره:

"فمما يوجب الأسف الشديد حقاً أن باباً من المعرفة الذي يمكن أن يقال عنه بأنه غاية بعثة الأنبياء ومنتهى مطلوب الأولياء قد سدوه على الناس بحيث أصبح التفوه به محض الكفر والزندقة"!!

وعشرات الإلقاءات الأخرى التي سدت الطريق على الإنسانية، وحالت دون الاستفادة الواقعية من القرآن.

ج. حجاب "شبهة التفسير بالرأي"

ومن الحجب المانعة من الاستفادة من هذه الصحيفة النورانية الاعتقاد بأنه ليس لأحد حق الاستفادة من القرآن الكريم إلاّ بما يكتبه المفسرون أو يفهمونه. وقد اشتبه على الناس التفكر والتدبر بالتفسير بالرأي الذي جاء المنع عنه في الروايات "**من فسر القرآن برأيه فليتبوأ**

مقعده من النار".

وبواسطة هذا الرأي الفاسد والعقيدة الباطلة جعلوا القرآن عارياً من جميع أوجه الاستفادة واتخذوه مهجوراً بالكلية، في حين أن الاستفادات الأخلاقية والايمانية والعرفانية لا ربط لها بالتفسير، فكيف بالتفسير بالرأي. فمثلاً، إذا استفاد أحدنا من قوله تعالى في قصة موسى والخضر(عليهما السلام): ﴿هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾ التواضع للأستاذ والمربي، وضرورة جعل التعلم لأجل الوعي والنباهة، لا يكون قد فسر القرآن، أو فسّره برأيه. فأي ربط لهذا بالتفسير حتى يسمى بالتفسير بالرأي أو لا؟!

وللإمام الخميني قول حول معنى التفسير بالرأي المذكور في الحديث؛ وهو أن التفسير المنهي عنه لا يرتبط بآيات المعارف والحقائق العقلية التي توافق الموازين البرهانية، ولا يرتبط بالآيات الأخلاقية. فمن المحتمل ـ والكلام للإمام ـ بل المظنون أن التفسير بالرأي الذي ورد النهي عنه راجع إلى آيات الأحكام الشرعية التي تقصر عنها أيدي العقول والآراء، ولا بد أن تؤخذ من خُزّان الوحي ومعادن التنزيل وبيوت العصمة.

"اللهم وأدم بالقرآن صلاح ظاهرنا، واحجب به خطرات الوساوس عن صحة ضمائرنا واغسل به درن قلوبنا وعلائق أوزارنا". [الإمام السجاد(ع)]

وإذا اعتقد أحدنا بمثل هذه الشبهة، فإنه سيحرم نفسه من الاستفادة المرجوة ويكون مثالاً لقوله تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾.

د. حجاب الذنوب والمعاصي:

لا بد أن نلتفت بداية إلى أن لكل عمل من الأعمال ـ صالحها أو سيئها ـ صورة في عالم الملكوت تتناسب معه، وله صورة وانتقاش في النفس أيضاً؛ فإما النورانية وإما الكدورة والظلمانية. وعندما تصدر المعصية من الإنسان، ويتمادى في الذنوب، يدنس قلبه ويظلِم ويقع بالتدريج تحت سلطة الشيطان، فيصبح المتصرف فيه إبليس وجنوده.

وعندها تصبح سائر القوى التابعة، كالسمع والبصر، تحت تصرف هذا الخبيث وينسد السمع عن المعارف والمواعظ الإلهية، فلن ترى العين الآيات الباهرة بل تعمى عن الحق وآثاره. مثلما قال تعالى:

﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل﴾.

إن القلب محل انعكاس أنوار القرآن. فإذا كان المحل متكدراً بظلمة الذنوب ومحجوباً بحجاب المعاصي، لن يرى من القرآن سوى الألفاظ والحروف، بل قد يؤدّي ذلك إلى عدم رؤية القرآن كلياً.

هـ. حجاب حب الدنيا

ومن الحجب الغليظة التي هي ستر غليظ بيننا وبين معارف القرآن ومواعظه، حب الدنيا.

هذا التعلّق يصرف القلب عن القرآن ويجعل تمام همته في الدنيا، فيغفل عن ذكر الله. وكلّما ازداد التعلق بالدنيا وشؤونها ازداد حجاب القلب ضخامة، فينسى صاحبه كل خير حقيقي وجمال معنوي ولا يرى الكمال إلاّ في الدنيا والمادة. ولأن القرآن دعوة إلى الآخرة والكمالات المعنوية، فإن الطالب للدنيا قد يراه مخالفاً لمشتهياته ورغباته وسداً أمام تحقيق مآربه فتنفر النفس منه وتعرض عنه. وهذه عاقبة الإقبال على الدنيا وزينتها.

والمهم بعد التعرف الإجمالي على هذه الحجب الشائعة أن نكتشفها في أنفسنا ونسعى لإزالتها، لأنها ستبقى المانع الأكبر أمام سطوع أنوار القرآن في قلوبنا وحصول التمسك بدرجاته المطلوبة.

3. فهم مقاصد القرآن

هذا الأدب عبارة عن التوجه والبحث عن مقصد الآية، ليكون هذا مقدمة لأمر آخر وهو التدبر. ولا شك بأن المقصد الأساسي للقرآن

الكريم ولكل آياته هو هداية الإنسان إلى كماله الحقيقي. "فلو ادعى أحد بأن الهدف النهائي للقرآن هو صناعة الإنسان الكامل وإعداد الإنسان الموحد الخالص، وأن جميع آياته هي شرح وتفصيل لآية خلافة الإنسان الكامل فإن هذا الادعاء ليس جزافاً"، العلامة جوادي الآملي في تفسيره.

هذا الهدف تتفرّع منه أهـداف أُخـر تكون بمنزلة المقدمات أو الشؤونات والتفاصيل وقد وزعت على آيات القرآن. فمن أراد التدبر بشكل صحيح عليه أن يتجسس المقصد من الآية، ويتعرّف على ما أريدَ منه. وقد استخرج الإمام قدس سره سبعة مقاصد أساسية في القرآن المجيد، وهي:

أ. الدعوة إلى معرفة الله.

ب. الدعوة إلى تهذيب النفوس.

ج. قصص الأنبياء والأولياء وكيفية تربيتهم.

د. ذكر أحوال الكفار والجاحدين وعاقبتهم.

هـ بيان قوانين ظاهر الشريعة والآداب والسنن.

و. ذكر أحوال المعاد واليوم الآخر.

ز. الاحتجاجات الربانية على الناس.

أ- الدعوة إلى معرفة الله تعالى:

أول هذه المقاصد الدعوة إلى معرفة الله وتوحيده، وبيان الحقائق الإلهية من شؤون الذات والأسماء والصفات والأفعال. وهذه الشؤون جميعاً تندرج تحت التوحيد. وجميع أسرار التوحيد مجموعة في القرآن وظاهرة في سوره وآياته. ولهذا لم يبقَ شأن أو درجة من المعرفة بالله إلا وأدرجت فيه.

ومن خصائص هذه الدعوة أنها تتدرج بالإنسان من أسفل

المراتب إلى أعلاها. لهذا، كان القرآن كتاب هداية الضالين، وميدان صعق الأبرار.

ب- الدعوة إلى تهذيب النفوس:

إن من أسمى المقاصد القرآنية تطهير النفوس من جميع الأرجاس والأمراض لتحصيل السعادة والوصول إلى مقام لقاء الله تعالى. والدعوة إلى هذا السفر تنقسم إلى شعبتين:

الأولى: التقوى بجميع مراتبها، بما فيها التقوى من غير الحق والإعراض عما سواه.

الثانية: الايمان بتمام مراتبه. وفيه الإقبال على الحق والإنابة إليه.

فالقرآن مستودع التقوى والايمـان بجميع مراتبهما. ولهذا كان الكتاب الأعظم في السير والسلوك وتهذيب النفوس.

ج- ذكر الأنبياء وكيفية تربيتهم

ومن جملة مقاصد القرآن بيان كيفية صناعة الإنسان الكامل وما يجري عليه في هذا العالم، وما هو دوره ووظيفته لأنه أسوة للناس وقدوة.

ففي قصة آدمﷺ والأمر بسجود الملائكة وتعليمه الأسماء وما جرى عليه في الجنة وغيرها من الحوادث ما يخلب الألباب. فقد بيَّن الحق تعالى الهدف من خلق الإنسان. وسر نزوله إلى هذا العالم وعرّفنا على العدو الحقيقي، و..



وأهل المعرفة يدركون من الآية الشريفة ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً..﴾ كيفية سلوك إبراهيمﷺ وسيره المعنوي..

فهذا المقصد يفتح للمتدبر أبواب المعارف الكبرى بمعرفة الإنسان الكامل وشؤوناته.

د- أحوال الكفار والجاحدين

وفي هذا المقصد فائدة عظيمة وحكمة هادية، أشار إليها أمير المؤمنين‰ بقوله: "**إنكم لن تعرفوا الرشد حتى تعرفوا الذي تركه**". فعلى سبيل المثال: لا يمكن معرفة الكثير من حقائق التوحيد إلاّ بمعرفة الشرك ودرجاته. لأن عبور مراتب التوحيد عبارة عن التخلص من درجات الشرك.

وإليه الإشارة في قول الإمام الصادق‰: "**إن بني أمية علّموا الناس التوحيد ولم يعلموهم الشرك حتى إذا حملوهم عليه (أي على الشرك) لم يقوموا عليهم**".

فمعرفة أحوال الكفار والجاحدين من أمثال فرعون وقارون ونمرود وأصحاب الفيل، تشتمل على حكم بالغة. وقد ذكر القرآن أحوال بني إسرائيل الذين اشتهروا بالعناد ومخالفة النبيين وتوسّع فيها، لحكمة أشار إليها رسول الله‰ بقوله "**إنكم ستحذون حذو بني إسرائيل حذو النعل للنعل ولو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**". وعندما نقرأ مثل هذه القصص ثم نطلع على أمة الإسلام، وما فعلته بعترة رسول الله الطاهرة نقترب من هذا الحديث، ونعرف لماذا آل وضع المسلمين اليوم إلى مثل هذا الضياع.

ومن فوائد ذكر هذه الأحوال معرفة أسباب نشوء الكفر والانحراف في حياة الأفراد والأمم. وهي أسباب تحيط بكل واحد منا وإن اختلفت العصور. وعلى سبيل المثال، ذكر قصة قارون الذي بلغ من الثراء المادي ما يعجز عن وصفه الخيال وقد أهلكه الله تعالى. ولم يكن هذا العقاب بسبب حيازة الأموال الطائلة، بل لأنه كان يبارز الله في قدرته ويشرك به في عطائه ورازقيته قائلاً: ﴿**إنما أوتيته على علم عندي**﴾. فهذا هو سبب هلاك الإنسان مهما كانت ثروته. ويحدثنا القرآن في موضوع آخر عن هذا المرض القاروني بقوله تعالى: ﴿**فإذا مس الإنسان ضر دعانا ثم إذا خولناه نعمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون**﴾.

هـ- بيان قوانين الشريعة وآدابها

إن القرآن هو المصدر الأول للتشريع ومعيار صحة ما اشتبه علينا من السنّة. وقد حوى جميع أحكام الشريعة بصورة كلية مع شيء من التفصيل في الظاهر، وبصورة تفصيلية شاملة في الباطن. ولا يعلم الصورة الثانية إلاّ المعصوم الذي لو شاء لأظهر جميع أحكام الشريعة وآدابها من القرآن الكريم.

و- أحوال المعاد واليوم الآخر:

أما ذكر الدار الآخرة فإنه من أعظم المقاصد القرآنية. لأن هدف الأنبياء كان توجيه وجهة الإنسان نحو الآخرة التي هي الحياة الحقيقية. ولهذا كان هذا الذكر – الذي ورد في القرآن كثيراً – عاملاً لتخليص نفوس كبار الأنبياء كما حكى الحق تعالى بقوله: **﴿إنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار﴾**. وقد ذكر أن ثلث القرآن يتعلّق بالآخرة وأحوالها وحقائقها..

ز- الاحتجاجات الربانية

ومن مقاصد هذه الصحيفة الربانية الاحتجاج على العباد بإقامة البراهين والآيات الدالة عليه وعلى حقائق الدين، والتي هي الحجة التامة على الناس أجمعين.

يقول الإمام الخميني:

"فإذا التفت المسلمون في العالم إلى مراد الأنبياءعليهم السلام الذي جاءت عصارته في آخر صناعة للإنسان وهي القرآن الكريم، هذا الكتاب الهادي الذي سطع من مبدأ النور "الله نور السموات والأرض" على مشكاة القلب النوراني لخاتم الرسلصلى الله عليه وآله ليخلص قلوب الناس من حجب الظلام إلى النور، وينور العالم بالنور الأعلى، فإذا التفتوا إلى ذلك، لن يقعوا في أسر الشياطين وأبنائهم".

4. التفكر

فمن عرف مقاصد القرآن الكريم، وأدرك أن كل مقصد يريد أن يأخذ بيده إلى المقصد الأسمى والغاية القصوى، عليه أن يراعي أدباً آخر وهو التفكر. والمقصود منه بتعبير الإمام "**أن يبحث عن المقصد من كل آية يقرأها**". قال الله تعالى: ﴿**وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم ولعلّهم يتفكرون**﴾. يقول الإمام: "**وفي هذه الآية مدح عظيم للتفكر، لأنّ غاية إنزال الكتاب السماوي العظيم قد جعلت في احتمال التفكر. وهذا من شدة الاعتناء به، حيث أن مجرّد احتماله صار موجباً لهذه الكرامة العظيمة**".

وقال عزّ من قائل: ﴿**فاقصص القصص لعلّهم يتفكّرون**﴾

والآيات من هذا القبيل أو ما يقرب منه كثيرة، والروايات التي وردت في التفكر أيضاً كثيرة جداً. فقد نقل عن الرسول الخاتم ﷺ أنه لما نزلت الآية الشريفة ﴿**أن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات..**﴾ قال: "**ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها**".

- "اللهم وجعلته شفاء لمن أنصت بفهم التصديق إلى استماعه، وعلم نجاة لا يضل من أمّ سَمته، ولا تنال أيـدي الهلكات من تعلّق بعروه وعصمته". [الإمام السجاد ﷺ]

يقول الإمام:

"وحيث أن مقصد القرآن، كما تذكر نفس الصحيفة النورانية، هو الهداية إلى سبل السلام والخروج من جميع مراتب الظلمات إلى عالم النور، والهداية إلى صراط مستقيم، كما قال سبحانه: ﴿**قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم**﴾، فلابد أن يحصّل الإنسان بالتفكر في الآيات الشريفة مراتب السلامة، من أدناها (أي للقوى الظاهرة الملكية) إلى أعلاها، وهي حقيقة القلب السليم كما ورد تفسيره عن أهل البيت ﷺ، وهو أن يلقى الله وليس فيه غيره. وتكون سلامة القوى الملكية والملكوتية ضالة قارئ القرآن. فإنها موجودة في

هذا الكتاب السماوي، ولا بد أن يستخرجها بالتفكر".

ثم يقول:

"والعمدة في هذا الباب أن يفهم الإنسان ما هو التفكر الممدوح، ولا شك بأن التفكر ممدوح في القرآن والحديث. ونقل عن الأنصاري صاحب منازل السائرين قوله "إن التفكر تلمس البصيرة لاستدراك البغية". يعني أن التفكر هو تجسس البصيرة، وهي بصيرة القلب للوصول إلى المقصد، وهو السعادة المطلقة التي تحصل بالكمال العلمي والعملي".

فإذا وجد القارئ المقصد، وتبصر في تحصيله، انفتح له طريق الاستفادة من القرآن الكريم، وفتحت له أبواب رحمة الحق. فإنه لا يصرف عمره القصير الفاني ورأس ماله على أمور ليست مقصودة في رسالة الرسول الأكرمﷺ.

وبالنسبة لمثل هذا الشخص، يصبح التفكر في القرآن بعد مدة أمراً عادياً. وتنفتح له طرق الاستفادة بشكل لم يسبق له مثيل. وحينئذٍ يفهم معنى كون القرآن شفاءً للأمراض القلبية.

برنامج عملي للتفكر في القرآن

قال الله تعالى: **﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا﴾**.

رغم أن التفكر أمر نفساني لا يمكن أن ينفصل عن الإنسان طوال حياته، فإن البعض يجدون في التفكر في القرآن صعوبة بالغة. وكلما حاولوا التفكر في آياته وجدوا آلاف الأفكار الأخرى تنهال عليهم من كل حدب وصوب، كل واحدة تمنعهم من التأمل والتدبر المطلوب.

ولأجل تحصيل ملكة التفكر الهادئ والمركز، ينبغي الالتفات إلى

المسائل التالية:

أ- ليس مجرد التفكر هو المطلوب، بل التفكر الهادف الذي يبحث فيه المفكر عن أمر ما.

ب- التفكر المركز يدل على الاهتمام. فإذا لم تكن مهتماً أو كان لديك ما هو أهم، لن تتمكن من تحصيل التركيز المطلوب.

ج- ويحتاج المفكر إلى مواد خام يستخدمها في عملية البحث عن ذلك الأمر المطلوب. وهذه المواد ينالها من خلال التعلم والمطالعة. وإذا كنت تريد التفكر في آية ما، فاقرأ حولها بعض التفاسير والروايات.

د- وانتبه إلى أن لإبليس تصرف في المجاري الذهنية. ولهذا، قد يصرف فكرك عن المعنى الحقيقي ويوهمك معنى آخر. ولهذا أمرنا الله تعالى بالاستعاذة منه. قال عزّ وجلّ: **﴿فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾**.

جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق‌عليه السلام:

"**إن هذا القرآن فيه منار الهدى، ومصابيح الدجى، فليجل جال بصره، ويفتح للضياء نظره، فإن التفكر حياة قلب البصير كما يمشي المستنير في الظلمات بالنور**".

يقول الإمام قدس سره: "ومقصوده عليه السلام أنه كما لا بد للإنسان من النور الظاهري عند المشي في الظلام حتى يصان من خطر السقوط في المزالق، كذلك لا بد له أن يمشي في ظلمات طريق السير إلى الآخرة وإلى الله بالقرآن، الذي هو نور الهداية والمصباح المنير في طريق العرفان والإيمان، كي لا يقع في الزلات المهلكة. وفي الحديث عن أمير المؤمنين‌عليه السلام:

"**الفقيه من لا يترك القرآن رغبة عنه ويتوجه إلى غيره.**

ألا لا خير في علم ليس فيه تفهم، ولا خير في قراءة ليس فيها تدبر، ولا خير في عبادة ليس فيها تفقه".

البرنامج العملي

هنا، خطوات عملية تساعد في جعل التدبر ملكة راسخة:

1. واظب على قراءة القرآن يومياً، واختر للقراءة أفضل الأوقات.

2. ضع تفسيراً ميسراً إلى جانبك للتعرف إلى معاني المفردات القرآنية الصعبة.

3. إذا أصابك غم أو حزن إقرأ القرآن، واطلب الشفاء منه لهمّك وغمك. تأكد تماماً وثق بوجود الشفاء.

4. إقرأ، ثم اختر بعض الآيات الصعبة أو التي تجد فيها معاني غامضة، ثم إبحث عن تفسيرها في أحد التفاسير المهمة (الميزان أو الأمثل، أو كنز الدقائق ..)



5. استمع إلى القرآن بإنصات تام، وشارك في جلسات القراءة.

6. أقم حلقات للتدبر مع مجموعة قليلة العدد من الذين تنسجم معهم في المستوى الثقافي والاهتمام. واجعلوا إحدى السور محور بحثكم على أن توزع الأدوار على الجميع، كما توزع التفاسير والمطالعات.

وعندما تصلون - على سبيل المثال - إلى الآية الشريفة: **﴿أتجادلونني في أسماء سمَّيتموها أنتم وآباؤكم..﴾**، فلتطرح الأسئلة حول هذا الجدال، ولماذا استنكره النبي، وكيف تشارك الآباء والأبناء في التسمية، وكيف يحصل الجدال في الأسماء، وكيف ترتبط الآية بواقعنا و..

5. التطبيق

تبين الآية المباركة **﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين * يهدي به الله من**

اتبع رضوانه..﴾ أن تحقق الهداية القرآنية موقوف على الإتباع والعمل.

فليس القرآن مجرد كتاب حوى المعارف والمفاهيم. كما أن هدفه لم يكن تزويدنا بالمعلومات وزيادة علومنا. إن الهداية وإن كانت موقوفة على العلم والمعرفة، لكنها أمر أعلى. فهي عبارة عن التكامل الحقيقي الذي يعبر عنه بعبور مراتب الوجود. وبتعبير القرآن تكامل وزيادة نور الإنسان. وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿ربنا أتمم لنا نورنا..﴾ أي زدنا كمالاً وسعة في الوجود. وإن نور المعرفة الحاصل من القرآن حتى يرسخ في النفس، وتتحد النفس به، فيكون كمالاً لها، يجب أن يصبح منسجماً مع الباطن. فما دام النفور بين الباطن والنور، لن تناله النفس، ولن يكون حظاً لها. فالحل الوحيد هو أن نجعل الباطن معتاداً ومستأنساً بهذا النور، ويحصل الاستئناس، ومنه ينتقل إلى الشوق، ومن الشوق إلى الحب والعشق وهو الاتحاد. وإن طريق جعل الباطن معتاداً يكون من خلال التلقين وتكراره، وذلك يكون بالعمل. فإن العمل هو طريق تثبيت أنوار المعرفة والعلم في النفس والباطن.

يقول الإمام الخميني بأن جميع العلوم والمعارف الحقة هي معارف عملية حتى علم التوحيد. وإذا نظر القارئ إلى آيات القرآن بهذه النظرة، فسرعان ما سيكتشف هذه الحقيقة، ملتفتاً إلى أن كل آية تدعوه إلى العمل.

كيفيته:

فحينما يتفكّر القارئ في كل آية يمر عليها، عليه أن يستخرج مفادها العملي ويقوم بتطبيقه على نفسه.

مثلاً، إذا قرأ قصة آدمعليه السلام وما جرى عليه، وفكر في سبب مطرودية الشيطان من جناب القدس، مع تلك العبادات الطويلة والسجدات الكثيرة، وسأل نفسه لماذا أخرج الله تعالى إبليس من جوار قدسه، بعد أن كان في

مجمع الملائكة. سيعلم أن كثرة العبادة لا تشفع للإنسان، وإن الصفات الإبليسية التي هي التكبر والاستعلاء تكون سبباً للطرد والبعد.

فهذا العجب صار سبباً لحب النفس والاستكبار، وصار سبباً لعصيان الأوامر الإلهية والتمرد على الحق تعالى.

أما نحن، فربما نكون قد خطبنا ود إبليس من أول عمرنا، واتصفنا بأوصافه الخبيثة ولم نفكر في أن ما كان سبب طرده إذا كان موجوداً فينا، فنحن مطرودون أيضاً. وربما نكون شركاء إبليس في اللعن الذي نلعنه..

ومثال آخر: لنفكر في سبب امتياز آدم وأفضليته على الملائكة المقربين الذين كانوا من أهل التسبيح والتقديس والعبادة.. إن الملائكة بعد أن تساءلت عن خليفة الله المقبل، عرفها الله تعالى على صفة أساسية له وهي: **﴿وعلّم آدم الأسماء كلها﴾**. فما هي حقيقة تعلّم الأسماء؟ وإذا قال تعالى: **﴿.. يا آدم أنبئهم بأسمائهم﴾**، فما هو هذا الإنباء؟

هل أن واسطة التفهيم والتواصل مع الملائكة هي الألفاظ والمصطلحات؟ وهل أن الملائكة كانت تجهل بضعة حروف وكلمات؟!

فالتفكر في هذه الأسئلة يوصل القارئ إلى حقيقة أن هذا التعليم للأسماء هو التحقق بحقيقتها التي هي كمالات وجودية واقعية، والاسم في الحقيقة ظهور الكمال الواقعي، أما ما نعبر به عنه بالألفاظ فهو اسم الاسم. يقول الإمام: "الإنسان يستطيع أن يكون مظهراً لأسماء الله والآية الإلهية الكبرى بالارتياضات القلبية، حتى يصبح وجوده وجوداً ربانياً".

وإذا أدرك القارئ سر وجوده وهبوطه إلى الأرض، ربما يلتفت إلى ما أودع الله فيه، ويعلم أن الوصول إلى تلك الحقيقة التي من أجلها وجد إنما يكون بتعلّم الأسماء، وهذا ما لا يتيسر إلا بترك الأوصاف الإبليسية التي على رأسها العجب والتكبر.

ويقول الله تعالى في سورة الأنفال: **﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله**

وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون﴾. والقارئ يتفكر في هذه الأوصاف الثلاث. ويسأل هل تنطبق عليه؟ هل أن قلبه يوجل ويخاف إذا ذكر الله تعالى؟ وهل يزداد نور الايمان في قلبه عندما يستمع إلى كلام الله؟

فالمؤمن، بنص هذه الآية، هو الذي يشعر بالوجل والخوف عند ذكر الله لأنه يستحضر عظمته ويدرك جلالة حضوره. وفي المقابل، فإن الذي لا تظهر فيه هذه الصفات ليس بمؤمن حقاً. أو أنه لم يصل إلى الايمان المطلوب. ثم يلتفت القارئ بعد ذلك إلى أن إحدى طرق تحصيل الايمان والازدياد منه هي الاستماع إلى آيات الله. فيعلم أن ما ينقصه هو التوجه إلى القرآن وقراءته. يقول الإمام الخمينيقدس سره:

"فوظيفة السالك إلى الله أن يعرض نفسه على القرآن الشريف. فكما أن الميزان في صحة الحديث أو عدمها، واعتباره أو عدمه يكون بعد عرضه على كتاب الله فما خالف كتاب الله فهو باطل وزخرف كذلك الميزان في الاستقامة والإعوجاج والشقاء والسعادة هو أن يكون مستقيماً وصحيحاً في ميزان كتاب الله.. كذلك جميع معارفه وأحوال قلبه وأعمال الباطن والظاهر لا بد أن يطبقها على كتاب الله ويعرضها عليه حتى يتحقق بحقيقة القرآن، ويكون القرآن صورة باطنية له".

التحقق بالأسماء الإلهية يعني أن هذا الإنسان الذي كان في وقت ما مظهراً ناقصاً، نشاهد فيه الحياة المحدودة والقدرة المحدودة والعلم المحدود، يصل إلى مقام يمكن أن نشاهد فيه الحياة والقدرة المطلقة والعلم اللامتناهي..

قال رسول اللهصلى الله عليه وآله أيضاً:

"ومن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره الله يوم القيامة أعمى فيقول ربي لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى فيؤمر به إلى النار".

وروي في الخصال ومعاني الأخبار عن رسول اللهصلى الله عليه وآله أنه قال: **"حملة القرآن عرفاء أهل الجنة"** يقول الإمام الخميني: "ومن المعلوم أن المراد من هذا الحمل هو حمل معارف القرآن وعلومه، وتكون نتيجته في الآخرة أن

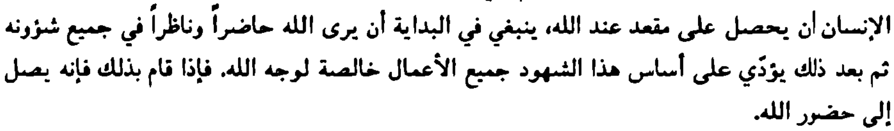
الحامل يكون في عداد أهل المعرفة وأصحاب القلوب. أما أن تحمل صورة القرآن دون الاتعاظ بمواعظه، وتحمل معارفه وحكمه دون العمل بأحكامه وسننه فهو كما قال تعالى: ﴿مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾.

والحديث عن الأدب السادس وهو التمسك بأهل بيت العصمة، سيأتي في الفصل التالي، والحديث عن الإخلاص وهو الأدب السابع ففي الذي يليه. والحمد لله.

لا طريق للخروج من ساحة ولاية الله

لا يوجد مقام اعظم من مقام "عند الله" بالنسبة للإنسان الكامل، حيث يرتقي الإنسان إلى أن يصل إلى حضور الله. وهذا أعلى مراتب السير التكاملي للإنسان وهو مفتوح للجميع أيضاً. فما هو الطريق الذي يوصله إلى المقام العظيم؟ وماذا نفعل لكي ننال هذا المقام؟

أهم مراحل هذا الطريق، هو أن نرى الله حاضراً في جميع شؤون حياتنا، حتى نتمكّن بهذا الشهود من السفر إليه فلا يصل العبد إلى حضور المولى إلا عندما يرى مولاه حاضراً وناظراً في جميع الأحوال إلى أعماله. فإذا حصل له ذلك فإنه لن يهم بأي عمل إلاّ وفق إرادته، وهذا ما يوصله إليه. لهذا إذا أراد الإنسان أن يحصل على مقعد عند الله، ينبغي في البداية أن يرى الله حاضراً وناظراً في جميع شؤونه ثم بعد ذلك يؤدّي على أساس هذا الشهود جميع الأعمال خالصة لوجه الله. فإذا قام بذلك فإنه يصل إلى حضور الله.



إحدى الآيات التي يعد الإلتفات إليها مؤثراً في طي هذا الطريق، الآية المباركة من سورة الحشر والتي أشرنا إليها سابقاً: ﴿يا أيها الذين آمنوا إتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله﴾.

فهذه الآية تدعونا إلى أصلين أخلاقيين، الأول: المراقبة؛ والثاني: المحاسبة. فكل إنسان مكلّف بمراقبة نفسه ومحاسبتها، فيراقبها في أفعالها وتصرفاتها وأقوالها ويحاسبها، فإذا عمل خيراً شكر الله وإذا عمل سوءاً استغفر الله وتاب إليه.

الآية الأخرى التي تلعب دوراً مؤثراً في طي هذا الطريق أيضاً، الآية الكريمة: ﴿وما تكون من شان وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾ فهي تخاطب خاتم الأنبياء ﷺ، ثم تنتقل إلى خطاب الناس مؤكدة على حضور الله وشهوده لكل أفعال البشر.

فليس الله شاهداً على أعمال النبي ﷺ وتبليغه فحسب، وليس الله شاهداً على أفعال المؤمنين في الدنيا فحسب، بل إنه شاهد على كل إنسان صالح أو غير صالح، فعل حقاً أم باطلاً، في أي زمان أو مكان، في الشرق أو الغرب في الأرض أو السماء.

فإذا أدرك الإنسان أنه في حضور الله تقدّست ذاته، سيسعى لأن يجعل كل أعماله موافقة لإرادة الله وخالصة لوجهه سبحانه. فالله يقول: ﴿وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلاّ كنا

عليكم شهوداً﴾ فليس الله هو الشاهد وحده، وإنما ملائكته وأولياؤه أيضاً. فالأئمة المعصومون شاهدون على أفعالنا. وسوف يأتي ذلك اليوم الذي سوف نشاهد فيه أعمالنا حاضرة لدينا. وهناك لن ينكر أحد ما فعله.

والقرآن الكريم يقول أن الملائكة شاهدون على أعمالنا وهم يسجلون كل ما يصدر منا وكذلك الأئمة المعصومين عليهم السلام وسوف يشهدون علينا يوم القيامة. والله شاهد فوق الجميع. وقوله تعالى: ﴿إذ تفيضون فيه﴾ يعني أنه شاهد على ما نهمّ به من عمل. فإذا فهم الإنسان مثل هذه المعاني وأدرك معنى حضور الله ورسوله الأكرم ﷺ وإمام الزمان عليه السلام، فإنه سوف يبذل قصارى جهده لكي لا يؤدي أي عمل إلا لوجه الله تعالى، هذا بالإضافة إلى اجتناب المعاصي والذنوب.

فالإنسان الذي يرتكب أعمال الحرام، لن يرى الله ورسوله ﷺ وإمام العصر عليه السلام في مقام الشهادة، لأنه غائب وأعمى.

وفي سورة التوبة المباركة آية تدل على أن الرسول الأكرم ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام يرون والله يرى بقوله تعالى: ﴿وقل إعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون﴾.

يروى أن الإمام الرضا عليه السلام قال عندما طرح عليه هذا الموضوع: **"نحن نشاهد كل عمل تعملونه"**. وقد استصعب الحاضرون هذا الأمر. فكيف يشاهد إمام زماننا وهو في بيته ما نقوم به في منازلنا فتلا عليهم الآية المذكورة لكي يزيل دهشتهم.

ثم قال عليه السلام: **نحن المؤمنون الذين نرى أعمالكم** (تفسير نور الثقلين).

وفي أحد الأيام دخل رجل إلى بيت الإمام الباقر عليه السلام، وكان قد تعرّض للرجل الذي جاء ليفتح له الباب بطريقة سيئة. ثم سأله هل مولاك في المنزل أم لا؟ فأجابه الإمام من داخل الغرفة قائلاً: "أدخل لا أم لك" فارتعد الرجل وقال: يا بن رسول الله! لقد فعلت ذلك لأنظر إن كنت ترى أم لا. فأجابه الإمام: **"لئن ظننت أن هذه الجدران تحجب أبصارنا كما تحجب أبصاركم إذاً لا فرق بيننا وبينكم"** فلا يوجد شيء يحجب أبصار أولياء الله.

وهكذا، فإن أعمال الإنسان تكون مشهودة عند الله وملائكته الذين يكتبون كل شيء، وكذلك الأئمة المعصومين وعندما يدرك الإنسان هذه الحقائق فسوف يسعى لاجتناب المعاصي وفعل الصالحات خالصة لوجه الله. وهناك سوف يحيط بالعالم ويصبح مسلطاً عليه. وهذا أعلى منازل المخلصين، وهو متيسّر للإنسان. وما أخسر الذين يبيعون أنفسهم للدنيا وهم مدعوون للوصول إلى هذا المقام.

آية الله جوادي الآملي

أخلاق العاملين في الحكومة الإسلامية

1.

1. **عظمة القرآن الكريم تكمن في:**
أ. أن التمسك به أعظم التكاليف الإلهية.
ب. تضمنه للمعارف الغيبية.
ج. تبيانه لأسرار الشريعة.
د. إنقاذه للمسلمين من الضياع.

2. **حقيقة القرآن الكريم هي:**
أ. المعارف العرفانية الراقية.
ب. جامع الأدلة على التوحيد.
ج. برنامج تهذيب النفس.
د. الكمال المطلق اللامتناهي.

3. **طريق التمسك بالقرآن الكريم :**
أ. بتجليده تجليداً فاخراً.
ب. برعاية آدابه المعنوية.
ج. بالالتزام بالعقل والمنطق.
د. بعرضه على روايات أهل البيت(ع).

4. **أدب التعظيم هو:**
أ. خضوع القلب للآيات.
ب. التسليم على القرآن كل يوم.
ج. وضع القرآن على الرأس.
د. إدراك عظمة القرآن والتوجه نحوها.

5. **أسوأ الحجب بيننا وبين القرآن هو:**
أ. حجاب المرآة المتسّخة.
ب. حجاب التجويد والترتيل.
ج. حجاب الدنيا وما فيها.
د. حجاب الاستغناء عن القرآن.

6. **أعظم مقاصد القرآن هو:**
أ. معرفة برنامج السير والسلوك.
ب. الهداية إلى الكمال المطلق.
ج. بيان الأدلة الكبرى على التوحيد.
د. ذكر القصص التاريخية المشهورة.

7. **تفسير القرآن بالرأي هو:**
أ. اتباع الأهواء الفاسدة.
ب. التدبر في آياته بالعقل.
ج. التدبر في آياته بالخيال.
د. استخراج الأحكام منه دون الرجوع إلى أهل البيت(ع).

8. **التمسك بأهل البيت(ع) شرط للتمسك بالقرآن:**
أ. لأنهم أهل الذكر.
ب. لأنهما حبل واحد وحقيقة واحدة.
ج. لأنهم خلفاء النبي.
د. ليس شرطاً للتمسك بالقرآن.

9. **يحصل تطبيق القرآن:**
أ. من خلال مطابقته بنفسه.
ب. باتباعه أوامره واجتناب ما نهى عنه.
ج. بإغلاقه بعد القراءة.
د. بالوضوء قبل القراءة.

10. **رعاية الآداب المعنوية للقرآن:**
أ. أمر مستحب إجمالاً.
ب. شرط لتحصيل الاستفادة الحقيقية منه.
ج. ينبغي أن تتم لوحدها.
د. من الأعمال المناسبة للقرآن.

2.

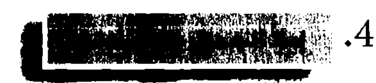
عالم الملكوت. القوى الملكية. القوى الملكوتية.

العروج. الزندقة. التسبيح. التقديس. مقام عند الله.

.3

1. يمكن للإنسان أن يستفيد من الكتب العرفانية والسلوكية أكثر من القرآن الكريم لأنها أوضح وأسهل على الفهم.
2. أهمية القرآن الكريم تكمن في أنه يحوي على جميع المعارف والعلوم التي يحتاجها الإنسان.
3. التمسك بالقرآن الكريم طريق لإصلاح جميع الأعمال والعبادات.
4. القراءة الظاهرية للقرآن لا تأثير لها في النفس.
5. السبب الرئيسي لابتعاد الناس عن القرآن الكريم يعود إلى عدم معرفتهم بحقيقته.
6. كل إنسان يتوجه إلى القرآن الكريم بهدف الهداية يهتدي.
7. يُسمى القرآن الكريم في عالم الدنيا بالثقل الأكبر وأهل البيت(ع) بالثقل الأصغر لأن قيمته عند الله أعظم.
8. التمسك بالقرآن الكريم من أعظم التكاليف الإلهية لأن الوصول إليه يعني الوصول إلى الله تعالى.
9. يُقال لقارئ القرآن يوم القيامة إقرأ وارقَ بمعنى أنه ينال من درجات الجنة بعدد ما حفظه من آيات القرآن الكريم.
10. أفضل تعظيم للقرآن الكريم يكون بالاعتراف بالعجز عن إدراك عظمته.





.4

	الخطوات العملية لتحصيل هذا الأدب
أدب التعظيم	
رفع الموانع والحجب	
فهم مقاصد القرآن	
التفكر	
التطبيق	

5.

مقامه - آية قرآنية - الطهارة - ظاهر - القلبية - القرآن - الجوارح - باطنه - الحجب - الهادي - الباطنية - عظمة.

كل كمال يناله الإنسان هو في حقيقته

إن جميع أعمال النبي وآله وتضحياتهم إنما كانت لأجل تحكيم أسس .... في المجتمع، وجعله الكتاب للبشرية.

إن عنوان الدخول إلى ساحة القرآن المقدسة والوسيلة الوحيدة للسير في آياته هي

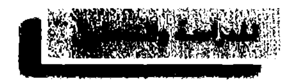
وإذا اجتمعت القراءة مع تلك التوجهات النابعة من المعرفة بـ العظيم حصل المطلوب من نزول هذا الكتاب المقدس.

الهدف من القراءة الانتقال من القرآن إلى ومن باطنه إلى الباطن الذي يليه حتى الوصول إلى معدن العظمة بخرق جميع النورانية. ولا يمكن أن يحصل هذا الانتقال في قراءة القرآن إلا مع استحضار المتكلم والحضور عنده، بدءً من حضور والأعضاء على هيئة الوقار والتعظيم، مروراً بـ الظاهرية، إلى الطهارة التي هي هيئة الحضور في عالم الباطن.

6.

6.1. كيف يحصل التمسك بالقرآن الكريم؟

6.2. لماذا يُعتبر القرآن الكريم هادياً إلى الغاية؟



اعتمد النموذج التالي للإجابة على السؤال.

الإجابة: (النتيجة التي توصلت إليها)

فكرة داعمة أولى:

فكرة داعمة ثانية:

فكرة داعمة ثالثة:

(الفكرة الداعمة تقدم المعطيات، الأسباب، الأدلة، الآيات، الأحاديث الداعمة للإجابة)

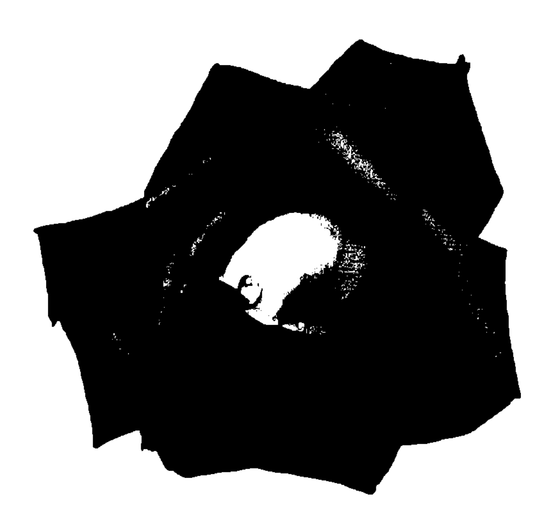
الاستنتاج: (كتابة خلاصة تؤكد على النقطة الرئيسية في الإجابة)

أعد صياغة إجابتك في فقرة.

يعلم جمعة أن جميع المعارف والعلوم والحقائق موجودة في القرآن. وقد سمع مؤخراً أن القرآن كتاب يشفي من جميع الأمراض(الظاهرية والباطنية). لكنه يتساءل في نفسه لماذا لم ير أي شيء من هذه الأمور رغم أنه يقرأ القرآن منذ عشرين سنة.

كيف تساعد جمعة، وما نصيحتك له؟

بالرجوع إلى القرآن الكريم استخرج مجموعة من الآيات تشير إلى دور القرآن في الهداية وتهذيب النفس.





محبة أهل البيت عليهم السلام

ما هو دور الحب في الوصول إلى الكمال؟



محبة أهل البيت عليهم السلام

مع نهاية هذا الفصل تكون قد تعرّفت على:

- أن المودة في أهل البيت عليهم السلام تكليف أساسي
- سر الدور العظيم للمحبة
- تأثير المحبة في مجال تهذيب النفس وتصفية الباطن
- إن محبة أهل البيت عليهم السلام تقود إلى الكمال النهائي
- إن تقوية هذه المحبة أمر لازم ومتيسّر للكل

تمهيد:

إن من أوضح وأجلى مظاهر عبودية المسلم لله وطاعته والانقياد له طاعة أولياء الله وتوليهم. وإن من أرفع درجات الولاية والقرب المحبة الصادقة لهم. فمن يرسخ في معرفة الدين وطريقه ويفهم آيات الكتاب الكريم وتعاليم النبي والأئمة عليهم السلام يدرك هذا الأمر ويتيقن منه. فكيف إذا اعضده بالبرهان والحكمة.

تأمل في حياة الأنبياء وسيرتهم مع أقوامهم تجدهم يعرضون أثمن ما عندهم وهو الهداية إلى الله بدون طلب الأجر والمقابل. فإن أجرهم على الله تعالى. كل واحد منهم كان إذا سئل يقول يا قومي لا أسألكم على ما أقوم به من أجر إن أجري إلا على الله..لكن رسول الله ﷺ يختلف عنهم في هذا الأمر بطلب الأجر على الرسالة والدعوة الكبرى التي ضحى في سبيلها بكل غال ورخيص، هكذا أمره ربّه:

﴿قل لا أسألكم عليه أجراً إلاّ المودة في القربى﴾.

وقد فسرت الآية بأن ما يمكن أن تقدموه لقاء هدايتكم وإنقاذكم من النار بعد أن كنتم على شفا حفرة منها هو التقرب إلى أهل بيتي ومحبتهم!

ولكي لا يتصوّر أن هذا الأجر يعود بالنفع على رسول الله شخصياً،

عاد النبي مجدداً ليبيّن لقومه أن ما سيقدمونه سيعود عليهم أنفسهم بالفائدة:

﴿قل ما سألتكم عليه من أجر فهو لكم إن أجري إلا على الله﴾ وأي نفع هو؟

﴿قل ما أسئلكم عليه من أجر إلاّ من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾.

إنه السبيل إلى الله، وطريق الوصول إليه. إن هذه المودة ستكون سبيلاً موصلاً إلى الغاية النهائية. فها هي محبة أهل البيت عليهم السلام تختصر كل برنامج الرسالة في عملية إيصال المؤمنين إلى الله، وتحقق الأهداف النهائية.

فالصلاة والصيام والجهاد والحج والزكاة وجميع الفرائض الإلهية لن تكتسب روحها التي بها يحصل القرب، وبها تصبغ بالقبول إلاّ بهذه المودة.

إن حب الأقـارب ومودتهم أمر طبيعي وغرائزي في البشر، ولا يعقل أن يجعل مقابل الرسالة، واختصاراً لمنهج الوصول. ولكن حب أهل البيت عليهم السلام أمر سيكون مكلفاً جداً، وستسهل عنده جميع العبادات والفرائض الأخرى. وها هو التاريخ يحدثنا عن البطولات العظيمة والتضحيات الجسيمة للذين تولوا أهل البيت عليهم السلام وأحبوهم، لأنهم حاملو الأمانة الإلهية الكبرى. وكم تعرض الموالون والمحبون للتنكيل والإقصاء والطرد والحرمان على أيدي الظالمين وأعوانهم الذين أرادوا أن يطفئوا نور الله بأفواههم. وكان أمير المؤمنين عليه السلام يرى ويعلم ما سيجري بسبب هذه التبعية. ومن جملة ما ذكره حول آثار هذه المحبة: "**من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقر جلباباً**". وذكر أيضاً القتل والتشريد والتعذيب والنفي..

فلا عجب إذاً أن يكون الأجر على الرسالة الخاتمة محبة أهل البيت عليهم السلام. لأن هذه المحبة ستكون سبباً لحفظ الرسالة وبقائها حية بين الناس.

إن العبد لا يسلك إلا السبيل الذي يعيّنه مولاه، ولا يدخل إلا من الباب الذي أمره. ولا تنفعه كل الأعمال الصالحة دون ذلك. لأن روح العبودية وجوهرها هو الطاعة والانقياد وليس مجرّد العمل وإن كان صالحاً. وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال:

"عبد حبرٌ من أحبار بني إسرائيل الله حتى صار مثل الخلال، فأوحى الله تعالى إلى نبي ذلك الزمان أن قل له: وعزتي وجلالي وجبروتي لو أنك عبدتني حتى تذوب كما تذوب الإلية في القدر، ما قبلت منك حتى تأتيني من الباب الذي أمرتك".

وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وأتوا البيوت من أبوابها﴾.

فإذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **"أنا مدينة العلم وعلي بابها"، فهذا** يعني أن الدخول إلى رسول الله صلى الله عليه وآله الذي هو دخول في الإسلام الواقعي لا يحصل بدون علي بن أبي طالب عليه السلام.

وإن حب أهل البيت عليهم السلام له وجهان في دين الإسلام.

الوجه الأول يطل على العقيدة فيصححها. وهو ما يظهر في مثل هذا الحديث الشريف المروي عن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله: **"لولاك يا علي ما عرف المؤمنون من بعدي"**، والحديث المعروف بشأن علي عليه السلام: **"حبك إيمان وبغضك كفر".**

إن وجود الإنسان الكامل الجامع لكل مراتب الكمال بحقيقته البشرية من أعظم مظاهر الرحمة الإلهية: ﴿وما أرسلناك إلاّ رحمة للعالمين﴾. وهذه الرحمة الكبرى من مستلزمات الرحمة الإلهية، بل هي عينها، ولهذا كان وجوده واجباً من الله تعالى: ﴿كتب على نفسه الرحمة﴾.

والوجه الآخر منه يطل على الأعمال، فيأخذها إلى وجهتها المطلوبة وموقعها الصحيح. وإلى هذا المعنى أشار حديث الإمام الصادق عليه السلام عن محمد بن الفضيل قال: **"سألته عن أفضل ما يتقرّب به العبد إلى الله (عزّ وجلّ) فقال: طاعة الله وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر، ثم قال: حبنا إيمان وبغضنا كفر".**

وعن النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، أن أعرابياً سأله: **"يا رسول الله، هل للجنة من ثمن؟ قال** صلى الله عليه وآله: **نعم. قال الأعرابي: وما ثمنها؟ قال النبي** صلى الله عليه وآله: **لا إله**

إلا الله، يقولها العبد مخلصاً بها.. قال: وما إخلاصها؟ قال ﷺ: العمل بما بعثت به في حقه، وحب أهل بيتي. قال: فداك أبي وأمي، وإن حب أهل البيت عليهم السلام لمن حقها؟! قال ﷺ: إنّ حبهم لأعظم حقها".

إن الايمان بالله تعالى أمر قد يدّعيه أي إنسان. ولكن الايمان الواقعي هو الذي يتجلّى في الدنيا بصورة حب المؤمنين لأنهم مظهر الارتباط الواقعي بالله تعالى. فالمؤمن الحقيقي هو الذي يريد الله ويريد بذلك الحقيقة والكمال والخير والعدالة والفضيلة وآل البيت عليهم السلام هم مظاهر هذه القيم ومعانيها في أعلى درجاتها. **"من أحبكم فقد أحب الله ومن أبغضكم فقد أبغض الله..".**

وإن العمل الصالح وأداء الفرائض أمر قد يقوم به أي إنسان. ولكن الصلاح الحقيقي والعبادة الواقعية تتجلى في الدنيا بصورة ولاية الإنسان الكامل. وأهل البيت عليهم السلام هم مظهر الإنسان الكامل على الأرض.

وعن النبي الأكرم ﷺ أنه قال:

".. ألا ومن أحب علياً، فقد أحبني. ومن أحبني فقد رضي الله عنه. ومن رضي الله عنه كافاه الجنة.. ألا ومن أحب علياً لا يخرج من الدنيا حتى يشرب من الكوثر، ويأكل من طوبى ويرى مكانه في الحنة.. ألا ومن أحب علياً فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخلها من أي باب شاء بغير حساب.. ألا ومن أحب علياً أعطاه الله كتابه بيمينه وحاسبه حساب الأنبياء.. ألا ومن أحب علياً هوّن الله عليه سكرات الموت وجعل قبره روضة من رياض الجنة.. ألا ومن أحب علياً أعطاه الله بكل عرق في بدنه حوراء، وشفع في ثمانين من أهله.. ألا ومن مات على حب آل محمد فأنا كفيله بالجنة مع الأنبياء.. ألا ومن مات على بغض آل محمد لم يشم رائحة الجنة".

وعنه ﷺ أيضاً:

"... **وحب أهل بيت محمد ﷺ، فمن أتى به جاز القنطرة الأولى كالبرق الخاطف. ومن لم يحب أهل بيته سقط على أم رأسه في قعر جهنّم ولو كان معه من أعمال البر عمل سبعين صديقاً**".

وقد يعترض على هذه الحقيقة الواضحة في الروايات اثنان. معاند مكابر يرفض الحديث بمجرّد أن لا يستسيغه، ولا يحقق في سنده ومتنه. وجاهل لا يقدر على تصور سعة الرحمة الإلهية، بل يمسكها بجهله عن العباد.

إن قضية حب أهل البيت عليهم السلام ودوره في إيصال الإنسان إلى لقاء الله والجنة وغفران الذنوب، لم ترد في بضعة أحاديث متناثرة مقطوعة أو مجهولة السند. فإن ما روي عن الفريقين يصل إلى حد التواتر، الذي يقطع معه كل عاقل بصدوره من المعصوم دون الحاجة إلى التحقيق في علم الرجال وأسانيد الروايات.

هذا، وإن كل مؤمن بالله يؤمن بسعة رحمته التي ليس لها حد محدود. وبأن الله يغفر لمن يشاء، ولو كانت ذنوبه ذنوب الثقلين. وإن إنكار هذا المبدأ مساوٍ للكفر.



نعم، قد يتساءل البعض عن سر هذا الأمر، باحثين غير منكرين، متعجبين غير معترضين. فإنه لأمر غاية في الدهشة. كيف يكون مجرد حب شخص أو مجموعة أشخاص سبباً لهذه الكرامات والكمالات العظيمة التي أقل ما يمكن أن يقال عنها أنها كل شيء، وكل كمال، وكل خير، ولا خير بعدها!؟

بمثل هذا السؤال يسلك بحثنا مساره السليم. ومعه نحتاج إلى الغوص في أسـرار هذا الحب وحقيقته، ليتكشف لنا دوره العظيم في نشوء الإيمـان في القلب وتثبيته وتكميله، وفي قبول الأعمال

وتصحيحها، وفي غفران الذنوب وإزالة الحجب بيننا وبين الله، والأهم هنا: في تهذيب النفس وتطهيرها.

لا شك بأن كشف أسرار هذه القضية المحورية والأصل المركزي يحتاج إلى مقدمات، سنشير إليها بالتدريج. ولكن الذين يتعبدون بمفاد الروايات سيكون لهم النصيب الوافي.

إن من جملة المقدمات المساعدة معرفة حقيقة الحب الذي نتحدث عنه. فغالباً ما يشتبه الأمر على الناس ويخلطون بين الحب الروحاني الواقعي وحب الإنسان لنفسه وشهواته. كما أن ملاحظة الأثر الكبير للحب الروحاني يقربنا إلى المطلوب، ولا يبقى بعدها سوى ربط المقدمتين.

حقيقة الحب ودوره

"ثم سلك بهم طريق إرادته، وبعثهم في سبيل محبته".

إن من الميول الفطرية المودعة في كل إنسان "الحب". الحب الذي هو عبارة عن التعلّق الخاص والانجذاب المخصوص بين المرء وكماله. فأصل الحب كامن في نفوس الجميع، ولا يمكن أن يخلو منه إنسان. وكل واحد منا يعلم حضوراً بوجود تعلّق وانجذاب في قلبه، وإن اختلف هذا المتعلّق بين شخص وآخر. ولكن الثابت أيضاً والمشترك بين الجميع هو أنهم يتعلّقون بالكمال أو الكامل بحسب اعتقادهم وتصوّرهم للكمال.

فلا يمكن أن يتعلّق أي إنسان بشيء يراه نقصاً أو ضرراً. وإذا تعلّق أو أحب ذلك الشيء، فلجهة الكمال والنفع الغالبة فيه، وبحسب اعتقاده هو.

وفي أعماق كل إنسان فطرة ينبثق منها هذا الحب وهي لا تريد ولا تطلب سوى الكمال المطلق، وتنفر من أي نقص وتهرب منه. وسواء

سمع هذا الإنسان نداء فطرته أم لا، فإنه يستحيل أن ينفك عنها ما دام إنساناً. فهي ملازمة له أينما وجد. بل إن هذا الحب هو المسؤول عن جميع توجهات البشر وتحركاتهم. وليست المشكلة فيه، بل في تشخيص الكمال الواقعي. لأن الكثيرين منهم يتصوّرون هذا الكمال الذي تريده فطرتهم في أمور ليست كمالات واقعية. أي أنهم يتحرّكون نحو الكمال الموهوم، ويظنّون أنه مطلوبهم:

﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾.

وقد أرسل الله تعالى الأنبياء إلى الناس، ليس لأجل وضع الفطرة فيهم أو إنشائها في بواطنهم، بل من أجل هدايتهم إلى ما تصبو إليه هذه الفطرة الكامنة فيهم. وبعبارة أخرى بُعثوا ليدلوهم على المصداق الواقعي للكمال الذي ينشدونه. ومن تأمل في أبعاد البرامج التي جاؤوا لتطبيقها في الحياة يعلم أنها تهدف لإيصال الناس إلى المحبوب الأصلي الذي يبحثون عنه من أعماقهم بعد أن يوقظوا في نفوسهم روح المحبة الروحانية.

إن وصول الإنسان إلى الكمال المحدود وبالرغم من أنه يبعث في نفسه لذة أو بهجة، لكنه سرعان ما سيصاب بالألم والحزن مرة أخرى، وذلك عندما يدرك أنه ليس مطلوبه الحقيقي والأصيل. فالمطلوب هو الكمال المطلق اللامحدود. وأولئك الذين يسعون بكل وجودهم لأجل تحصيل الكمالات المحدودة وجمعها والاستكثار منها، لن يصلوا إلا إلى المحدود (مهما كثر)؛ قال الله تعالى: **﴿ألهاكم التكاثر﴾**. ولما كان هؤلاء لا يجمعون ـ في الحقيقة ـ سوى المحدود وهو لا شيء أمام المطلق، فإنهم لا يجمعون سوى المزيد من الحزن والألم. فكل محدود وإن كثر ليس بشيء مقابل الكمال المطلق الذي تريده فطرتهم ولا تريد سواه. وإنه لمن الواضح أن كل من لم يدرك مطلوبه، سيصاب بالحزن والألم، وإن أعطي ما أعطي..

وفي المقابل، أولئك الذين تعلّقت قلوبهم بالله، أي بالكمال المطلق، وصاروا أولياءه، لن يكون في قلوبهم أي خوف أو حزن. لماذا؟ لأن محبوبهم هو الذي كانت فطرتهم الصافية تريده وتعشقه. وها هم في جنبه ومعه. فلماذا الحزن؟ ولماذا الخوف؟ والمحبوب لا يزول ولا يمكن أن يزول: **﴿ألا أن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾** . وإذا سيطرت محبة الكامل على الإطلاق على القلب، تزول التعلقات الأخرى، وعلى رأسها حب الدنيا الذي هو رأس كل خطيئة. وعلى قاعدة "**عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم**" سيزول الانجذاب والتعلّق بالكمال الزائل الفاني.. ولا تتعلّق قلوبهم إلا بما يرتبط بمحبوبهم، حتى وإن كان شيئاً صغيراً. فلا دين للمحب إلا المحبوب. يدور قلبه حيثما يدور.

ولا ينحصر الأمر في طمأنينة الباطن وسكينته، فإن للحب الحقيقي دوراً آخر!

"الحب النفساني هو الذي يكون مبدؤه مشاكلة العاشق لنفس المعشوق في الجوهر. وهو يجعل النفس لينة شيقة ذات وجد ورقة منقطعة عن الشواغل الدنيوية" [العلامة نصير الدين الطوسي في التعليق على الإشارات].

الحب والتعلّق هما تعبيران عن شيء واحد في نفس الإنسان وهو الميل. ووجود الميل نحو الأشياء من مقتضيات الفطرة الانسانية. لهذا كانت جميع الميول الفطرية مجمعة تحت عنوان الحب.

إن المحب الحقيقي ـ لا المحب لنفسه في صورة حب غيره ـ سيسعى لمشاكلة محبوبه في صفاته وشمائله. فإذا كان المحبوب كاملاً تاماً، وشمائله عظيمة رفيعة، يتجه وجوده وصفاته نحو المشاكلة التامة. وسرعان ما تتحقق، فلا يبقى بينه وبين المحبوب أي فارق.

ذلك لأن الحب الذي لا ينطلق من الأنا وحب النفس (وهذا هو الحب الحقيقي) عبارة عن النظر إلى المحبوب وإلى ما يريده وما يرتضيه. فإذا أحب الإنسان غيره صدقاً، لن يفعل إلاّ ما يسعد المحبوب. حتى لو كان المحبوب يريد هجره.

أليس المحبوب سعيداً بهجري، بل بقتلي وحرقي ونشري! فإنّ أحبَّ ما عندي تحقيق ما يريده:

لي حبيب حبه يشوي الحشا   لو يشا يمشي على قلبي مشى

ولهذا، من أراد أن يعرف ميزان الحب الصادق، فلينظر إلى هذه القاعدة. فهي القاعدة الوحيدة للحب. ومنها يعلم كم ندّعي حباً لغيرنا، ولا يكون هذا الحب سوى لأنفسنا، ومن فرط العشق لأنانياتنا. فإذا أراد "المحبوب" شيئاً خلاف مصلحتنا تحوّلت المحبة إلى بغض وكراهية!!

وإذا كان الحب درجات، فإن كل درجة من الفناء في المحبوب تحكي عن الحب ولا غير. وأولئك الذين يزدادون حباً للمحبوب بمقدار ما ينالون منه من لذّات ومصالح ومنافع (نفسية أو شهوية بدنية)، ليسوا سوى عشاق أنفسهم. فاعرفهم قبل فوات الأوان تغنم.

إن الحب هو الذي يسهل سبيل الطاعة. بل الطاعة ليست سوى إحدى لوازم الحب. وبمقدار الحب تكون الطاعة.

ذلك لأن "**القلب هو أمير البدن**" كما في حديث النبي الأكرمﷺ. وكل الأعمال التي تصدر من الأعضاء والجوارح، إنما تكون بإمرة القلب. وليس العقل كما يتصوّر أحياناً.

إن عقولنا ليست سوى مصباحاً، تضيء لنا طريقنا. وقد يكون عقل أحدنا خافتاً إلى درجة لا يرى صاحبه أمامه. ومن كمل عقله، وصل إلى أن يصير شمساً تضيء له ولمن حوله. ومع ذلك فإن المحرّك الواقعي والمسؤول الحقيقي عن أية حركة، مهما كانت بسيطة، هو القلب. وإذ كنا لا نشعر بهذه العلاقة. فذلك لأن باطننا غائب عن وعينا كلياً، ولأن معرفتنا بأنفسنا لا تتجاوز هذا البدن وصورته. وليس من الضروري أن يكون صدور الأوامر من القلب شبيهاً لما يحدث بين القائد وجنوده. فإن أي فعل إذا تكرر مع الرغبة والاستلذاذ بنتائجه يصبح ملكة راسخة في النفس، ويصدر تلقائياً ومن دون روية أو تخطيط. وإذا أردنا أن نعرف

كيفية صدور العمل من الإنسان ينبغي الالتفات إلى المراحل التالية:

1. مرحلة التصور: عندما يستحضر صورة العمل مستعيناً بالخيال، ويتصوره في نفسه.

2. مرحلة التصديق: فيقوم العقل بتحليل هذا العمل ومدى فائدته. فإذا كان العقل أسير الأهواء لن يتمكّن من إعطاء نتيجة تخالف الهوى. ولهذا يبقى معطلاً، فتصدر أهواؤه الغالبة الحكم وفق ما تراه ودون الأخذ بعين الاعتبار رضا الحق سبحانه أو موافقة شريعته.. وفي كلي الحالتين يصدق الإنسان بنتيجة العمل فهو إما مفيد وإما ضار.

3. مرحلة التعلق: وهنا يأتي دور القلب. حيث ينظر إلى العمل ويزنه على أساس ما يحب. فإذا كان حب الدنيا مسيطراً على القلب، وكانت نتيجة هذا العمل تحصيل فائدة دنيوية، فإن القلب سيتعلّق به، ويحرّك البدن باتجاهه. وإذا كان القلب متعلّقاً بالله، فلن يتعلّق بهذا العمل، بل إنه سينفر منه لأنه سيؤدّي إلى إبعاده عن محبوبه، ولن تتحرّك الأعضاء نحو العمل المذكور.

4. مرحلة التنفيذ: وهي مرحلة ظهور العمل بواسطة الآلات والجوارح في الخارج.

ومن الملاحظ أن للقلب الدور المركزي في صدور الأفعال كافة. وهذا الدور مرتبط بالشيء المحبوب الذي تعلّق القلب به. ولهذا، إذا صلح القلب، صلح الإنسان بصلاح أعماله واستقامتها.

ومن هنا نعرف معنى كلام الإمام الصادق عليه السلام: "**وهل الدين إلاّ الحب**". ونقترب من جواب الإمام الباقر عليه السلام لسائل سأله إذا كان فيه خير أم لا فقال عليه السلام له: "**إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك**".

وسيكون من نتائج هذا الفهم وضوح أحد معاني الآية الكريمة:

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم﴾.

فالحب بدوره المركزي أضحى أحد أهم مميزات الإسلام. والتركيز على الحب ودوره في حياة الإنسان ومصيره ليس أمراً هامشياً أو عبثياً. لأن الإسلام أراد إصلاح الإنسان من خلال إصلاح مركز وجوده ومعدنه.

هذا الإصلاح يتحقق عندما يتعلّق القلب بالكمال المطلق، فيتجه بكل وجوده نحوه، ويكون سالكاً إلى الغاية الحقيقية. ولأن طبيعة الناس ونفوسهم مستغرقة في عالم الدنيا والظاهر، ولا يمكنهم في البداية أن يتعرّفوا إلى المصداق الحقيقي للكمال المطلق وهو الله، فقد أنزل الحق تعالى إليهم مظاهر هذا الكمال بجلباب البشرية لكي يتعرّفوا عليه من خلالهم. وإن أعظم ما في الوجود هو خلق هذا الخليفة بصورة البشر. الخليفة الواقعي هو المظهر والممثل الحقيقي للمستخلف. فإذا قال الله سبحانه ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾، أي أنني أريد أن أجعل من يظهر أسمائي وصفاتي وكمالاتي المطلقة في عالم الطبيعة. ولهذا كان خلق أهل البيت. وهذه هي الخلافة الحقيقية لهم، والمعبر عنها بالولاية التكوينية، التي لا يمكن أن تسلب منهم أو تنتزع.

إن الناس سيشاهدون أمامهم بشراً يمشون في الأسواق ويأكلون الطعام وينامون ويتزوجون، ومع ذلك فهم مظاهر تامة للكمال المطلق. وهذا مما سيلهب وجدانهم ويزيد من شوقهم ويلقي الحجة التامة عليهم. فها هو المعشوق الذي تصبو إليه فطرتي وكماني قد تجلى لي بصور أوليائه.

وإذا أردته فأنا أريدهم، وإذا لم أردهم، فأنا لست سوى مدّعٍ كذاب.

قال الإمام الباقر:

"إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً فانظر إلى قلبك. فإذا كان يحب أهل طاعة الله ويبغض أهل معصيته ففيك خير، والله يحبك. وإذا كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته فليس فيك خير والله يبغضك، والمرء مع من أحب".

فأصل الخير هو حب الله. وظهور هذا الخير في حب أوليائه.

فقد اتضح بهذا البيان ما يلي:

أ. الحب هو النقطة والمحور المركزي في الدين.

ب. حب الله موجود في أعماق كل إنسان وفطرته.

ج. مشكلة أكثر الناس عدم معرفة المحبوب الذي تريده فطرتهم.

د. جاء الأنبياء من أجل توجيه الناس نحو المحبوب الواقعي.

هـ. إذا عرف الناس المحبوب الواقعي تعلّقوا به وتركوا ما سواه.

و. وبذلك تتحقق أول خطوة في الصلاح وهي الإعراض عن الدنيا.

ز. ويسهل أمر الطاعات والعبادات.

ح. ويصبح ترك مخالفة المحبوب أمراً يسيراً.

ط. إن حب الله يتجلّى في هذا العالم بحب أوليائه.

ي. أولياء الله المقرّبون هم أهل البيت عليهم السلام.

وينبغي أن نشير إلى مسألتين:

الأولى: أن الحب لدى أي شخص لا يمكن إدراكه من قبل غيره، مهما ظهر هذا الحب. بل الإنسان هو الوحيد الذي يمكنه معرفة حقيقة الحب في نفسه، ونحن لا نستطيع أن نتمسّك بآثار الحب لإثباته في غيرنا. لأن هذه الآثار قد تصدر من مدّعٍ مخادع. فإنشاد الشعر والثناء على المحبوب والعمل في خدمته، وإن كانت أموراً ممدوحة ويمتدح صاحبها، إلاّ أنه لا يمكننا من خلالها إثبات واقعية الحب في قلبه.

وعليه، فإن كل ما قلناه، ينبغي أن نطبقه على أنفسنا لا على الآخرين.

الثانية: قد ظهر من خلال موقعية الحب في التربية الإسلامية الفارق

الجوهري بين منهج الإسلام السلوكي والمنهج الأخلاقي اليوناني الذي يقوم على أساس العقل ودوره.

إن الإسلام يدخل إلى عمق وجود الإنسان ومركزه لإصلاحه. أما المنهج اليوناني الذي كان شائعاً في المدرسة الأخلاقية، فإنه يزوِّد الإنسان بالمعرفة ويلهم العقل.

وقد اتضح أن مجرّد المعرفة وإن كانت أمراً ضرورياً إلاّ أنها لا تكفي للإصلاح. فما أكثر الذين يعلمون بضرر شيء ما ولا يجتنبونه.

ويوجد فروقات أخرى أعمق، نترك الإشارة إليها لمجال آخر.

* شواهد من الروايات:

عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال: **"إن الله خلق الإسلام فجعل له عرصة، وجعل له نوراً، وجعل له حصناً، وجعل له ناصراً.**

فأما عرصته فالقرآن، وأما نوره فالحكمة وأما حصنه فالمعروف، وأما أنصاره فأنا وأهل بيتي وشيعتنا. فأحبوا أهل بيتي وشيعتهم وأنصارهم. فإنه لما أسري بي إلى السماء فنسبني جبرائيل لأهل السماء استودع الله حبي وحب أهل بيتي وشيعتهم في قلوب الملائكة. فهو عندهم وديعة إلى يوم القيامة. ثم هبط بي إلى أهل الأرض فنسبني إلى أهل الأرض، فاستودع الله عز وجل حبي وحب أهل بيتي وشيعتهم في قلوب مؤمني أمتي.



فمؤمنو أمتي يحفظون وديعتي في أهل بيتي إلى يوم القيامة، ألا فلو أن الرجل من أمتي عبد الله عزّ وجلّ عمره أيام الدنيا، ثم لقي الله عزّ وجلّ مبغضاً لأهل بيتي ما فرَّج الله صدره إلا عن النفاق".

وفي رواية أخرى أن رجلاً يدعى أبا عبد الله دخل على أمير المؤمنين عليه السلام فقال له الإمام: **"يا أبا عبد الله ألا أخبرك بقول الله عزّ وجلّ**

﴿من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبّت وجوههم في النار هل تجزون إلاّ ما كنتم تعملون﴾.

قال: بلى يا أمير المؤمنين.

فقال الإمام عليه السلام: "الحسنة معرفة الولاية وحبنا أهل البيت والسيئة إنكار الولاية وبغضنا أهل البيت".

وفي حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنه قال لأصحابه: **"أي عرى الإيمان أوثق؟**

فقالوا: الله ورسوله أعلم. وقال بعضهم الصلاة وقال بعضهم الزكاة وقال بعضهم الحج والعمرة، وقال بعضهم الجهاد في سبيل الله. فقال صلى الله عليه وآله: لكل ما قلتم فضل وليس به، ولكن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله وتولي أولياء الله والتبري من أعداء الله".

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: **"لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني. ولو صببت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنه قضي فانقضى على لسان النبي الأمي صلى الله عليه وآله أنه قال: يا علي لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق".**

الزمان من أبعاد المادة المحدودة. والله تعالى محيط بكل عوالم الإمكان، لهذا فهو محيط بالزمان. وعندما يكون محيطاً بالزمان فلا يمر عليه الزمان قطعاً. فلا أيام أو سنين بالنسبة لله تعالى. ولهذا لا معنى للغيب عنده سبحانه. فكل شيء عنده مشهود. قال الله تعالى: ﴿أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾ [سورة فصّلت، آية: 53].

* بعض خصائص الحب:

1. الحب أمر اختياري

يظن كثير من الناس أن الحب أمر فوق اختيار الإنسان وليس بيده!

ولأنهم لا يستطيعون الإحاطة بأسباب نشوء الحب والتعلّق بالأشياء المختلفة في نفوسهم، وذلك لكثرتها وتشعبها وخفائها، فقد وقعوا في هذا الظن.

وإذا قبلنا هذا الكلام، فلا يبقى معنى لتلك الدعوات الكثيرة والأوامر

الإلهية بشأن حب أهل البيت‌ﷺ. ونحن نقرأ في الزيارة الجامعة: "**ولكم المودة الواجبة**". إن كل هذا الحث والتأكيد يصبح بلا داع. لأن على الإنسان، والحال هذه، أن يترك نفسه تعشق من تريد، باعتبار أنه لا يقدر على التحكّم بها!

ولكن، بالرجوع إلى البيانات السابقة، قد علمنا أن الحب في أصله وإن كان فوق اختيار الإنسان، ولكن الأفراد يستطيعون أن يوجهوا هذا الحب المودع فيهم وفي غيرهم إلي ما يشاؤون. وتلعب العوامل التربوية والنفسية والاجتماعية دوراً بارزاً في توجيه هذا الحب أيضاً.

إن ما نحمله من تصور حول الكمال المطلوب، وما جربناه في حياتنا من لذّات وكمالات، يدخل إلى قلوبنا ويعطيها وجهتها.

وعندما تؤسس البيئة والتربية في أنفسنا مفاهيم خاطئة عن الكمال، وترسخ هذه المفاهيم في الأذهان، وتنتقل إلى القلوب بالتجربة أو المعايشة، فإن على الإنسان أن يقوم بحركة اختيارية لتطهير قلبه من هذا الحب الفاسد الذي يوجه مسيرة حياته نحو الكمال الموهوم. والبدء يكون بتصحيح مفاهيمنا وتصوراتنا عن الكمال ومصاديقه. ثم علينا أن نجاهد أنفسنا لإخراج ذلك الحب من القلب. وإن الجهاد الأكبر للنفس يدور حول هذه النقطة.

كما أن علينا أن نعرف أن حب الدنيا (التي هي مظهر الكمال الموهوم) أمر راسخ جداً في قلوبنا، بسبب ما جربناه من لذاتها منذ طفولتنا، وبسبب المفاهيم الباطلة الكثيرة من حولنا، وبسبب الإغراءات التي تمارس علينا. وما دام هذا الحب باقياً في القلب، فسيمنع من حصول حب الله وحب أوليائه. ونحن نعلم أن حب الدنيا هو الذي أدى إلى قتل الحسين‌ﷺ في كربلاء، وأن حب الدنيا كان وراء كل المآسي التي تعرّض لها أهل بيت الوحي(صلوات الله عليهم أجمعين)، وأن حب الدنيا هو الذي يحول دون ظهور منجي البشرية صاحب الزمان(عجل الله فرجه).

2. الحب درجات

من خصائص الحب أنه حالة اشتدادية في النفس. وهو على درجات كثيرة، تبدأ من الشوق والميل وتنتهي بالعشق الخالص. ولكن ما يجمع كل هذه المراتب هو الفناء. فكلما ارتفع المحب درجة في الحب ازدادت حالة الفناء أو الاستعداد للفناء في المحبوب عنده. وآخرها هو الفناء التام وذوبان الأنانية والإنية بالكامل.

والمهم هنا أن نتعرف على الحد الأدنى المطلوب من حب أهل البيتعليهم السلام والذي به تحصل النجاة في الآخرة. فهناك مستوى من الحب يزول عند أول امتحان، وهناك مستوى لا يثبت عند سكرات الموت، ولا ينتقل مع الإنسان إلى الآخرة.

إن الحب المطلوب هو الذي يقدر على الثبات أمام تلك العقبات، فلا يخرج من القلب حين عبورها (وعبورها أمر لا بد منه). والواقع أن الاطمئنان في هذا المجال أمر في غاية الصعوبة. ونحن لم نشاهد محباً مخلصاً يركن إلى حبه ويعتمد عليه بل أمثال هذا يخافون على أنفسهم. ولهذا، فإنهم يتوسّلون دوماً بالمحبوب، ويطلبون من الله إبقاء حب أوليائه في قلوبهم وتوفيتهم عليه.

هناك درجة من الحب لا يتوقع لها الثبات. وهي التعلّق بشمائل المحبوب وصفاته. فمن المعروف أن لأهل البيتعليهم السلام صفات وخصال تجعل أي عاقل منصف محباً لهم. وغالباً ما يتعلّق الناس بأمير المؤمنينعليه السلام لشجاعته ومروته.

وهناك درجة أخرى، تنشأ من معرفة مصائبهم. فإن مصائب أهل البيتعليهم السلام تُبكي كل حرّ في هذا العالم. ويبدو أن مثل هذا التوجه الناشئ من استحضار مصائبهم غير قادر على الثبات أيضاً.

نعم، إن هذه الدرجات من الحب، وإن كانت بنفسها لا تثبت، لكنها قد تكون سبباً لحصول الدرجات الأعلى. بل أنها غالباً ما تؤدّي إلى هذا

الأمر. ولذلك كان التعرف على صفاتهم﵈ وذكر مصائبهم العظمى من أفضل الأعمال على طريق تحصيل المحبة المطلوبة.

ويمكن القول إن الدرجة المطلوبة من الحب هي التي تؤدّي إلى تغيير باطن الإنسان من الكفر إلى الايمان. ولهذا يعرف أتباع أهل البيت﵈ بالمؤمنين. وهذا معنى الأحاديث العديدة التي ذكرت أن حبهم﵈ إيمان وبغضهم كفر. ولا شك بأن الإيمان درجات، والحب يتبعه في ذلك. فكلّما ازدادت درجة المحبة ازداد الايمان في القلب حتى يصل إلى اليقين. قال الله تعالى ﴿**فاعبد ربك حتى يأتيك اليقين**﴾. وهذا اليقين في حقيقته عبور العقبات الرئيسية على الصراط المستقيم: ﴿**كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم**﴾. وفي سره هو حب علي﵇. وأعلى درجات الحب ما يظهر بصورة التبعية الكاملة والطاعة المطلقة في الدنيا.

إن حب أهل البيت يتدرّج في باطن الإنسان من حالته الإنسانية العامة، إلى تغيير الذات الإنسانية من الكفر إلى الإيمان، ويتدرّج في مراتب الايمان محققاً في كل مرحلة تغييراً في الشمائل والصفات والأخلاق والملكات، ليصل إلى مرحلة العصمة التامة وهي المتحدة مع اليقين الكلّي.

ومن هذا البيان نقدر على فهم الأحاديث التالية التي ذكرت علامات كثيرة لمحبة أهل البيت﵈.

علائم حب أهل البيت

لا يغيب عن بالنا ونحن نعدد هذه العلامات أن ادعاء المحبة أمر ممكن. وقد حدث هذا الأمر في الماضي، ولا يزال. بل أنه اليوم أكثر شيوعاً بعد أن قلّت مخاطره وزادت مكاسبه (الدنيوية طبعاً). ونحن نذكر هذه العلامات لتكون ميزاناً نقيس به مدى حبنا لأهل البيت بعد التأكّد من وجوده فينا. وإن من أراد معرفة باطنه وما في

نفسه صادقاً، لن يضلّه الحق سبحانه.

أ. جمع الفضائل:

فعن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال:

"من رزقه الله حب الأئمة من أهل بيتي فقد أصاب خير الدنيا والآخرة. فلا يشكن أحد أنه في الجنة. فإن في حب أهل بيتي عشرين خصلة. عشر منها في الدنيا، وعشر في الآخرة.

أما في الدنيا فالزهد، والحرص على العمل، والورع في الدين، والرغبة في العبادة والتوبة قبل الموت، والنشاط في قيام الليل، واليأس مما في أيدي الناس، والحفظ لأمر الله ونهيه (عزّ وجل) والتاسعة بغض الدنيا، والعاشرة السخاء.

أما في الآخرة: فلا ينشر له ديوان، ولا ينصب له ميزان ويُعطى كتابه بيمينه، ويكتب له براءة من النار، ويبيَض وجهه، ويكسى من حلل الجنة، ويشفع في مئة من أهل بيته، وينظر الله عزّ وجلّ إليه بالرحمة، ويتوّج من تيجان الجنة، والعاشرة يدخل الجنة بغير حساب".

"وما دامت جذور حب الدنيا في قلب السالك فلا يحصل فيه أثر من محبة الله، ولا يهتدي طريقاً إلى مرل المقصود. وما دام للسالك في قلبه بقايا من هذه المحبة، لم يكن سيره إلى الله. بل يكون سيره إلى النفس وإلى الدنيا وإلى الشيطان". [الإمام الخميني].

ب. الولاية:

وهي من أونى العلاماب وأقواها وأظهرها.

وفي الحديث عن أمير المؤمنين عليه السلام أنه قال:

"من سرَّه أن يعلم أمحبٌ لنا أم مبغض، فليمتحن قلبه، فإن كان يحب ولياً لنا فليس بمبغض، وإن كان يبغض ولياً لنا فليس بمحب لنا".

ولماذا كانت هذه العلامة قوية الدلالة؟ لأن أهل البيت عليهم السلام وإن غابوا، فإن أولياءهم موجودون بيننا، وقد قامت حجتهم. فهذا الإمام القائد حجة الله على المسلمين حامل راية الولاية. وهذا هو السيّد القائد في لبنان رافع لواء الجهاد والمقاومة. وهؤلاء هم المجاهدون المضحون الذين

سلكوا طريق الشهادة.

وعن أبي جعفر﵇ في قوله تعالى: ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾، **"فيحب بهذا ويبغض بهذا. فأما محبنا فيخلص الحب لنا كما يخلص الذهب بالنار لا كدر فيه.. من أراد أن يعلم حبنا فليمتحن قلبه فإن شاركه في حبنا حب عدونا فليس منا ولسنا منه والله عدوهم وجبرائيل وميكائيل والله عدو الكافرين".**

وقد بدأ ﵇ كلامه بآية شريفة يقصد بها أن الله لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه حتى يمكن افتراض اجتماع حب أهل البيت وحب أعدائهم في آن واحد.

ج. التوحيد:

ففي الرواية أن رجلاً دخل على الإمام الصادق﵇، فسأله الإمام: من الرجل؟ فردّ عليه الرجل: من محبيكم ومواليكم.

وهنا أوضح له الإمام أن محبي أهل البيت﵈ على ثلاث طبقات:

- طبقة أحبتهم في السر والعلانية فهم النمط الأعلى.
- وطبقة أحبتهم في السر دون العلانية فهم النمط الأوسط.
- وطبقة أحبتهم في العلانية دون السر، فهم النمط الأسفل.

وهنا يقول ذلك الرجل: أنا من محبيكم في السر والعلانية.

فيعاجل الإمام قائلاً: "إن لهؤلاء علامات.. وتلك خلال (أي صفات) أولها أنهم عرفوا التوحيد حق معرفته وأحكموا علم توحيده".

د. الإيثار والتفضيل

قال رسول اللهﷺ:

"لا يؤمن عبد حتى أكون أحب إليه من نفسه، وتكون عترتي أحب

إليه من عترته، ويكون أهلي أحب إليه من أهله..".

هـ- تحمل المصائب

وذكر أنه بينما أمير المؤمنين عليه السلام جالس في المسجد وأصحابه حوله أتاه رجل من شيعته، فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله يعلم أني أدينه بحبك في السر كما أدينه بحبك في العلانية، وأتولاك في السر كما أتولاك في العلانية.. فقال أمير المؤمنين عليه السلام: أما فاتخذ للفقر جلباباً أو (الفقر جلباباً)، فإن الفقر أسرع إلى شيعتنا من السيل إلى قرار الوادي.. فولى الرجل وهو يبكي فرحاً..

فالرجل لم يعبأ بما سيلاقي من مصائب نتيجة حبه وولايته لأهل البيت حيث كان الظلمة يضيقون على محبي أهل البيت ويمنعون عنهم العطيات من بيت المال..

و. عدم الطمع بما في أيدي الناس:

فمن وصايا الإمام الباقر عليه السلام لجابر الجعفي:

"واعلم بأنك لا تكون لنا ولياً حتى لو اجتمع عليك أهل مصرك وقالوا أنك رجل سوء لم يحزنك ذلك ولو قالوا أنك رجل صالح لم يسرّك ذلك. ولكن أعرض نفسك على ما في كتاب الله فإن كنت سالكاً سبيله، زاهداً في تزهيده، راغباً في ترغيبه، خائفاً من تخويفه فاثبت وابشر".

وذكر من العلامات أيضاً حب السادة العلويين من ذرية الأئمة وإكرامهم وتفضيلهم..

* حصول الحب

قد ذكر البعض في حديثه عن محبة أهل البيت عليهم السلام، إن هذه المحبة قسمان: وهبي وكسبي. بمعنى أن من المحبة ما يحصل عليه الإنسان من

الله دون أي سعي منه، وهناك ما يحتاج إلى سعي واكتساب.

ولكن الأصح أن كل الحب هبة من الله تعالى ومظهر لرحمته الواسعة التي تفاض على كل الموجودات، ولكن الوصول إلى هذه الهبة الكبرى يتطلّب سعياً واستعداداً، حتى ولو كان السعي أحياناً غير عرفي كإطعام كلب جائع، أو النظر إلى مؤمن نظرة تسرّه، أو غيرها من الأمور التي لا يعدها الناس سعياً بالمعنى المتعارف. وأما ما ذكر بأن البعض ينالون هذه المحبة بدعاء الآباء أو الأجداد أو بالمنام وما شابه، فهو وإن كان صحيحاً لا نشك به إطلاقاً، إلا أنه يكون أثراً لعمل قام به صاحبه!

فإن قيل: وكيف يكون أثر هذا العمل قبل صدور العمل؟!

نقول: إن الله بعلمه السابق على الزمان(بل المهيمن على الأزمان) يعلم من عبده صدور العمل قبل صدوره منه، فيجعل أثره: توفيق جده قبل ولادته لأن يدعو الله دعاءاً مستجاباً.

ومن هنا، فإن جميع الكمالات مواهب إلهية، وهي محض التفضل من الله عزّ اسمه. والحب أعظم المواهب الربانية، كما ورد في باب وصايا الإمام الصادقﷺ لأبي جعفر مؤمن الطاق: "**يا بن النعمان إن حبنا أهل البيت ينزل من السماء، من خزائن الذهب والفضة، ولا يناله إلا خير الخلق، وإن له غمامة كغمامة القطر. فإذا أراد الله أن يخصّ به من أحب من خلقه، أذن لتلك الغمامة فتهطلت كما تهطلت السماء، فتصيب الجنين في بطَن أمه**".



وكيف يكون هذا الإذن الإلهي؟

قد يكون بدعاء الأجداد، كما نقل عن والد المجلسي أنه قال: بعد الفراغ من التهجد عرضت لي حالة عرفت إني لا أسأل من الله شيئاً إلاّ استجاب لي، وإذا بصوت محمد باقر في المهد، فقلت من غير مهلة: "إلهي بحق محمد وآل محمد اجعل هذا الطفل مروج دينك وناشر أحكام سيد رسلك ووفقه بتوفيقاتك التي لا نهاية لها". وقد بلغ ﷺ

مرتبة لو سمي مذهب الشيعة بمذهب المجلسي، ربما لكان في محله.

وقد يكون بدعاء النبي إبراهيمﷺ، كما في قوله تعالى حاكياً عن دعائه الشريف: ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾.

وقد يكون بما يُلقى دفعة في القلوب بمشاهدتهم في اليقظة، كما روي أنه كان لرجل من محبي عليﷺ ابن أخ يبغض الإمام. وكان العم يطلب من أمير المؤمنين أن يجعل ابن أخيه يحبه، مضى كذلك إلى أن اتفق أن العم كان واقفاً مع أمير المؤمنينﷺ، ومر عليهم ابن أخيه وصحبه. لما اجتازوا ولم يسلّموا على عليﷺ انفعل العم من ذلك، فنظر عليﷺ إلى ابن أخيه. وفجأة رجع ذلك الرجل وأكبَّ على قدمي أمير المؤمنين وقال: كنت أبغض الناس عندي، والآن أنت من أحب الناس لدي..

أو كما حدث لزهير بن القين مع الحسينﷺ. فقد كان زهير يقول: "لم يكن شيء أبغض إلينا من أن ننازله في منزل لم نجد بداً من أن ننازله فيه. فبينا نحن جلوس إذ اقبل رسول الحسينﷺ حتى سلم وقال: يا زهير أن أبا عبد اللهﷺ بعثني إليك لتأتيه.. فطرح كل إنسان منا ما في يده حتى كأننا على رؤوسنا الطير..".

إن المقام الذي وصل إليه أهل البيت لن يصل إليه أحد بحسب ما عرفنا منهم في الروايات والأحاديث المؤيدة بالآيات الكريمة. وهذا القطع ليس من جهة الإمكانية، بل من جهة الواقع الذي أخبرونا عنه بحكم علمهم وإحاطتهم التامة به، وإن السعي للوصول إلى المقام النهائي هو الذي ينيل الإنسان المقام الأدنى منه. كما أن للكمال المطلق درجات، لا تتنافى مع إطلاقيته.

وقد يحدث في عالم المنام على أثر مشاهدتهم عليهم السلام بركات كثيرة، كما يروى عن العلامة السيّد عبد الله شبّر أنه قال: إن كثرة مؤلفاتي من توجه الإمام الهمام موسى بن جعفرﷺ، فقد رأيته في المنام فأعطاني قلماً، وقال: أكتب.. فمن ذلك الوقت وفقت لذلك، فكل ما برز مني فمن بركة هذا القلم.

وقد يكون بفضل روح الأم وتربيتها. وقد شاهدت ذات يوم طفلاً لم يتجاوز السنوات الثلاث يترنّم قائلاً (بما ترجمته):

حبك يا علي اختلط بلحمي ودمي   وأنا رضعته من ثدي أمي

وقد يلقى حبهم في القلوب بمجرّد ذكر أسمائهم، كما في حديث

إسلام سلمان الفارسي.. ونحن نقول: "**فما أحلى أسماءكم**". [الزيارة الجامعة].

تحصيل المحبة

بعد أن علمنا أن حب أهل البيت﵈ فيض إلهي وهبة رحمانية كبرى، يمكن نيلها من خلال السعي والاكتساب، نسأل عن كيفية هذا السعي.

إن طريق تحصيل المحبة ذو شقين: علمي وعملي.

أما الأول، فيكون من خلال معرفتهم ودراسة علومهم وتتبع آثارهم. ولا شك بأننا منذ البداية معترفون بالعجز عن الإحاطة بمقامهم. ولكن يرشح إلينا ما يخلب الألباب.

فهم معدن الفضل وكنوز الرحمن وأصول الكرم وباب الله الذي منه يؤتى. وأفضل النصوص الشريفة التي تحدّثت عن صفاتهم "الزيارة الجامعة". وإن المواظبة على قراءتها والتأمّل في معانيها كافٍ في هذا المجال.

وفيما روى الكراكجي في كنز الفوائد عن الصادق﵇: أن أبا حنيفة أكل معه، فلما رفع الإمام يده عن أكله قال: الحمد لله رب العالمين. أللهم إن هذا منك ومن رسولك" فقال أبو حنيفة: يا أبا عبد الله أجعلت مع الله شريكاً. فقال عليه السلام: "ويلك إن الله تعالى يقول ﴿**وما نقموا إلاّ أن أغناهم الله ورسوله من فضله**﴾. وقال أيضاً: ﴿**وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله**﴾.

فقال أبو حنيفة: فكأني ما قرأتهما من كتاب الله ولا سمعتهما إلا هذا الوقت. فقال الإمام﵇: "بلى قد قرأتها وسمعتها، ولكن الله تعالى أنزل فيك وفي أشباهك: ﴿**أم على قلوب أقفالها**﴾. وقال: ﴿**كلا بل ران على**

قلوبهم ما كانوا يكسبون﴾.. ثم أنك لا تفقد في كل آن نعمة سابقة ببركتهم ودعائهم إليك أو بلية أرضية أو سماوية إلاّ بتوجههم إليك. فإن أدمنت تذكر ورود تلك النعم فيك تجد عياناً أنهم أحب من نفسك إليك".

وفي هذا الحديث فائدة كبرى تربط بين تذكّر فضل أهل البيت عليهم السلام علينا وبين حصول المحبة والشوق إليهم.

إن الانجذاب إلى العظيم أمر فطري مغروز فينا. ولكن المشكلة في التعرّف إليه.

أما الشق الثاني: فهو العمل من خلال اتباعهم واتباع أوامرهم والتحرّك وفق خطتهم العامة للبشرية، والتأسّي بهم. قال الله تعالى:

﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾.

إن الحب الحقيقي لا يحفظ إلا من خلال التقوى. ولو فرضنا أن هذا الحب هطل على قلب إنسان فاسق، فإنه إما أن يغيّره ويجعله سالكاً طريق التقوى، وإما أن يزول من قلبه إن هو بقي على حاله.

نعم، إن بعض وسائل التغيير تكون بالبلاءات الشديدة، حيث ينزل الله تعالى على هذا الفاسق البلاء لكي يرجع ويتوب. ويكون حب أهل البيت عليهم السلام خير معين له في مثل هذه الحال. وربما احتاج إلى بلاءات أعظم، وقد تكون عند الموت أو في القبر. وقد ذكر في هذا المجال أحاديث ترتبط بتطهير الموالي في الدنيا وعند الموت وما بعده. ولكن يستحيل أن تكون عاقبة من بقي في قلبه حب أهل البيت عليهم السلام النار والعذاب المقيم.

من هنا، فإن الدعوة إلى التقوى والورع لأمرين أساسيين:

الأول: للحفاظ على الحب الموجود.

الثاني: لتهيئة الأرضية لتحصيل هذا الحب إن لم يكن موجوداً.

ولكن الميزان، كل الميزان يوم القيامة هو في حب علي عليه السلام. قال صلى الله عليه وآله:

"أنا قسيم الجنة والنار".

عن الإمام الباقرؑ أنه قال:

"لن تنالوا ولايتنا إلا بالورع والاجتهاد وصدق الحديث وأداء الأمانة وحسن الجوار وحسن الخلق والوفاء بالعهد وصلة الرحم. وأعينونا بطول السجود. ولو أن قاتل عليؑ أئتمنني على أمانة لأديتها إليه".

هذا، وإن أمكن القول بشأن هذا الحديث أن الولاية المقصودة هنا أعلى رتبة من الحب المذكور في معظم الروايات.

إن الحب يدعو إلى الطاعة والطاعة تزيده قوة في القلب. وإذا لم يستجب البدن لدعوة الحب، سيرتحل من القلب عما قريب:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقاً لأطعته   أن المحب لمن يحب مطيع

وإن أشرف الأعمال وأقواها تأثيراً في النفس على صعيد الحب طاعة وليّهم عليهم السلام واتّباعه.

فعن أبي محمد العسكري عن آبائه ؑ قال: قال رسول اللهﷺ لبعض أصحابه ذات يوم:



"يا عبد الله أحبب في الله وأبغض في الله، ووال في الله وعاد في الله. فإنه لا تنال ولاية الله إلا بذلك. ولا يجد رجل طعم الإيمان، وإن كثرت صلاته وصيامه، حتى يكون كذلك. وقد صارت مؤاخاة الناس في يومكم هذا أكثرها في الدنيا، عليها يتوادون، وعليها يتباغضون، وذلك لا يغني عنهم من الله شيئاً. فقال له: وكيف لي أن أعلم أني قد واليت وعاديت في الله عزّ وجل؟ ومن ولي الله عزّ وجلّ حتى أواليه؟ ومن عدوه حتى أعاديه؟



فأشار رسول اللهﷺ إلى عليؑ وقال: أترى هذا؟ قال: بلى..

قال ﷺ: ولي هذا وليّ الله فواله، وعدو هذا عدو الله فعاده.. وال ولي هذا ولو أنه قاتل أبيك وولدك. وعاد عدو هذا ولو أنه أبوك أو ولدك".

وعن حبيش بن المعتمر قال: دخلت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام فقلت له: السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته. كيف أمسيت؟

قال: أمسيت محباً لمحبنا ومبغضاً لمبغضنا. وأمسى محبنا مغتبطاً برحمة من الله كان ينتظرها، وأمسى عدونا يؤسس بنيانه على شفا جرف هار. فكأن ذلك الشفا قد انهار به في جهنّم. وكأن أبواب الرحمة قد فتحت لأهلها. فهنيئاً لأهل الرحمة رحمتهم، والتعس لأهل النار والنار لهم. يا حبيش، من سرّه أن يعلم أمحب لنا أم مبغض، فليمتحن قلبه، فإن كان يحب ولياً لنا فليس بمبغض لنا. وإن كان يبغض ولياً لنا فليس بمحب لنا، إن الله تعالى أخذ الميثاق لمحبينا بمودتنا وكتب في الذكر اسم مبغضنا.. نحن النجباء وأفراطنا أفراط الأنبياء".

"رب صلّ على أطائب أهل بيته الذين اخترتهم لأمرك وجعلتهم خزنة علمك وحفظة دينك وخلفاءك في أرضك وحججك على عبادك وطهرتهم من الرجس والدنس تطهيراً [illegible] إليك والمسلك إلى جنّتك". [الصحيفة السجادية].

ومن الأعمال الصالحة والشريفة: الدعاء بالفرج لقائمهم (عجّل الله فرجه) والمواظبة على زيارتهم والتوسل بهم، وكان مشايخنا العظام يعظمون التوسل ويعتبرونه معيناً في السلوك. ولا شك بأن له أثراً بالغاً في تأجيج المحبة في القلب.

ختام:

من خلال ملاحظة أوضاع مجتمعنا، والنقاشات الفكرية الدائرة فيه تبيّن أن معظم الناس ينقسمون في موضوع محبة أهل البيتعليهم السلام إلى قسمين: ما بين مفرط أو مفرّط. وللأسف الشديد، فقد اجتاحت الأفكار التي تقلل من عظمة المحبة ودورها في حياة الإنسان ومصيره مجتمعنا، زاعمة أن الحب دائماً تابع للعمل والعمل هو الأساس في كل شيء، ومتهمة أصحاب المنهج الوسط بالغلو والابتداع. ودعوتها تلقى رواجاً

لما هو راسخ في نفوس الناس من الحساسية تجاه الغلو والكفر.

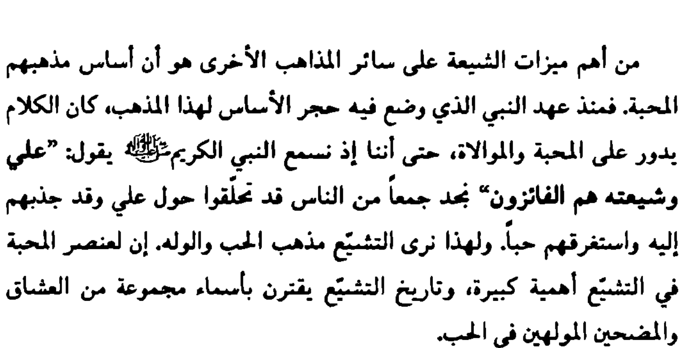
وفي تفسير الإمام العسكريؑ قال:

"لا تتجاوزوا بنا العبودية ثم قولوا ما شئتم، ولن تبلغوا. وإياكم والغلو كغلو النصارى، فإني بريء من الغالين".

ويعتبر هذا الحديث ميزاناً دقيقاً لكل الآراء والأفكار حول أهل البيتؑ. ومن عرف الحد بين العبد والرب، أي بين المخلوق والإله، بين الممكن والواجب لم يقع في الحيرة والضلالة أبداً.

الحب والأخلاق





من أهم ميزات الشيعة على سائر المذاهب الأخرى هو أن أساس مذهبهم المحبة. فمنذ عهد النبي الذي وضع فيه حجر الأساس لهذا المذهب، كان الكلام يدور على المحبة والموالاة، حتى أننا إذ نسمع النبي الكريمﷺ يقول: "**علي وشيعته هم الفائزون**" نجد جمعاً من الناس قد تحلّقوا حول علي وقد جذبهم إليه واستغرقهم حباً. ولهذا نرى التشيّع مذهب الحب والوله. إن لعنصر المحبة في التشيّع أهمية كبيرة، وتاريخ التشيّع يقترن بأسماء مجموعة من العشاق والمضحين المولهين في الحب.

علي هو ذلك الذي وإن كان يقيم الحدود الإلهية على الناس ويجلدهم ويقطع يد سارقهم بموجب الشرع، فإنهم لم يعرضوا عنه كشحا، ولم تنقص محبتهم له أبداً. وهو في هذا يقول:

"لو ضربت خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني. ولو صببت الدنيا بجمّاتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنه قضي فانقضى على لسان النبي الأميﷺ أنه قال: يا علي لا يبغضك مؤمن ولا يحبك منافق".

إن عليّاً ميزانٌ توزن به الفطرة والطينة. فمن كان ذا فطرة سليمة وطينة طاهره لا يبغضه حتى لو ضرب خيشومه. ومن كان ذا فطرة ملوّثة لا يحبه حتى لو أحسن إليه كل الإحسان، لأن عليّاً ليس سوى الحق متجسداً.

ها هو رجل من محبي علي أمير المؤمنين، ذو فضيلة وإيمان، ولكن مما يؤسف له أنه قد زلت قدمه، فكان لا بد من إجراء الحد عليه. قطع علي أصابعه اليمنى، فأمسك بها بيده اليسرى ومضى وقطرات الدم تنزف منه. فأراد ابن الكواء أن يستغل هذا الحدث لمصلحة أصحابه الخوارج وضد عليؑ، فتقدّم نحوه وقد ارتدى ملامح التعطّف والترحّم وسأله:

"من قطع يمينك؟".

فقال:

"قطع يميني سيد الوصيين، وقائد الغر المحجلين وأولى الناس بالمؤمنين، علي بن أبي طالب، إمام الهدى.. السابق إلى جنات النعيم، مصادم الأبطال، المنتقم من الجهال، معطي الزكاة.. الهادي إلى الرشاد، والناطق بالسداد، شجاع مكي، جحجاج وفي .."

فقال ابن الكواء:

"الويل لك! يقطع يمينك وتثني عليه!".

فقال:

"كيف لا أثني عليه وقد خالط حبه لحمي ودمي! والله ما قطع يدي إلاّ بما أنزله الله".

هذه النماذج من العشق والولوع التي نراها في تاريخ علي وأصحابه تجرنا إلى مسألة المحبة والحب وآثارهما.

إكسير المحبة

يطلق شعراء الفرس على العشق لفظة (إكسير). وكان أصحاب الكيمياء يعتقدون أن في العالم مادة أسموها "الإكسير" أو "الكيمياء" تستطيع أن تحيل المادة إلى مادة أخرى، فراحوا يبحثون عن هذه المادة قروناً طويلة.

وقد استعمل الشعراء هذا المصطلح وقالوا: إن الإكسير الحقيقي القادر على التغيير والتحويل هو الحب، فالحب هو القادر على قلب الماهيات. العشق هو الإكسير وله خصائص الكيمياء، أي إنه يبدل المعدن معدناً آخر، والناس معادن.

"الناس معادن كمعادن الذهب والفضة". الحب هو الذي يجعل القلب قلباً، فلولا الحب لكان القلب مجرّد ماء وطين.

ومن آثار الحب القوة والقدرة. إنه يخلق القوة ويحيل الجبان شجاعاً.

إن الدجاجة ما دامت وحيدة تطبق جناحيها وتدرج في هدوء، وقد تمد رقبتها لتلتقط دودة، وتفزع هاربة من أتفه صوت، ولا تبدي أية مقاومة حتى أمام الطفل الضعيف. إلاّ أن هذه الدجاجة نفسها إذا صارت أماً، وتمكن الحب من حنايا كيانها، تغير حالها، فتراها وقد أنزلت جناحيها في حالة التهيّؤ للدفاع، وتتخذ هيئة المحارب، وحتى صوتها يمتلئ قوة وشجاعة.. كانت من قبل تهرب عند استشعار الخطر، أما الآن فإنها تهجم عند استشعار الخطر، وتهجم بكل جرأة، إنه الحب الذي أحال هذه الدجاجة الجبانة إلى حيوان جريء وشجاع!.

إن الحب يحيل الثقيل الكسول إلى خفيف سريع الحركة، بل إنه يحيل الأحمق إلى ذكي حاد الذهن.

هذا الفتى وهذه الفتاة اللذان لم يكونا يفكران ـ وهما خليلين ـ إلا فيما يخصهما وحدهما، أصبحا ـ بعد أن ارتبطا برباط الزواج وتكوين العائلة ـ لا يفكران إلا فيما يخص الطرف الآخر، فتتداخل أشعة مطاليبهما، وما أن يرزقا بالوليد حتى يتغيران كل التغير. فذاك الفتى المتثاقل الكسول غدا سريعاً كثير الحركة، وتلك الفتاة التي لم تكن تغادر الفراش إلاّ بعناء، أمست الآن كالبرق الخاطف انطلاقاً إذا سمعت صوت طفلها النائم في المهد. ترى ما تلك القدرة التي أزالت ذلك الكسل والتراخي واستبدلته بكل هذا النشاط والحركة؟ إنها الحب ليس غيرا..

إنه الحب الذي يحيل البخيل كريماً، والعجول صبوراً!..

إنه الحب الذي يجعل من الدجاجة الأنانية التي لم تكن تفكر إلا في نفسها، وتلتقط الحب لحياتها، حيواناً جواداً إذا وجدت حبة نادت فراخها. وإنه الحب الذي يجعل من الأم التي كانت بالأمس القريب أنانية، مغرورة، كسولة تستعجل الأمور ثائرة الأعصاب، ضعيفة الصبر، قليلة التحمّل، امرأة عجيبة في صبرها وتحملها ورضاها بالجوع والعطش والتعب وقلّة النوم وانعدام الأناقة وتحمّل مشاق الأمومة. إن من آثار الحب الرقّة واللطف وتجنّب الخشونة والفظاظة، ومن آثاره تلطيف العواطف والأحاسيس، وكذلك التوحيد والتوحد والتركيز، والقضاء على التشتت والتفرّق، وبلوغ القوة الحاصلة من الاتحاد والتجمع.

أما في الشعر والأدب فإننا نصادف أثراً واحداً من آثار الحب، وهو فيض الوحي والإلهام، يقول حافظ الشيرازي ما ترجمته:

(البلبل من فيض الورد تعلّم الكلام، وإلاّ ما كان كل هذا القول والغزل معبأً في منقاره)

فعلى الرغم من أن المعنى الظاهري لكلمة "فيض" أمر خارج عن وجود البلبل، إلا أنه ليس في الحقيقة سوى قدرة الحب.

(لا تظن مجنوناً أصيب بالجنون جزافاً فهو "مجذوب" ليلى من قرنه إلى قدمه)

إن الحب يوقظ القوى النائمة ويطلق الطاقات المقيّدة. مثل ذلك انفلاق الذرة وانطلاق طاقاتها.

إنه يلهم، ويصنع الأبطال. وما أكثر الشعراء والفلاسفة والفنانين الذين خلقهم حب قوي!..

الحب يوصل النفس إلى كمالها ويظهر المواهب الكامنة المحيرة. إنه يلهم القوى المدركة، ويقوي مشاعر الإرادة والعزمة. وإذا ما تسامى في العلى صنع الكرامات وخوارق العادات.

إنه يطهر الروح من الأخلاط والشوائب. فالحب، بعبارة أخرى، يصفّي. إنه يمحو الصفات الرذيلة الناشئة من الأنانية أو من البرود وانعدام الحرارة، كالبخل، والتقتير، والجبن، والكسل، والتكبر والعجب. إنه يزيل الحقد والحسد، وإن قيل أن الحرمان والإخفاق في الحب يمكن أن يخلقا بدورهما الحقد والعقد.

(بالحب يحلوكل مر بالحب يصبح النحاس ذهباً)

أثر الحب على الروح إعمار وبناء، وعلى الجسم تذويب وتخريب. إن أثره في الجسم عكس تأثيره في الروح، فهو في الجسم باعث على خرابه واصفراره ونحوله وسقمه واختلال هامته وأعصابه، وغير ذلك من صور الهدم والتخريب. ولكنه في الروح ليس كذلك، بحسب موضوع الحب، وما يريده المحب منه. فإذا تجاوزنا آثار الحب الاجتماعية، فإنه من حيث آثاره الروحية الفردية تكميلي، لأنه يولد القوة والرقة والصفاء والاتحاد والهمة، ويقضي على الضعف والجبن والكراهية والتفرق والبلادة، وينقي الروح والشوائب التي هي "الدسّ" بتعبير القرآن، ويزيل الغش ويجعل العيار خالصاً.

"علي في قوتيه الجاذبة والدافعة"
الشهيد مطهري



في الفهم والتحليل

1. [illegible]

1. يُعتبر التمسك بأهل البيت تكليفاً أساسياً:
أ. لأنه أمر عظيم.
ب. لأن الرسالة عدّته أحد الثقلين.
ج. لأن كل الناس يحبون التمسك بهم.
د. لكي نعرف المؤمن من الفاسق.

2. كانت المحبة أساس دعوة الأنبياء
أ. لأنها ميل فطري أصيل في كل إنسان.
ب. لسهولة التعرّف عليها.
ج. لا، لم تكن إلا في المسيحية.
د. لأن التعاليم الأخلاقية تنسجم معها.

3. حقيقة الحب في نفس كل إنسان هي:
أ. الرغبة والشوق إلى لقاء المحبوب.
ب. الانجذاب نحو الكمال المطلق.
ج. الانجذاب نحو الكمال الذي تراه النفس.
د. عبارة عن توجهات فطرية باطنية.

4. حب الكمال الحقيقي مانع من ارتكاب الذنوب:
أ. لأنه يجعل النفس لينة شيّقة.
ب. لأنه يجعل اللذات مكروهة.
ج. لأنه يسقط كمال الدنيا الموهوم الذي هو رأس كل خطيئة.
د. لا يمنع من ارتكاب الذنوب كما نشاهد.

5. يحشر المرء مع من أحب:
أ. لكي يبقى معه بعد الموت.
ب. لأن الله تعالى عادل بخلقه.
ج. لكي لا يحشر مع من يبغض.
د. لأنه عبارة عن مشاكلة الحبيب للمحبوب.

6. إن قوة الشريعة الإسلامية تكمن:
أ. في التأكيد على الواجبات.
ب. في تأكيدها على النقطة المركزية وهي القلب.
ج. في حضورها الدائم في كل الأوقات.
د. في سهولتها وسماحتها.

7. الأصح هو:
أ. حب أي كمال يتعارض مع حب الكمال [illegible]
ب. حب أي كمال ينبع من حب الكمال المطلق
ج. حب الأهل والعيال يتعارض مع حب الله.
د. التنفر من النقص يعود إلى حب الكمال.

8. حقيقة محبة أهل البيت هي:
أ. حب الكمال البشري الخالص.
ب. حب الكمال المطلق لأنهم مظاهره.
ج. حب الصلاح والخير.
د. الفطرة الصافية من الشوائب.

9. تُعرف محبة أهل البيت(ع) في القلب من خلال:
أ. حب الصلاة والدعاء.
ب. الإقبال على العبادة بشغف.
ج. الخشوع في العبادة.
د. حب أوليائهم وشيعتهم.

10. محبة أهل البيت(ع) موهبة إلهية:
أ. ينالها من سعى.
ب. لا ينالها إلا من كان سعيداً.
ج. تختص ببعض الناس دون غيرهم.
د. ليست باختيار الإنسان.

2. [illegible]

الحب. علم الرجال. العلم الحضوري. المشاكلة. الولاية التكوينية. المصداق. الإنسان الكامل. ملكة. التصور. التصديق.

3. [illegible]

1. الإيمان الحقيقي يتجلى في الدنيا———◇
2. الإنسان مفطور على طلب الكمال المطلق◇
3. أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون◇
4. من علامات الحب الحقيقي———◇
5. أوثق عرى الإيمان———◇
6. حب أهل البيت إيمان وبغضهم كفر———◇

- أ. انقطاع النفس عن الشواغل الدنيوية
- ب. لأن حبهم يغير باطن الإنسان من الكفر إلى الايمان
- ج. بصورة حب المؤمنين
- د. التولي والتبري
- هـ. لأن الله معهم أين ما كانوا
- و. لكن المشكلة هي في تشخيص الكمال الواقعي

4. [illegible]

1. بعث الله الأنبياء لزرع أسس الفطرة السليمة في نفوس البشر.
2. الوصول إلى الكمال المطلق يمكن ان يتحقق من خلال جمع الكمالات المحدودة.
3. الحب أمر وهبي من الله وفوق اختيار الإنسان.
4. الطاعة هي إحدى لوازم الحب.
5. حب أهل البيت شرط لقبول الأعمال.
6. يمكن للإنسان ان يجمع في قلبه بين حب الدنيا وحب الآخرة.
7. الحد الأقصى المطلوب من الحب للنجاة في الآخرة هو محبة شمائل أهل البيت وصفاتهم.
8. قد يموت الإنسان وهو فاسق ومحب لأهل البيت (ع) في آن معا.
9. ليس المطلوب من المؤمن في الدنيا حب المؤمنين، لكن من واجبه مراعاة شعورهم وعدم إهانتهم .
10. القلب هو أمير البدن لكن القائد الفعلي للجوارح كالسمع والبصر هو العمل.

5. إملأ الفراغ بالكلمة المناسبة

انجذاب، تتجلى، محبة أهل البيت،حب أوليائه، الحقيقي، كماله،التقوى، الكفر، نقصاً، التبعية،

الإنسان الكامل، الحب، المصداق، الإيمان، حب الدنيا، الطاعة، حب الله، المحبوب،حفظ.

جُعل الأجر على الرسالة الخاتمة   لأن هذه المحبة ستكون سبباً لـ   الرسالة وبقائها حية بين الناس.

إن العمل الصالح وأداء الفرائض أمر قد يقوم به أي إنسان، ولكن الصلاح والعبادة الواقعية

في الدنيا بصورة ولاية

إن من الميول الفطرية المودعة في كل إنسان الذي هو تعلق خاص و

مخصوص بين المرء و فلا يمكن أن يتعلق إنسان بشيء يراه أو ضرراً.

بُعث الأنبياء ليدلوا الناس على الواقعي للكمال الذي ينشدونه وإيصالهم إلى

الأصلي الذي يبحثون عنه في أعماقهم.

هو رأس كل خطيئة وهو المانع من تحقق و في

القلب.

إن الدرجة المطلوبة من الحب هي تلك التي تؤدي إلى تغيير باطن الإنسان من

إلى

إن أعلى درجات الحب تظهر في الدنيا بصورة الكاملة و المطلقة لولي الأمر.

إن الحافظ للحب الحقيقي في قلب الإنسان هي

6. أجب باختصار

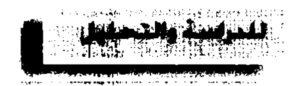
6.1. روي عن أمير المؤمنين أنه قال "من أحبنا أهل البيت فليستعد للفقر جلباباً"
علّل سبب اعتبار الفقر أحد آثار حب أهل البيت (ع).

6.2. هل يستطيع الإنسان التعرف على حقيقة الحب في نفسه، وكيف ذلك؟

6.3. أذكر كيف يتم السعي لتحصيل محبة أهل البيت عليهم السلام على المستوى:

العلمي:

العملي:



اعتمد النموذج التالي للإجابة عن السؤال.

الإجابة: (النتيجة المتوخاة)

فكرة داعمة أولى: ....

فكرة داعمة ثانية:

فكرة داعمة ثالثة:

(الفكرة الداعمة تقدم المعطيات، الأسباب، الأدلة، الآيات، الأحاديث الداعمة للإجابة)

الاستنتاج:

(كتابة خلاصة تؤكد على النقطة الرئيسية في الإجابة)

أعد صياغة إجابتك في فقرة.

فوزي رجل في العقد الرابع من عمره. يقول أنه لم يعش يوماً بعيداً عن حب أهل البيت(ع) فقد امتزجت روحه بمجالس أبي عبد الله منذ أن كان شاباً. وهو يشعر بالسخط الشديد على الذين يقدمون القضايا السياسية على الترويج لمحبة أهل البيت، ويعملون على إخفاء قضية كسر الضلع تحت حجة الحفاظ على الوحدة بين المسلمين.

ما رأيك بفوزي، وكيف يمكن التواصل معه؟

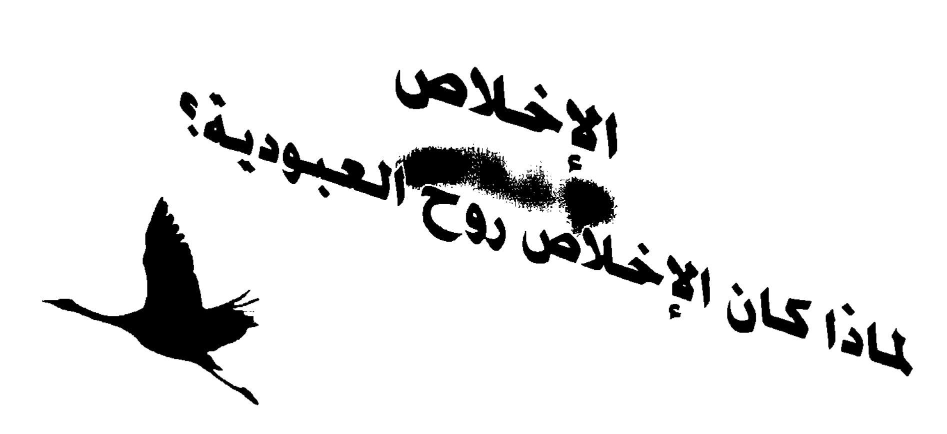
بالرجوع إلى القرآن الكريم استخرج مجموعة من الآيات تشير إلى تأثير التولي والتبري على مصير الإنسان الأخروي.





الإخلاص

لماذا كان الإخلاص روح العبودية؟





الإخلاص

مع نهاية هذا الفصل تكون قد تعرّفت على:

- معنى الإخلاص وموقعه في العبودية.
- أن الإخلاص شرط أساسي للعبودية.
- أن الإخلاص لا يكون بالعلم و التصور.
- أن تحقيق الإخلاص يحتاج إلى المجاهدة العملية.
- مراحل التصفية الموصلة إلى الإخلاص.

".. إني لا أطلع على قلب عبد فاعلم منه حب الإخلاص لطاعتي وابتغاء مرضاتي إلاّ توليّت تقويمه وسياسته". (حديث قدسي)

* ما هو الإخلاص؟

إن من أسرار الإسلام وتعاليمه التي تميزه عن غيره معرفة حقيقة الإخلاص الذي لا تقبل عبادة أو عمل صالح بدونه.

فإن من الواضحات المسلّمات في دين الإسلام أنه لو قام عبد بكل أعمال البر، وعبد الله سبحانه ليله ونهاره، وضاهى الملائكة في تسبيحهم وتقديسهم، وبات أيامه صائماً قائماً، ولكنه لم يخلص لله في ذلك، ما قبل الله منه شيئاً، ولكانت جميع أعماله هباءاً منثوراً!

وصحيح أننا أمرنا بالعبادة، وكانت العبادة شرطاً أساسياً لتحقيق العبودية والوصول إلى مقامها الشامخ، ولكننا أمرنا بالعبادة الخالصة لا غير؛ قال الله تعالى:

﴿وما أمروا إلاّ ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾.

وإنّا إذا أردنا أن نجعل سلوكنا من الله وإلى الله، يجب أن تكون جميع مناسكنا، بل كل حياتنا، لا بل ومماتنا أيضاً لله تعالى:

﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين﴾.

ولعل هذا أحد معاني ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ . وهو أيضاً معنى العبودية الحقة. وإن السلوك هو الدين. فإذا كنا نريد أن نجعل سلوكنا لله، ينبغي أن يكون ديننا لله، والله تعالى لا يقبل سوى الدين الخالص:

﴿ألا لله الدين الخالص﴾.

إن جعل العمل والعبادة والحياة لله، لا يتحقق بمجرّد تطبيقها وفق ما يريده الله في الظاهر، أو موافقتها لأحكامه فحسب، بل بمعنى أن لا نطلب من ورائها سوى الله، وهذا هو الإخلاص.

وإذا أراد الإنسان أن يخضع كل وجوده لله، و يجعل إرادته فانية في إرادة الله، فإن عليه أولاً: جعل كل حركاته الظاهرة موافقة لشريعة الله التي هي مظهر إرادته الفعلية والترجمة القانونية لما يريده الله منه، وثانياً: جعل باطنه تابعاً لإرادة الله.

ومن أراد جعل الباطن موافقاً لإرادة المعبود، فعليه أن يصفي نيته مما سواه سبحانه. والخضوع الأول الذي يمثل الجناح الأول للعبودية، هو الالتزام والتقوى والورع. أما الخضوع الثاني فهو الذي يقيم بنيان الإخلاص. وإن من معاني الباطن وانفعالاته تلك التوجهات الغائية والمبتغيات والأهداف التي تكمن وراء المساعي وتكون بمنزلة الدوافع للقيام بالأعمال المختلفة. وهي من هذه الجهة أكثر أهمية في العبادة من نفس العباده. ولعل قول النبي صلى الله عليه وآله إنما الأعمال بالنيات يشير إلى هذا المطلب.

إن إعتبار الإخلاص أحد القيم الأخلاقية بعرض الكرم والشجاعة والصبر والحلم يدل على الجهل بحقيقته. لأنه هو روح العبودية وجوهرها، والوجه الخفي فيها، الذي لا يعلم به سوى صاحبه، وهذا أحد وجوه السر فيه، وقد ورد بشأنه عن سيدة نساء العالمين عليها السلام أنها قالت:

"الإخلاص سر من أسرار الله، استودعه الله قلوب خاصة خلقه".

وهو المقوّم لتلك القيم، يضفي عليها أنوار العظمة والتسديد. وعندما

يقال إن الإخلاص متعلق بالنوايا فهذا لا يعني أن الإخلاص عبارة عن العزم على العمل الصالح أو المطلوب. إنه ليس مجرد النية؛ لأنّ النية أمر حتمي عند كل عمل، ويتساوى فيها كل عامل مختار، وهي عبارة "عن التصميم والعزم على إتيان شيء وإجماع النفس على إتيانه بعد تصوره والتصديق بفائدته والحكم بلزوم إتيانه، وهي حالة نفسانية ووجدانية تكون بعد هذه الأمور. ونعبر عنها بالهمة والعزم والإرادة والقصد. وهي موجودة في جميع الأمور الاختيارية، ولا يمكن تخلّف فعل إرادي عنها. وهذا الأمر موجود في تمام العمل من أوله إلى آخره دون شائبة مجاز، ولا يلزم أن تكون حاصلة في الذهن أثناء العمل أو في أوله تفصيلاً". [معراج السالكين؛ الإمام الخميني]

بل الإخلاص هو تصحيح هذه النية، وتوجيهها بالاتّجاه المطلوب. فبالإضافة إلى العزم والهم بالعمل، تتألّف النية من الطلب والقصد. فلا يخلو عمل إختياري من غاية أو هدف. ويكون العمل وسيلة إلى هذا المقصد، ولو بطريق غير مباشر. الإخلاص يدخل إلى هذا الشق من النية، لأن الشق الأول حاصل ما دام الإنسان مختاراً واعياً، وعندما يدخل فهو يريد أن يصحح القصود والغايات. فالإخلاص لله يعني أن تكون أهدافنا في أي تحرك وعبادة أهدافاً إلهية وضعها الله لنا وجعلها غايات الأعمال والعبادات : ألا لله الدين الخالص، ولا يتمكن العابد العامل من تصحيح قصده ونيته من دون معرفة إرادة الله منه، وتطبيق قصده وانطباقه على قصد الرب سبحانه. وعليه، نجد أن الإخلاص من أكثر الأشياء ندرة على صعيد القيم السائدة والمبادئ المتبناة. وإنما نقول هذا بلحاظ الآثار العظيمة التي رتّبها الرب المتعال عليه ووعد بها من أخلص له وأطاعه. فمن كان من أهل الإخلاص، هو أعظم بكثير ممن كان من أهل الشجاعة أو السخاء أو غيرها من القيم.

إذا دخل السالك إلى مقام التوحيد الحقيقي فقد دخل في حصن آمن. ومن كان آمناً فلن يكون إلاّ راضياً. والرضى لن يتحقق إلاّ ببلوغ ما يتمنّى ويرغب. كما أن مجرّد تعداد المقامات لا يعني إننا تصورناها. وما لم نتصورها لن نرغب بها. فالإنسان لا يصل يوم القيامة، بعد الدخول في التوحيد، إلاّ إلى المعرفة التي يرغب في تحققها.

إن معظم العاملين لا يتمكّنون من تحقيق الإخلاص المذكور لخفائه عليهم من جهة، ولرسوخ المقاصد غير الإلهية في نفوسهم من جهة

أخرى. وقبل أن يدخل الإنسان في السلوك بل وأثنائه، لا بل وحتى نهاياته، تكون رغبات النفس ومقاصدها الخاصة حاضرة ومؤثرة. ولأن بقاء هذه المقاصد يكدر النية ويمنع تحقق الإخلاص، فلا تكون أعماله مقربة له إلى الله تعالى.

فعندما لا تنطلق الأعمال من الإخلاص، تكون منطلقاتها أهواء النفس ورؤيتها وطلب حظوظها. وما دامت كذلك فإن المطلوب لن يكون الله والمعبود لن يكون سوى النفس؛ قال الله تعالى: ﴿**أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم**﴾. وعندما يفرغ السالك من تلك المنطلقات والأهداف الذاتية ـ بمعزل عن حسنها أو قبحها ـ وتنعدم فيه الرغبات الخاصة النابعة من النفس، ويكون المطلوب عنده ما يطلبه الله منه يتحقق الإخلاص.

إن المقاصد التي تنشأ من الأهواء كثيرة وغائرة في أعماق النفس. ولهذا كان السعي نحو الإخلاص يتطلّب الدخول إلى هذه الأعماق السحيقة، لاستخراج كل ما خفي من المقاصد النفسية، والتخلّص منها.

ويعرِّف الإمام الخميني الإخلاص العملي والقلبي قائلاً:

"إن حقيقة الإخلاص هي تصفية العمل من شائبة غير الله. وتصفية السر من رؤية غير الحق تعالى. وذلك في جميع الأعمال الصورية واللبية والظاهرية والباطنية.. أما كماله فهو ترك الغير مطلقاً ومحو الإنية والأنانية والغير والغيرية. قال تعالى: ﴿**ألا لله الدين الخالص**﴾.



وليس هذا هو الوجه الوحيد لسر الإخلاص. بل لعل أعظم شيء فيه هو أن الوصول إليه والتحقق به يساوي الوصول إلى الله تعالى. إن العبد إذا وصل إلى الإخلاص، وقام بأي عمل مخلصاً لله، فسيقبل هذا العمل. وإذا قبل عمل العبد رفعه إلى الله وأصبح في جواره. فإن من سعى نحو الإخلاص وجعل قلبه مخلصاً لله، تولى الرب سبحانه تقويم إعوجاجه وتربيته بنفسه. وإذا حاز العبد مرتبة التربية على يد الحق،

فكيف ستكون النتيجة؟

إن تربية الحق تعطي النتيجة الحتمية. إنها صيرورة الإنسان عبداً خالصاً لله إنها تعني إيصال العبد إلى جوار الله، إلى الغاية النهائية. ولا يمكن تحصيل هذه المرتبة إلاّ بتحصيل الاستعداد الخاص في النفس. وإن السعي نحو الإخلاص وتصفية القلب لهو الطريق إلى ذلك.

بل إذا أمعنا النظر في الحديث القدسي وجدنا أن مجرّد طلب الإخلاص وحب الوصول إليه كفيل بتحصيل ذلك الاستعداد.

إن هذا أحد أسرار التربية الإسلامية وأعظم وجوه منهج الإسلام السلوكي. فكل ما هو مطلوب منك: أن تصفي نيتك من طلب غير الحق سبحانه، وسيكون الباقي على الله تعالى!

وكم يمكن أن تستغرق عملية التصفية هذه؟ وهل تحتاج إلى مدة زمنية طويلة؟

كلا، إن التصفية بحد ذاتها قد لا تستغرق أكثر من لحظة واحدة. فإن الأمر متعلّق بالنية، بالقصد، وبالطلب. وهو أمر قلبي نفساني لا يتعلّق بالزمان والمكان.

إذاً، وبناء على هذا الكلام، قد يتحقق الوصول في لحظة واحدة. ويكون عبور جميع المراتب والكمالات في لحظة كلمح البصر أو هو أقرب.

أجل، إن هذا من السر المستودع في الإخلاص.

إن الإكثار من العمل والعبادة ليس هو المطلب الواقعي لوجود الإنسان. بل المطلوب خضوع سرّه وحقيقته لله. فإذا تحقق هذا الأمر في صلاة واحدة لكفى، ولكان الهدف من وجوده قد تحقق.

إن المخلص يصل إلى مرحلة يعلم فيها أن عليه تسليم الوجه، الذي هو توجه النفس بمراتبها، لله. وأن الله يريد منه ذلك. فإذا فعل كان الوجه لله، أي كانت وجهته هي الله، فيقبل الله عليه بوجهه أيضاً:

﴿فقل أسلمت وجهي لله﴾.

﴿قل إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً﴾.

ولعل أحد معاني وجه الله هو ظهوره تعالى بأسمائه وصفاته على قلب العبد: ﴿ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾. وليس المقصود من هذا التجلي والظهور سوى حصول معرفته وشهوده من قبل العبد، وعلّم آدم الأسماء كلها، لأن الله تعالى من جهة أخرى دائم الظهور لم يغب قط، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن.. ومعنى أنه تعالى ظهر أو تجلى على عبده هو صيرورة العبد مستعداً مستحقاً لشهود هذا التجلي. وإذا كان تسليم الوجه لله بمعنى تخليص مراتب النفس لله، فإن نتيجته تكون أن الله تعالى يستخلصه لنفسه فيكون من المخلَصين. لأن الإخلاص في هذه المرحلة يقع من الرب لا من العبد. فالعبد أخلص العمل فكان من المخلِصين والربّ أخلص العبد فكان من المخلَصين. ونتيجة هذا الإخلاص الذاتي أو الخلوص أن الله تعالى يعرفه نفسه دون شائبة وهم يقتضي التسبيح؛ قال تعالى: ﴿سبحان الله عما يصفون إلاّ عباد الله المخلصين﴾.

وهو معنى فناء العبد في الرب، وصيرورة وجوده وجوداً ربانياً لا أنانية فيه أي رغبة للنفس من النفس، ولا إنية فيه أي رؤية لها منها. ومثل هذه الصبغة الإلهية طاهرة من كل دنس ومصونة من كل رحس؛ فكيف يتمكن إبليس الذي هو أساس كل نجس ورجز من التصرف في نفوسهم أو التأثير على قلوبهم؟ بل يعترف قائلا: ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلاّ عبادك منهم المخلَصين﴾.

ولهذا، لا ينبغي للسالك أن يقصر النظر على كثرة العمل وتكرار العبادة وكيفية الإتيان بها بحسب الظاهر مطابقاً للشرع، لأن في هذا الإقتصار حرمان عظيم؛ بل عليه أن ينظر أيضا إلى النية والقصد لأنهما روح العمل والعبادة. والله تعالى لا يريد منا سوى المعنى والروح "إن الله ينظر إلى قلوبكم لا إلى صوركم".. "وإنما الأعمال بالنّيات".

بل يقال أن الله لسعة رحمته بعباده قد أعطانا الفرصة لنكرر العمل والعبادة من أجل أن نوفق ذات مرة لتحقيق الإخلاص.. إن أحد أهداف هذه الكثرة والتكرار هو حصول هذا التوفيق!. فإذا حصل، فقد حصل المطلوب وبلغ الغاية النهائية.

وحقيقة السير والسلوك في المدرسة الإسلامية الأصيلة عبارة عن تصفية الباطن لتحقيق الإخلاص. وكأن السالك لا هم له في كل ما يقوم به من مجاهدات ورياضات شرعية سوى النظر إلى النية والباطن لإصلاحهما.

إن الله تعالى قد يسّر لنا سبيل الإخلاص بعد معرفة حقيقته من خلال الإطلاع على باطننا، والتعرّف على حقيقة نوايانا ومقاصدنا. لأننا بدون ذلك سنبقى أدعياء مغرورين غافلين عن الحقيقة.

ولأجل أن نطلع على باطننا أمرنا بعبادته كما يريد. أي أمرنا بالتقوى. ثم أصابنا بالبلاء لكي نكتشف الكدر والشوائب في توجهاتنا إن وجدت. فمن خلال التقوى يروّض السالك نفسه على اتباع الحق سبحانه، ويقمع رغباته، أو يجعلها منقادة للمعبود الحق. ومن خلال تلك الامتحانات المتكررة، نعلم مدى صدقنا في طلب الحق تعالى.

لا يمكن أن يكون السالك طالباً للإخلاص بصدق ولا يُوفَق للوصول إليه. بل إن كل ما يطلبه الانسان بصدق سوف يصل إليه حتماً. وإذا حال الموت بينه وبين ما طلبه صادقاً، فإن الله تعالى سيوصله إليه.

وعن الإمام الصادق عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾.

قال: "**ليس يعني أكثركم عملاً، ولكن أصوبكم عملاً. وإنما الإصابة؛ خشية الله والنية الصادقة والحسنة. ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل. والعمل الخالص هو الذي لا تريد أن يحمدك عليه أحد إلا الله عزّ وجلّ. والنية أفضل من العمل. ألا وإن النية هي العمل، ثم تلا قوله تعالى: ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ يعني على نيته**". [الكافي]

وتأمل في قوله عليه السلام: "**ألا وإن النية هي العمل**"، فإن فيه إشارة إلى ما ذُكر.

وعنه ﷺ قال:

"المغرور في الدنيا مسكين وفي الآخرة مغبون، لأنه باع الأفضل بالأدنى.. إلى أن قالﷺ: وربما أقمت نفسك على العبادة متكلفاً والله يريد الإخلاص".

وعنه أيضاً:

"الإخلاص يجمع حواصل الأعمال، وهو معنىً مفتاحه القبول وتوقيعه الرضا. فمن تقبل الله منه ورضي عنه فهو المخلص، وإن قل عمله. ومن لا يتقبّل الله منه، فليس بمخلص وإن كثر عمله..".

* برنامج تحقيق الإخلاص

علمنا أن العمل لوحده لا يكفي لتحقق العبودية، وإن طابق أوامر الله. بل لا بد من إخضاع الباطن وتوجيهه نحو الله، وجعل مقاصده وغاياته لله سبحانه. فإذا عرفنا كيف نخضع الظاهر من خلال مطابقة العمل مع الشريعة، فكيف نخضع الباطن ونصفي نوايانا من كل ما سوى الله؟



إن من المسائل المهمّة التي ينبغي الالتفات إليها جيداً ضرورة عدم الفصل بين الظاهر والباطن. فما قمنا به من شرح هو لأجل تفهيم المطلب من خلال التجزئة والتحليل. فلا بأس من هذه الناحية أن يحصل الفصل والتفرقة في مقام الذهن. أما في الواقع فإن الظاهر لا يكون إلا تجلّ للباطن(في مرتبة العمل)، ومن خلال الظاهر يمكن الاطلاع على ما في الباطن. والظاهر يكون طريقاً ووسيلة لإصلاح الباطن (من خلال العمل أيضاً). فعندما يطلع العبد على وجود الشر والفساد في باطنه، فهذا يعني أن الله يريد به الخير أيضاً.

وإذا عزم على إصلاح باطنه، وإزالة الشر منه، عليه بالعمل الصالح، لأنه الوسيلة الوحيدة في الدنيا للإصلاح.

إن الشر الواقعي في النفس هو الكفر؛ ومنه تنبع جميع الشرور والقبائح. وإذا لم يكن الكفر مسيطراً ومستحكماً في الباطن، قد يسمّى شركاً. ولعله من هذه الجهة قال تعالى: ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾، حيث جمع سبحانه بين الايمان والشرك به الذي هو من أقبح الأمور.. وإن من المعاني الواضحة للشرك التوجه إلى غير الله وطلب الخير أو الكمال أو النفع منه. لهذا كان الشرك مضاداً للإخلاص. وكان الإخلاص كمال التوحيد. فإن من أراد تكميل توحيده وطرد الشرك من قلبه يصل إلى التوحيد.. وليس السعي نحو الإخلاص في الحقيقة إلا عبارة عن إزالة جميع مراتب الشرك من الباطن.

تأمل مجدداً في معنى الإخلاص تجده مضاداً تماماً للشرك. فإن المشرك يعتقد بتأثير غير الله سواء كان إنساناً أم صنما أم شيئا آخر. ولما اعتقد ذلك توجه إليه على أمل وصول نفعه والحصول على خيره. والمخلص هو الذي لا يطلب النفع أو الخير إلا من الله. بل لا يطلب سوى الله. ويمكن القول أن الإخلاص هو التعبير الصادق والعملي والنفسي عن التوحيد الإعتقادي. فمن كان صادقاً في اعتقاده بانحصار التأثير والخير بالله، لن يطلب ذلك سوى منه تعالى. وهذا هو الإخلاص.

ولكي يصل السالك إلى الإخلاص فإن أهم ما يقوم به بعد القضاء على جذور الشرك الاعتقادي أن يهاجمه في العمل والسلوك. فلا يطلب من وراء أي عمل يقوم به سوى وجه الله تعالى. ومثل هذا الأمر لأنه يكون صعباً وثقيلاً على الكثيرين، فإنهم يحتاجون إلى مراحل وتدرج؛ نظراً لاستحكام جذور الشرك في النفوس. وصحيح أن الشرك ينبع من الاعتقاد ويكون القلب والباطن مقره، لكنه صاحب دعوة بل دعوات. فهو يدعو إلى المعصية لأنها وسيلته لنيل المبتغى. فطالما اعتقد العبد بتأثير الدنيا على سعادته، فلماذا لا يسعى لطلبها والخضوع لشروطها. وإذا طلبت منه مخالفة الحق تعالى، فلماذا لا يخالف!؟ وإذا اعتقد بتأثير أمريكا الطاغوت على مصيره، وظن أنها يمكن أن تسعده أو تشقيه،

فلماذا والحال هذه لا يطيعها ويتبع أوامرها. أليست عبادة الطاغوت إلا هذا؟! وكأي شيء في هذا العالم إذا أطيعت الدنيا والطاغوت وأمثالهما فإنها تزداد قوة وسلطنة، فتأمر بالمزيد حتى يسهل عليه ارتكاب كل المعاصي. حتى قيل أن الشرك لا يترك ظلماً إلا ويأمر به. ولهذاكان الشرك ظلما عظيماً : ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾.

وفي المقابل يكون الخروج من المعاصي والتخلص من الذنوب وارتكاب الظلم إضعافاً للشرك. وبالتالي سعياً نحو الإخلاص. فلو تصورنا شخصاً لا يرتكب أي ظلم، فإن بينه وبين الإخلاص الذي هو حقيقة التوحيد خطوة واحدة.

إن عملية المخالفة هذه هي المسماة ببرنامج التقوى. فالتقوى الحقيقية عبارة عن سلوك طريق اقتلاع جذور الشرك من النفس. إنها طريق التوحيد، أي طريق الوصول إلى الإخلاص.

التقوى المقصودة هنا ليست حالة جزئية، بل هي سعي كلي. إن مطابقة أحد أعمالنا أو بعض أعمالنا أو قسماً كبيراً من أعمالنا مع شريعة الله، لا يعني بالضرورة أننا عبرنا مراتب التقوى. كما أن صدور بعض المعاصي لا يكون دليلاً على عدم السلوك. بل المعيار في النهج العام والمسار الكلي لحياتنا. وعزمنا على التصفية والمجاهدة وجعل حياتنا لله هو الذي يعطي للسلوك وجهه.

إن الله تعالى يقول: ﴿إنما يتقبّل الله من المتقين﴾، فلماذا؟

ذلك لأن هؤلاء قد سلكوا طريق الإخلاص الذي هو شرط قبول العمل.

حقيقة التقوى هي النظر إلى المعبود في العمل، والقيام به على أساس إنه أمر الله تعالى. هذا، وإن كان هذا النظر يبدو ضعيفاً في البداية، ويتردد ذهاباً وإياباً عند السالك، لكنه متى استحكم في

النفس، أصبحت جميع مساعيه لله أو على طريق الله، أي على طريق الإخلاص.

إن الحكم على النتيجة هنا قد يكون سابقاً لأوانه. فقد تخفى على الإنسان خافية لا يعلم معها إذا كانت التقوى حقاً هي المطلب وهي الحاكم. فكيف له أن يتأكّد من ذلك؟

بالاستمرار والثبات، أي بالاستقامة. وهي معنى المسار العام.. وتكون العاقبة هي الإخلاص ﴿والعاقبة للمتقين﴾.

وعليه، ماذا ينتج هذا البيان؟

أحد نتائجه المهمة أنه لو مات الإنسان على طريق الإخلاص لوصل إلى المطلوب، لأن الله يعلم ما في نيته، وأنه لو بقي في الدنيا لوصل إلى الإخلاص من خلال التقوى.

أما الشرط المطلوب للظاهر ليكون وسيلة للاطلاع على الباطن، فقد علم إجمالاً من خلال ما تقدم. فالشرط هو النظر إلى المسيرة العامة في حياتنا، وليس إلى جزئيات الأعمال هنا وهناك. فإذا وجدنا هذه المسيرة متجهة نحو التقوى الكاملة، فهذا دليل على أن الله تعالى يريد بنا خيراً، وإن شابها عثرات هنا وسقطات هناك.

لمعرفة المدى الذي يمكن أن يبلغه الإنسان في مجال معرفة الله تعالى ينبغي تحصيل مقدمات نظرية وفكرية أساسية. ومن أجمل ما كُتب في هذا المجال كتاب ألّفه الإمام بعنوان "مصباح الهداية إلى الخلافة والولاية".

وإذا وجدنا هذه المسيرة متجهة نحو المعصية، فهذا علامة على الانحدار والسقوط الواقعي، وإن كنّا نقوم بالأعمال العظيمة والعبادات الكثيرة.

وبما أن التقوى كمسيرة عامة عبارة عن عملية مستمرة لإزالة الشرك واقتلاع جذوره من النفس، فإن السالك هنا يحتاج إلى مراقبة هذه العملية وإنجازاتها. فمع كل مرتبة من التقوى يصفي باطنه من درجة شرك حتى تحصل التصفية التامة (الإخلاص) بالتقوى الكاملة: قال أمير المؤمنين عليه السلام: "**إنما هي نفسي أروضها بالتقوى**".

فالبرنامج العملي والطريق الوحيد إلى الإخلاص هو التقوى.

وعن أمير المؤمنين أيضاً: "**إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا طمعاً في جنتك، ولكني وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك**".

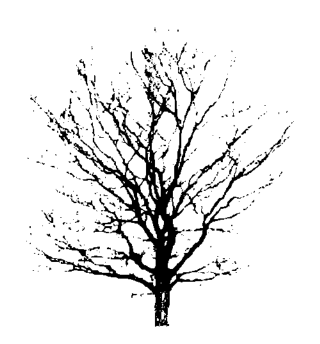
أي أنني لم أجعل خوف نفسي ولا طمعها معيار العبادة والدافع إليها، بل عبدتك لأنك الإله المستحق للعبادة، الذي ينبغي أن يخضع لك كل شيء.

وأهم مراتب التصفية الموصلة إلى الإخلاص نستفيدها مما ذكره الإمام الخميني قدس سره في معراج السالكين في الحديث عن مراتب تصفية العمل لتخليصه:

1. فإحدى مراتب تصفية العمل - سواء كان قلبياً أو قالبياً ظاهرياً أو باطنياً - هي تصفيته عن شائبة رضا المخلوق وجلب قلوب المخلوقين. سواء كان هذا لكي يحمدوه أو ينفعوه أو لكي لا يسقط في أعينهم. وهذه الشائبة هي التي تسمّى بمرض الرياء.

وفي الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: "**إن كل رياء شرك**".

2. المرتبة الثانية: تصفية العمل من تحصيل المقاصد الدنيوية والمآرب الفانية الزائلة. فقد يؤدّي الإنسان عملاً شرعياً، ولكن غايته من ورائه تكون الحصول على مطالب دنيوية، كتوسعة الرزق والسلامة في الدنيا والعافية منها وغيرها. فهذه الغايات تكون منافية للإخلاص بداهةً. وعلى السالك أن يصفّي أعماله منها.



توضيح: إن ما جاء في الروايات والأحاديث الكثيرة من الحث على الأعمال وبيان نتائجها الدنيوية كالسلامة والصحة والتوسعة ليس لأجل أن يجعل العباد من هذه النتائج غايات لأعمالهم. وجميع هذه الفوائد العاجلة يطلبها السالك على نحو الوسيلة أو يطلبها لأن الله يأمره أن يطلبها. فعندما يطلب العبد سعة الرزق من مولاه، فهو يطلبها على أساس أن تكون هذه السعة وسيلة للتقرّب إليه كالتمكّن من الجهاد

أو دعم المقاومة أو الاستمرار في الطاعة. وقد يطلب العبد ذلك لأن الله أمره أن يسأله ويستعطيه حين الحاجة، كما جاء في خطاب العزيز الجبار لموسى‌ؑ: "يا موسى سلني حتى ملح عجينك". وهذا لا يتنافى مع الإخلاص في شيء بل هو طريق إليه. والحديث عن التصفية يرتبط بالغاية وليس بالوسائل.

3. المرتبة الثالثة: تصفية العمل من طلب الوصول إلى الجنات الجسمانية كالحور والقصور وأمثالها من اللذات الجسمانية. أما العابد المخلص فإنما يطلب هذه الجنات لأن الله يأمره بذلك، وهو يشتاق إلى الجنة من شوقه لكرم الله ورحمته.

4. المرتبة الرابعة: تصفية العمل من أن تكون النجاة من العقاب والفرار من العذاب الجسماني غاية له. فالعبادة بهذه النية لا قيمة لها عند أولي الألباب وخارجة عن نطاق العبودية لله. ولا فرق في نظر أهل المعرفة أن يعمل الإنسان عملاً من خوف الحدود والتعزيرات في الدنيا أو خوف العقاب الأخروي. فالداعي إذا كان (في الجميع) للنفس فلا يكون لله وهو منافٍ للإخلاص.

5. المرتبة الخامسة: تصفية العمل من طلب الوصول إلى السعادات العقلية واللذات الروحانية الدائمة الأزلية الأبدية والدخول في سلك الكروبيين والانخراط في زمرة العقول القادسة. وهذه المقامات وإن كانت عظيمة ومهمة ويهتم بها الحكماء والعارفون اهتماماً كبيراً، ولكنها بحسب مسلك أهل الله تعد من نقصان السلوك. ومثل من يطلبها كغاية لسلوكه كمثل الكاسب الذي يرى نفسه صاحب حق ورأسمال وهو يبدله ببضاعة أو أجر.

6. المرتبة السادسة: هي في إزاء هذه المرتبة، حيث ينبغي تصفية العمل من خوف عدم الوصول إلى هذه اللذات.

وقد ذكر البعض مراتب أخرى للتصفية. كل واحدة تكون مقرّبة من الوصول إلى معدن الإخلاص وكمال الانقطاع. فالمقامات الكمالية وإن كانت في غاية البهاء والنور لكنها إذا تحولت إلى مقصد نهائي وغاية قصوى تكون حجاباً بين العابد والمعبود. وعلى السالك بعد الوصول إليها والتحقق بها أن يخترقها ليصل إلى ما لا يمكن تصوره أو التعبير عنه. والسالك إذا كان يطلب من الله توفيق الخشوع وحالة الخضوع والروحانية فلا ينبغي أن يجعل هذا الطلب غاية لعبادته لأنه محبط للأعمال؛ بل يطلبها لأجل أن ينال فرصة القرب بها. وأما طلب الخوارق فإنه من المآرب الدنيوية والحظوظ الشيطانية التي ترجع إلى صنم النفس. فليجتنب كل سالك هذه المطالب وليحذر من الوقوع في فخها.

ونلفت نظر الأعزاء إلى أن مجرّد تصور المقام لا يعني أننا وصلنا إليه. فإذا كان أحدنا قد تصوّر آخر مقام للتصفية وعزم على الوصول إليه واستحضره في ذهنه دائماً فهذا لا يعني أنه قد بلغه. نعم، إن هذا التصور والاستحضار من شروط السير، كما أن الطلب المستمر للإخلاص أمر أساسي. ولكن شتان ما بين التصور والحضور.

إن المراقبة المستمرة أثناء المجاهدة هي التي تكشف للسالك حقيقة توجهاته. فما أكثر ما يكون أحدنا معتقداً بأنه لا يريد من الدنيا شيئاً، ويبني على أساس أنه أصبح في طور الانتقال من المرتبة الرابعة إلى المرتبة الخامسة، فتهب عليه عواصف الابتلاء فجأة وإذ به يرى أن قلبه ما زال طالباً للدنيا خاطباً لودها.

ومن درجات الإخلاص: تصفية العمل من رؤية استحقاق الثواب والأجر. حيث يعمل العبد عملاً وهو يرى أنه يستحق عليه الثواب. وهذا - كما يقول الإمام - لا يخلو من الإعجاب، ولا بد للسالك من تخليص نفسه منه، لأنه من نقصان المعرفة بحاله وبحق الخالق تعالى شأنه.

فالسالك لا بد له أن يجاهد ويفهِّم القلب بالرياضات القلبية

والسلوك العقلي والعرفاني، أن جميع الأعمال من الهبات الإلهية والنعم التي أجراها الحق تعالى على يد عبده. فإذا تمكّن التوحيد الفعلي في قلب السالك فلا يرى العمل من عند نفسه، ولا يطلب الثواب عليه، بل يرى الثواب تفضلاً والنعم ابتداء: "**نعمك ابتداء وإحسانك تفضّل**".

وفي دعاء الإمام زين العابدين عليه السلام:

"لك الحمد على ابتدائك بالنعم الجسام والهامك الشكر على الإحسان".

وفي مصباح الشريعة عن الإمام الصادق عليه السلام:

"وأدنى حد الإخلاص بذل العبد طاقته ثم لا يجعل لعمله عند الله قدراً فيوجب به على ربه مكافأة لعمله".

بشارة لأهل الاخلاص

وإلى أهل الإخلاص في آخر الزمان بشارة من الامام الجوادx. ففي حديث عن السيّد الجليل عبد العظيم الحسني، قال: قلت لمحمد بن علي بن موسى: إني لأرجو أن تكون القائم من أهل بيت محمد الذي يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً [illegible] منا إلا قائم بأمر الله وهاد إلى دين الله. ولست القائم الذي يطهّر الله به الأرض من أهل الكفر والجحود ويملأها عدلاً وقسطاً.

وهناك درجة أخرى للإخلاص وهي عبارة عن تصفية العمل من الاستكثار منه والفرح به وتعلّق الخاطر به..

فقد لا يكون طلب العامل من عمله أن يحمده الناس أو يثنوا عليه. ولو فعلوا ذلك لما تغير عنده شيء. لكنه يكون متعلقا بنفس العمل بما يمثل من ظهور نفسه. وهذا التعلق ناشئ من حب النفس وحب جميع آثارها وإن كانت بصورة الصلاح وموافقة الشرع الأنور. والمسافة هنا بين الإخلاص وعدمه صغيرة جداً بل قد لا تظهر إلاّ بعد سلسلة من المجاهدات أو حين حدوث الابتلاءات.

ولعل أفضل اختبار للإخلاص هنا هو عندما ترى انه يمكن أن يقوم بالعمل نفسه أحدٌ غيرك. فإذا حصل في النفس انزعاج (كما إذا طلب من الغير القيام به)، فليعلم أن العمل كان فاقداً للإخلاص منذ بدايته.

قال الإمام الكاظم عليه السلام: **"كل عمل تريد به الله عز وجل فكن مقصراً عند نفسك فإن الناس كلهم في أعمالهم فيما بينهم وبين الله مقصرون إلا من عصمه الله عز وجل".**

يقول الإمام الخميني قدس سره:

"إنّا نعلم بالضرورة أن أعمالنا وأعمال جميع البشر بل أعمال جميع ملائكة الله والروحانيين ليس لها قدر يذكر إذا قورنت بأعمال رسول الله والأئمة (صلوات الله عليهم أجمعين). وفي نفس الوقت فإن اعترافهم بالتقصير وإظهارهم العجز عن القيام بالأمر مذكور إلى حد التواتر بل فوق حد التواتر. وهذه المسألة تنتج لنا ألا نفرح بشيء من أعمالنا. بل علينا إذا قمنا بالعبادة والطاعة طول عمرنا أن نكون خجلين وننكس رؤوسنا في محضره..". [آداب الصلاة]

الإمام الخميني: يحذر منكري المقامات وطوائفهم

إذا علمت من مراتب الاخلاص ومقامات العبادات شيئا، فتهيّأ لتحصيلها؛ فإن العلم بلا عمل لا قيمة له والحجّة على العالم أتمّ ومحاسبته أكثر. وللأسف، نحن محرومون تماما من المعارف الالهية والمقامات المعنوية لاهل الله والدرجات العليا لاصحاب القلوب؛ فطائفة منا تنكر المقامات كلّها وترى أهلها على الخطأ والباطل والبطلان. وتحسب من يذكرهم بشيء أو يدعو إلى مقاماتهم شاعرا ودعوته شطحا. ولا يرجى لهذه الطائفة أن تلتفت إلى نقصها وعيبها أو تستيقظ من نومها الثقيل انك لا تهدي من أحببت، وما أنت بمسمع من في القبور.

نعم ان الذين هم كالكاتب المسكين ليس عندهم خبر عن شيء وليست قلوبهم حية بحياة المعرفة والمحبة الالهية هم أموات، غلاف أبدانهم هي قبورهم البالية، وقد حجبهم غبار هذا الجسم ومضيقة البدن المظلم عن جميع عوالم النور ونور على نور ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور. هذه الطائفة كل ما يقرأ عليهم من الحديث والقرآن في المحبة والعشق الالهي وحبّ اللقاء والانقطاع إلى الحق يقومون بتأويله وتوجيهه ويفسّرونه طبق آرائهم؛ فيوجّهون كل آيات اللقاء



وحب الله بلقاء أشجار الجنة ونسائها الجميلة، ولا أدري ماذا يفعل هؤلاء بفقرات المناجاة الشعبانية حيث يقول الإمام علي ﷺ: "**الهي هب لي كمال الانقطاع اليك وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها اليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قدسك، الهي واجعلني ممّن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك**".

فما هذه الحجب النورانية؟ وهل المراد من النظر إلى الحق النظر إلى إجاص الجنة؟ وهل معدن العظمة هو قصور الجنة؟ وهل تعلّق الارواح بعزّ القدس هو التعلق بذيل حور العين لقضاء الشهوة؟ .. هل هذا الصعق والمحو من الجلال هو المحو في جمال نساء الجنة؟. وتلك الجذبات والاغشية التي حصلت لرسول الله صلى الله عليه وآله في صلاة المعراج ومشاهدته لأنوار العظمة وما فوقها في محفلٍ ما كان أعظم ملائكة الله الامين جبرائيل محرما لسرّه ولم يتجرّأ على التقدّم فيه قيد أنملة، هل كانت مشاهدة جذبة احدى النساء الحسان في الجنة؟ . أو انه صلى الله عليه وآله كان يرى أنوارا كنور الشمس والقمر أو أشدّ منهما؟ والقلب السليم الذي ذكره المعصوم عليه السلام في ذيل قوله تعالى ﴿**إلا من أتى الله بقلب سليم**﴾: والسليم قلب لقي الله وليس فيه سواه، هل المقصود في من غير الحق هو غير كرامة الحق أي ألا يكون فيه غير أجاص الجنة ومشمشها؟

فلأحث التراب على رأسي لأن عنان القلم قد خرج من يدي واشتغل بالشطحات. ولكن لعمر الحبيب ليس لي غاية من هذا الكلام إلا أن ينتبه الاخوة الايمانيون وخصوصا أهل العلم فلا ينكروا على الاقل مقامات أهل الله لإن هذا الانكار منشأ جميع الشقاوات، وليس مقصودنا ان نبين من هم أهل الله بل مقصودنا ألاّ ننكر المقامات وأما من هو صاحب هذه المقامات؟ فالله يعلم، وهذا أمر لا يطّلع عليه أحد

(من كان عنده خبر فليس عنه خبر.)

وطائفة أخرى هم الذين لا ينكرون مقامات أهل المعرفة ولا يعاندون اهل الله ولكن الاشتغال بالدنيا وتحصيلها والاخلاد إلى لذاتها الفانية منعهم من الكسب العملي والعلمي والذوقي والحالي، فمثَلهم كمرضى يعرفون مرضهم ولكن بطونهم لا تدعهم يقدمون على الحمية وشرب الدواء المرّ؛ كما أن الطائفة الاولى كمرضى لا يصدّقون وجود المرض الكذائي والمريض الكذائي. ومع أنهم مبتلون بالمرض ينكرون أصل المرض.

وطائفة أخرى هم الذين اشتغلوا بالكسب العلمي واشتغلوا بتحصيل المعارف علما ولكنهم اكتفوا من حقائق المعارف ومقامات أهل الله بالاصطلاحات والالفاظ والعبارات المزركشة، فقيدوا أنفسهم وجمعا من المساكين في سلسلة الالفاظ والاصطلاحات واقتنعوا من جميع المقامات بالمقالات، ويوجد ضمن هؤلاء زمرة يعرفون أنفسهم ولكنهم للترؤس على عدة مساكين جعلوا هذه الاصطلاحات الفارغة وسيلة لكسب المعيشة وأقبلوا على اصطياد القلوب الصافية لعباد الله بالالفاظ الخادعة والاقوال المنمقة. هؤلاء شياطين من الانس وليس ضررهم بعباد الله بأقل من إبليس، هؤلاء المساكين لا يدرون أن قلوب عباد الله منازل الحق تعالى ولا يحق لاحد التصرف فيها، فهم غاصبو منزل الحق ومخرّبو الكعبة الحقيقية، ينحتون أصناما ويضعونها في قلوب عباد الله التي هي الكعبة بل هي البيت المعمور؛ هؤلاء مرضى وقد أظهروا أنفسهم في زيّ الطبيب، ويبتلون عباد الله بالامراض العديدة المهلكة. وعلامة هذه الطائفة أنهم يعتنون بارشاد الاغنياء والاكابر أكثر من ارشاد الفقراء والمساكين، فأكثر مريديهم من أرباب الجاه و المال وهم بأنفسهم ايضا في زيّ الاغنياء وأرباب الجاه والمال، ولهؤلاء القوم كلمات خدّاعة، ينزهون أنفسهم عند

هو الذي يخفى على الناس ولادته، ويغيب عنهم شخصه، ويحرم عليهم تسميته،وهو سمي باسم رسول الله وكنيته، وهو الذي تطوى له الأرض ويذل له كل صعب. يجتمع إليه من أصحابه عدد أهل بدر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً من أقاصي الأرض. وذلك قول الله عزّ وجلّ ﴿أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شيء قدير﴾ [سورة البقرة، آية: 148]. فإذا اجتمعت له هذه العدّة من أهل الإخلاص أظهر أمره..". [البحار، ج52].

مريديهم مع أنهم في نفس الوقت متلوّثون بآلاف القذارات الدنيوية ويظهرون أنفسهم في أعينهم من أهل الله. وأولئك المساكين البلهاء (أي المريدين) ايضا يغضّون أبصارهم عن جميع عيوبهم المحسوسة ويفرحون بالاصطلاحات والالفاظ الفارغة. (معراج السالكين)

في النيّة

قد جاء في بعض الروايات أن اعبدوا الحق تعالى من حيث أنه أهل للعبادة ومعلوم أن هذه الأهلية لا تعود إلى الصفات الإلهية بل إلى مقام ذاته المقدّسة جل جلاله وعظم شأنه فيكون مفاد ذلك أن اعبدوا الله لأنه الله:

"إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك، بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك".

"أنت دللتني عليك ودعوتني إليك ولولا أنت لم أدر ما أنت".

ويخطو سالك طريق الله في بداية سلوكه بقدم المحبة ولكن بعد أن يطوي المنازل ويحصل إجمالاً على بعض الكمالات. سوف يدرك أن المحبة أمر مغاير للمحبوب. فيسعى لترك المحبة التي كانت حتى هذا الحين وسيلة لسلوكه ومعراجاً لرقيه ويدرك أن هذه الوسيلة التي كانت مؤثرة أصبحت الآن مضرّة ومانعة للطريق. ومن هنا يضع السالك فقط وفقط محبوبه نصب عينيه ويعبده بعنوان المحبوبية لا غير، ولكن عندما يتقدّم أكثر ويطوي منازل عدة يدرك أن هذا النوع من العبادة لم يكن خالياً من شائبة الشرك لأنه قد عد نفسه في هذه العبادة عاشقاً ومحباً واعتبر الله معشوقاً ومحبوباً فيرى لذاته كمحب وجوداً في قبال ذات المحبوب.

لذا فإن النظر إلى المحبوب بعنوان المحب مغاير ومناف لعبادة الذات المقدّسة لله تعالى ومن هنا يسعى لينسى عنواني الحب والعشق حتى يتجاوز المغايرة والكثرة ويضع قدمه في عالم الوحدة وعندها تختفي النية من السالك وتمحى لأنه لن يكون بعد ذلك شخصية وذاتية للسالك تصدر عنها النية.

إلى ما قبل هذه المرحلة كان السالك طالباً للمكاشفة والشهود ولكنه في هذا المقام يدع تلك الأغراض كلها عرضة للنسيان فلن يكون بعد ذلك إرادة حتى يكون هناك اعتبار للمراد والمقصود. وفي هذه الحالة يغمض السالك عينيه عن الرؤية واللارؤية، والوصول واللاوصول، والمعرفة واللامعرفة، والرد والقبول.

ورد عن الإمام السجادعليه السلام في دعاء أبي حمزة الثمالي قوله: **"معرفتي يا مولاي دليلي عليك وحبي لك شفيعي إليك وأنا واثق من دليلي بدلالتك وساكن من شفيعي بشفاعتك".**

رسالة لب اللباب- تقريرات دروس العلامة الطباطبائي

في الفهم والتحليل



1.

1. **الإخلاص هو:**
أ. أحد الفضائل الأخلاقية العظيمة.
ب. شرط لقبول جميع الأعمال.
ج. الخلوص من النار.
د. الوفاء والأمانة.

2. **ضد الإخلاص:**
1. الكفر
2. الشرك
3. المعصية
4. عبادة التجار

3. **المشرك هو الذي:**
أ. يتوجه إلى غير الله في طلب الكمال والنفع
ب. لا يؤمن بالله على الإطلاق.
ج. يؤمن بوجود خالقين للعالم.
د. يعين الظالم.

4. **الطريقة العملية لتحصيل الإخلاص هي:**
أ. التوجه إلى الغاية.
ب. عبور المراتب المعنوية.
ج. الالتزام بالتقوى.
د. رعاية حق القرآن.

5. **معنى قول أمير المؤمنين(ع): "وكمال توحيده الإخلاص له":**
أ. الإخلاص يؤدّي إلى فهم التوحيد.
ب. لأن المخلص هو الذي لا يريد إلاّ الكمال.
ج. لا يكون المخلص موحداً.
د. أعلى مراتب التوحيد في الإخلاص.

6. **حقيقة التوحيد هي:**
أ. وحدانية رب العالمين.
ب. لا مؤثر في الوجود إلا بالله.
ج. لا خالق إلا الله.
د. كلمة التوحيد.

7. **من أشرك بالله لا ينال شيئاً:**
أ. لأنه من الكافرين.
ب. لأنه سيعاقب في النار.
ج. لأنه رضي بفعل المشركين.
د. لأنه لم يعرف الله حقاً، فكيف يتوجه إليه.

8. **العبادة لطلب الجنة صحيحة عندما:**
أ. لا ينظر الإنسان إلى الحور العين.
ب. يراها ساحة لقاء الله وفضله.
ج. لا تكون صحيحة بأي شكل.
د. لا يطلب اللذات المادية فيها.

9. **التوجه التام إلى الله:**
أ. غير متيسر لأحد.
ب. متيسر للجميع لأنه فطري.
ج. ميسور للبعض.
د. يحتاج إلى شروط خاصة.

10. **علاج مرض الرياء يكون:**
أ. بالالتفات إلى الواجبات.
ب. بمخالفة النفس دائماً.
ج. بالامتناع عن العمل إذا دخله الرياء.
د. لا علاج له حالياً.

4. مفردات للمذاكرة:

تصفية السر. حديث قدسي. الإخلاص. المخلِص. المخلَص. الأنانية. الإنية. تجلي الله على العبد. الشهود. النية. الشرك.

3. رتب ما يلي وفق مراتب الإخلاص من الأدنى إلى الأعلى

1. -تصفية العمل من طلب حور الجنة وقصورها.
2. -تصفية العمل من رؤية استحقاق الثواب.
3. - ترك الرياء
4. - تصفية العمل من طلب الدنيا الحلال.
5. - تصفية العمل من خوف العقاب.
6. - تصفية العمل من طلب اللذات المعنوية

4. أعط مثلين على كل منها

- عبادة الأحرار:
- عبادة التجار:
- عبادة العبيد:

5. ضع إشارة "✓" للجملة الصحيحة و"X" للجملة الخاطئة

1. يكفي أن تكون الأعمال موافقة لشريعة الله كي تكون مقبولة.
2. إن الالتفات الدائم للنفس وحظوظها يمنع من تحقق الإخلاص.
3. إن مجرد طلب الإخلاص وحب الوصول إليه لا يكون له أي أثر في تحصيله.
4. إن تحصيل الإخلاص أمر شاق يتطلب سنين طويلة من العمل والمجاهدة.
5. إن غاية السير والسلوك هي تصفية الباطن من شائبة غير الله.
6. تأتي البلاءات على الإنسان لتكشف له عن حقيقة الكفر والإيمان في قلبه.
7. التوجه للمؤمنين في طلب الحوائج يُعد نوع من أنواع الشرك.
8. الوصول إلى الإخلاص يحصل من خلال العمل بمقتضى التوحيد.
9. يمكننا تمييز المخلص عن غيره من خلال الإطلاع على أعماله.
10. إن موافقة جزء كبير من أعمالنا للشريعة الإلهية ليس بالضرورة معياراً على سلوك طريق التقوى.

6. صل العبارة في العمود الأول بما يناسبها في العمود الثاني

العمود الأول	العمود الثاني
1. يحوم حوم نفسه •	■ أ. المقتصد
2. يحوم حوم ربه •	■ ب. السابق بالخيرات
3. يحوم حوم قلبه •	■ ج. الظالم لنفسه

7. إملأ الفراغ بالكلمات المناسبة

الشريعة. الغائية. يريده الله.غير الله. الإخلاص. يخضع. الله. إرادته.

المساعي. إنساناً. الشرك. باطنه. صنماً. هوى النفس. الدوافع.

إن جعل العمل والعبادة والحياة لله، لا يتحقق بمجرد تطبيقها وفق ما   في الظاهر، أو موافقتها

لـ   فحسب، بل بمعنى أن لا نطلب من ورائها سوى   وهذا هو

إذا أراد الإنسان أن   كل وجوده لله، فإن عليه أولاً: جعل كل حركاته الظاهرة موافقة لـ

التي هي مظهر   وثانياً: جعل   تابعاً لإرادة الله.

إن من معاني الباطن وانفعالاته تلك التوجهات   والأهداف التي تكمن وراء

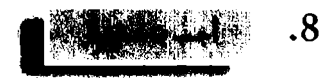
وتكون بمنزلة   للقيام بالأعمال المختلفة.

عندما لا تنطلق الأعمال من الإخلاص، تكون منطلقاتها

السعي نحو الإخلاص هو عبارة عن إزالة جميع مراتب   من باطنه.

المشرك هو من يعتقد بتأثير   سواء كان   أو   أم شيئاً آخر.

8.



10.1. ما الفرق بين الإخلاص العملي والإخلاص الذاتي؟

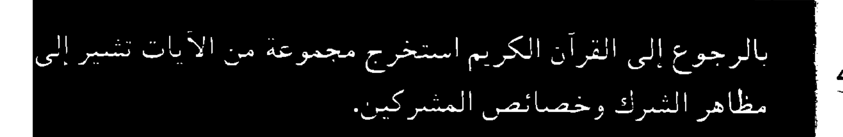
10.2. لماذا يُعتبر طلب الخشوع والنورانية مخالفاً للإخلاص؟

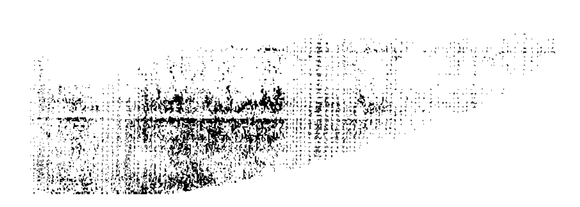
للدراسة والتحليل:

ما هي الموانع التي تمنعنا من تحصيل الإخلاص في العمل؟

انزعجت من تقدير شخص يعمل معك مع أنه لم يشارك إلا في قسم قليل من المشروع.
بماذا تفسّر هذا الإنزعاج؟









مراحل التقوى أو السير إلى الإخلاص

ما هي المراحل التي يعبرها السالك للوصول إلى التقوى الكاملة والإخلاص التام؟



مراحل التقوى أو السير إلى الإخلاص

مع نهاية هذا الفصل تكون قد تعرّفت على:

- خصائص برنامج الشريعة التكاملي.
- إن عملية التكامل تمر في إثنتي عشرة محطة.
- لكل محطة من المراحل شروط ومهمات ينبغي القيام بها.
- أن عبور أية محطة يكون بتجاوز حدودها.
- إن لكل محطة مجموعة من الآثار.
- إن الجامع المشترك بين هذه المراحل هو التقوى.

إذا تبيّن لنا أن مقام الإخلاص هو مقام القرب والهدف المعنوي النهائي، وإذا علمنا أن الوسيلة الوحيدة لنيله هي سلوك طريق التقوى، سنذكر في هذا الفصل تلك المراحل والمحطات التي يعبرها السالك في هذا الطريق، متدرجاً من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، من أدنى حالات التقوى إلى أكملها وأشرفها.

التقوى الكاملة التي هي عبارة عن خضوع جميع مراتب النفس للحق تعالى، هي هدف كل سالك. ولكي يصل إليها، يحتاج إلى التدرّج في هذه الرياضة، لأن أكثر النفوس لا تطيقها دفعة واحدة وخصوصاً إذا كانت مستغرقة في هذا العالم المظلم. فكيف إذا كانت بعدُ في أشد الظلمات، وهو الكفر.

فالمراحل والمحطات، التي لا بد لكل سالك أن يمر بها، تكون بمنزلة اكتساب المزيد من طاقة التقوى من خلال عبور مراحل التكليف. فتتميز كل محطة عن سابقتها بالمزيد من المسؤولية التي تُلقى على عهدة السالك.

فأول ما هو مطلوب من الإنسان الدخول في الإسلام – سواء اعتقد به أم لا، ثم عليه أن يذعن للحقائق التي جاء بها هذا الدين ولو بعقله. أي أن عليه القبول بأحكام العقل السليم عندما تعرض عليه القضايا الأساسية للوجود. وبقبول هذه الحقائق ينبغي أن يرفض الظالمين الذين

يريدون أن يعيدوه في ملتهم أو يرجموه، وعليه أن يهجرهم. فإذا أصبح متمكّناً قادراً على محاربتهم، يجب عليه جهادهم والقضاء على نظامهم السياسي الظالم الذي يحمي الكفر ويحارب الإسلام.

هذه هي المرحلة الأولى للتقوى، وفيها أربعة محطات أساسية يعبّر عنها: (1) بالإسلام الأصغر، (2) والإيمان الأصغر، و(3) الهجرة الصغرى، (4) والجهاد الأصغر.

وإذا تم للسالك في عالم الجهاد الأصغر الفتح (وهو لا يعني بالضرورة الانتصار على العدو مادياً، فلاحظ كلام الإمام الحسين: و"**من تخلّف لم يبلغ الفتح!**")، ينتقل إلى المرحلة الثانية للتقوى. وفيها، يجب عليه أن يسلم ظاهره بالكامل لله رب العالمين من خلال التسليم لشريعته. ثم ينتقل إلى المحطة التالية وهي عالم الايمان الأكبر الذي يقوم السالك فيه بإدخال تلك الاعتقادات العقلية الأساسية للدين إلى قلبه، ومن بعدها يصبح قادراً على القيام بهجرة من نوع جديد، وهي ترك العادات والتقاليد الفاسدة والمخالفة للدين، والإعراض عن الفاسقين وأهل اللغو بل وحتى أولئك الذي يقفون عائقاً أمام إكمال سفره. وهكذا، يصبح مستعداً لمواجهة عدو لدود متمرّس، وهو نفسه الأمارة، فيجاهدها ويقضي عليها ليخلي الطريق أمام النفس اللوامة التي ستعطيه القدرة اللازمة لإدراك المزالق الخفية والمهلكات المستورة.

فالمرحلة الثانية للتقوى تنقسم إلى أربع محطات أساسية هي:

(5) الإسلام الأكبر، و(6) الايمان الأكبر، و(7) الهجرة الكبرى، و(8) الجهاد الأكبر. وإذا تم للسالك الفتح والظفر بالانتصار على النفس الأمارة وترويضها بالتقوى، عليه أن ينتقل إلى تحمّل مسؤوليات أكبر، لا يقدر عليها إلا من كُتب له النصر والغلبة على العدو الباطني. وفي هذه المرحلة، عليه أن يسلم كل وجوده لله وهو معنى تسليم الوجه لرب العالمين، فتصبح كل حياته لله، ولا يعترض على كل ما يجري

عليه في هذه الدنيا من المصائب والمكاره. ثم ينتقل إلى عالم الايمان الأعظم حيث تصبح اعتقاداته القلبية مشهودة عنده، ويكون من اليقين على مثل ضوء الشمس، ومن ثم عليه أن يهجر نفسه وأنانيته، بالإعراض عن جميع رغباته (التي تكون في هذه المرحلة متجهة نحو الأمور الحسنة). وعندها، عليه أن يقوم بالقضاء على كل ما عدا الله في وجوده، بحيث لا يبقى في الدار غيره ديار. وبهذا الفتح يدخل إلى وادي المخلَصين.



فالسفر كله ينقسم إلى ثلاث مراحل أساسية، وفي كل مرحلة يحصل نوع من الفتح: فتح قريب، والفتح المبين، والفتح المطلق.

1. ﴿نصر من الله وفتح قريب﴾.

2. ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً﴾.

3. ﴿إذا جاء نصر الله والفتح﴾.

وفي كل محطة من هذه المراحل، يوجد مجموعة من الشروط والمهمات التي ينبغي رعايتها، كما أن لكل واحدة حداً، به يعرف السالك ما إذا قام بما عليه، ويحق له الانتقال إلى المحطة التالية.

قال الله تعالى:

﴿الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون * يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم * خالدين فيها أبداً إن الله عنده أجر عظيم﴾.

هذه المحطات لا تكون متعارضة أو متباينة، كما أنها ليست بعرض بعضها البعض، بل هي بمنزلة السلّم يصعد السالك فيه درجةً درجة؛ وإذا بلغ الدرجة الأعلى يكون قد حاز على الدرجات السابقة حتماً.

ولكل محطة آثار وثمار تظهر في الدنيا. وقد يحدِث أن ينال السالك

بعض آثار العالم اللاحق قبل القيام بشروطه الكاملة وقبل عبور العوالم والمحطات السابقة عليه. ولكن لا ينبغي أن يشتبه عليه الأمر في المراقبة، فيظن أنه وصل إليه. فحصول بعض المشاهدات الملكوتية مثلا ـ والتي هي من ثمار عالم الايمان الأعظم ـ أثناء وجود السالك في مراتب أدنى أمر ممكن في حالات استثنائية. فالذي يعيش في صخب الحياة وضجيجها وتشغله همومها ومشاكلها، ثم ينتقل فجأة إلى المرابطة على الثغور حيث يحيط به الموت من كل جانب، وتقل عنده الموانع والصوارف، قد يرى في عالم المنام أو اليقظة بعض المشاهدات الشريفة، أو تُكشف له بعض حقائق ما وراء الطبيعة. فلا ينبغي أن يظن أنه صار في عالم الإيمان الأعظم. بل عليه أن يدقق النظر في حدود كل محطة، ليتجنّب الوقوع في فخ الأوهام التي تكون من أشد موانع هذا السفر. فإن العلامة الرئيسية هنا هي ثبات المشاهدات، وصيرورتها أمراً اختيارياً للسالك (في عالم الايمان الأعظم). وما حدث في الواقع أنه عرضت له مثل هذه الأمور في لحظة ما.

وإذ أكدنا على التدرج ورعاية الترتيب، فلا يعني ذلك وضع حدود زمانية لكل محطة تقاس بالأشهر أو السنوات. فإنّ الزمان والمكان أمران هامشيان عَرَضيان في السلوك المعنوي والسفر الروحاني. وقد يحدث أن يعبر السالك جملة من المحطات في لحظة واحدة أو أقل. ولكن يستحيل أن ينتقل إلى العالم اللاحق دون عبور حدود العالم السابق. وهذا يعني أن من كان في عالم الايمان الأكبر حقاً، لا يمكن أن تكون بعض الشبهات الفكرية حول أصول الدين ثابتة عنده ومستقرة في ذهنه. نعم قد تعرض عليه لمقال قرأه أو إشكال سمعه وهو في عالم الايمان الأكبر، ولكنه سرعان ما يدفع هذه الشبهة بقوة فكره ونور عقله الذي استقرّت فيه القواعد الأساسية لتلك الأصول.

إن البرنامج العملي الوحيد في جميع هذه المحطّات والمراحل هو

التقوى بمعناها المتعارف. وهي أداء التكليف الشرعي ورعاية حدود الله تعالى. ولن يكون في أية محطة منها أمر جديد خارج عن الشريعة الإلهية. ولكن السر في مثل هذا التقسيم هو أن السالك لطريق التقوى سيتمكّن من تحديد مسؤوليته الشرعية أكثر، ولن يقبع في محطة طوال حياته ظناً أنها كل شيء. فإذا سمع قوله تعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾** يفهم منه أن الله سبحانه يريد منه إيماناً آخر غير الايمان السابق. فهو إيمان أعلى، من آثاره خشوع القلب: **﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾**.

وإحدى أهم الآثار التربوية لهذا التقسيم هو الإشارة إلى وجود الدرجات في منهج الإسلام، وأن حياة الإنسان عبارة عن سفر تكاملي وليست مجرّد القيام بمجموعة من الأعمال العبادية. وهذا هو سرّ شخصية الإمام الخميني التي أشار إليها سماحة الإمام القائد بقوله: "إن سر هذه الشخصية يكمن في طلب الكمال بشكل دائم..".

1. الإسلام الأصغر

أول عالم يعبره السالك بعد الكفر والشرك هو الإسلام الأصغر. وهو عبارة عن الإسلام الظاهر كما في حديث الإمام الصادقعليه السلام:

"الإسلام هو الظاهر الذي عليه الناس بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت الحرام وصيام شهر رمضان".

وقال عليه السلام:

"الإسلام يحقن به الدم وتؤدى به الأمانة وتستحل به الفروج والثواب على الايمان".

وفلسفة هذا العالم هو أن الشريعة الصحيحة المقبولة عند الله تعالى

منذ رسول الله ﷺ هي الشريعة المحمّدية الأصيلة بقوله تعالى:

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾.

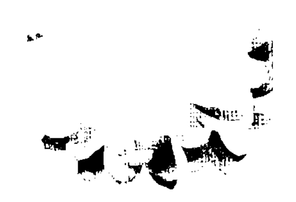
﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه﴾.

وكل من أراد الوصول إلى الله وعبادته حقاً، فلا بد أن يصل إلى هذه الشريعة. فإن لم يصل إليها وادّعى السلوك فهو كاذب ضال. وإثبات هذا الأمر يطلب في محله. ولكن ينبغي أن نعلم أن أول خطوة يخطوها السالك الذي أخذ بمنهج الصدق لا بد أن توصله إلى الإسلام الظاهر الذي هو إسلام الشهادتين.

وحدُّ هذا العالم هو إظهار الشهادة بالوحدانية والشهادة بالرسالة مع عدم إنكار ضروريات الدين كالصلاة والصوم والحج والزكاة. نعم، قد يكون المرء تاركاً للصلاة ولكنه غير منكر لضرورتها، فهو مسلم فاسق وليس بكافر، وإن كان عند الله من الخاسرين.

وهنا ينبغي التمييز بين أحكام الشريعة وأحكام العقيدة، فالعقيدة تحكم بأن الايمان يبدأ من الاعتقاد. أما الشريعة فإنها تجيز لنا أن نسمي البعض ممن لم يؤمن بحقيقة هذا الدين مسلماً. ولهذا الأمر أسرار لا يعلمها إلا من وفقه الله للتفقه في الدين.

إن الإسلام الأصغر في حده قد يعطي المرء بعض الامتيازات في حال وجوده داخل مجتمع إسلامي قوي. وقد يتنعم بادعاء الإسلام بنعمة الدولة الإسلامية أكثر من غيره. ولكن يبقى أن الثواب الحقيقي عند الله مشروط بالإيمان والاعتقاد.



2. الإيمان الأصغر

وهو عبارة عن الاعتقاد العقلي بالشهادتين، وما تستلزمانه من الأصول الأخرى في الدين. وصورته أن يحصل للإنسان الإذعان

والجزم من خلال الأدلة والبراهين العقلية والمنطقية بالأصول المذكورة.

أما حد هذا العالم فهو زوال الشكوك والشبهات العقلية. وحجم هذا الحد يختلف بين إنسان وآخر، بمقدار ما يوجد من شكوك وشبهات. والميزان في الأمر هو أن يرجع كل سالك إلى نفسه ويبدأ بطرد الشبهات من خلال التفقه في الدين بدراسة المعارف العقائدية بالطريقة العقلية الاستدلالية حتى تزول كلياً.

وفي الحديث عن أمير المؤمنين:

"المتعبد على غير فقه كحمار الطاحونة يدور ولا يبرح. وركعتان من عالم خير من سبعين من جاهل. لأن العالم تأتيه الفتنة فيخرج منها بعلمه. وتأتي الجاهل فتنسفه نسفاً. وقليل العمل مع كثير العلم خير من كثير العمل مع قليل العلم والشك والشبهة".

فالميزان ليس بكثرة البراهين وجمع الأدلـة، بل بانتفاء الشك والشبهة.

وقد حذرنا أمير المؤمنين من خطورة الشك، لأنه ينسف الإنسان ويوقعه في الكفر. وقد تختبئ الشبهات أحياناً وراء الأجواء الايمانية فيظن الإنسان معها أنه آمنٌ منها ومن مخاطرها، ولكنها قد تخرج بمقتضى الابتلاء الذي هو سنّة الله في خلقه: ﴿**أحسب الناس أن يُتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون**﴾. وخروج الشبهات في لحظات البلاءات يؤدّي في أغلب الأحيان إلى خروج الإنسان من الايمان إلى الكفر دفعة واحدة، إن الإنسان يكون في خطر دائم مع اعتقاده وعدم شكه، وعليه أن يحفظ ويصون إيمانه من خلال الاستمرار في المسير. فكيف بمن أهمل الشبهة وغطاها. قد يعيش أحدنا بين المؤمنين ويستفيض من بركات وجودهم ويصله شيء من حالاتهم المعنوية، وقد يتأثّر بأجوائهم

ويبكي معهم في أدعيتهم، ولكن عقله لا يكون واصلاً إلى الاعتقاد بالمطلوب في حده الأدنى. وعندما يُمتحَن فإنه يجد نفسه كريشة في مهب الريح، ويرى - والعياذ بالله - كل روحانية فيه كذباً.

فالعمل المطلوب هنا هو ملاحقة الشبهات ومطاردة الشكوك بوسيلة العلم والتعلّم ودراسة أصول الدين عند أهلها. وهنا يوجد تحذير وبشارة. أما التحذير فهو: إياك أن تهمل الشبهات وتبدأ بمهمات العوالم العليا، لأن السقوط هناك يكون قاسياً جداً ويصعب كثيراً الخروج منه. وأما البشارة فهي أن كل من رأى الله فيه صدقاً في طلب الحق فإنه يهديه حتى ولو كان يعيش في أسوأ البيئات العقائدية والتيارات المنحرفة، ففي الحديث:

".. لا جرم أن من علم الله من قلبه من هؤلاء العوام أنه لا يريد إلاّ صيانة دينه وتعظيم وليه لم يتركه في يد هذا المتلبّس الكافر، ولكنه يقيِّض له مؤمناً يقف به على الصواب ثم يوفقه الله للقبول منه فيجمع الله له بذلك خير الدنيا والآخرة..". (البحار، ج2

والإنسان مسؤول عن صيانة إيمانه والحفاظ عليه في الحال والمستقبل. وعليه، فلا يجوز له أن يدخل في أي مكان أو بيئة تفسد دينه. وفي حال كُلّف بذلك يجب عليه أن يحصّن عقيدته أمام الشبهات التي يمكن أن تطرح أمامه.

ولكن ما هي العوامل التي تؤدّي إلى الشكّ أو تزيد منه؟

هذه العوامل كثيرة؛ منها:

الخصومة بمعنى المجادلة لإثبات النفس وظهورها. كما في الحديث عن الإمام الباقر عليه السلام:

"إياك والخصومات فإنها تورث الشك وتحبط العمل وتردي صاحبها، وعسى أن يتكلّم الرجل بالشيء فلا يغفر له".

وفي الحديث عن أمير المؤمنين‌عليه السلام:

"إياك والجدال فإنه يورث الشك في دين الله".

ومنها عدم العمل بمقتضى العلم. قال أمير المؤمنين‌عليه السلام:

"لا تجعلوا يقينكم شكاً وعلمكم جهلاً، إذا علمتم فاعملوا وإذا تيقنتم فاقدموا". [نهج البلاغة]

3. الهجرة الصغرى

وهي أول تعبير عملي عن الايمان، حيث ينبغي أن يهاجر السالك من بلاد الكفار والمشركين إلى ديار الإسلام التي يؤدي فيها تكليفه ويأمن على دينه. قال رسول الله‌صلى الله عليه وآله:

"وادعوهم إلى الهجرة بعد الإسلام.. فإن أبوا كانوا بمنزلة أعراب المؤمنين..". [البحار، ج19]

وفي البحار أيضاً:

"لا تعرّب بعد الهجرة ولا هجرة بعد الفتح".

أي أنه لا يجوز أن يرجع الإنسان إعرابياً بعد أن هاجر إلى ديار الإسلام. لأن الأعرابي هو الذي لا يؤدي تكليفه رغم إعلانه الإسلام. وقد وصفهم الله تعالى في كتابه:

﴿الأعراب أشد كفراً ونفاقاً وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله﴾.

أما إذا صار البلد الذي يعيش فيه إسلامياً حيث يتمكّن من أداء تكليفه في كل شؤون الحياة، فلا ينبغي أن يهاجر منه: **"ولا هجرة بعد**

الفتح". [الحديث].

فإذا صَدَق الإنسان في سلوكه، يرفض الحياة في بلاد الكفر ويهاجر منها. وإذا أراد أن يخرج من بلاد الإسلام فإنه يستأذن ولي الأمر في ذلك. قال الله تعالى:

﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه..﴾.

وينبغي الالتفات إلى تعريف بلاد الإسلام. فليس كل بلد فيه مسلمون أو أكثريته من المسلمين يكون بلد الإسلام. بل هو البلد الذي تتمكّن فيه من أداء واجباتك كاملة. ومن الواجبات المهمة في هذا المجال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإقامة حدود الله والدعوة إلى الله ونشر العقيدة والقيم الإسلامية.

فوجود المسلم في بلاد لا ينطبق عليها التعريف المذكور ينبغي أن يكون بعناوين استثنائية. وهذا الاستثناء لا يحدده إلاّ أولي الأمر. وولي الأمر في عصر الغيبة هو الولي الفقيه. وقد يعطي لممثليه في الشعوب المختلفة صلاحية تحديد الاستثناء. ومن هذه الاستثناءات وأهمها أن يكون المسلم في حال الجهاد في البلد غير الإسلامي.

إن المهمات التي ينبغي القيام بها في هذا العالم هي التي تُختَصر بالسعي لتحقيق دولة الإسلام. وإن حد هذا العالم هو الالتزام بالتكليف المتعلّق بالتواجد في أي مكان؛ أي ندع الولي يحدد المكان الذي نتواجد فيه.

4. الجهاد الأصغر

الجهاد الأصغر هنا عبارة عن المواجهة المباشرة ضد الكفار وأعداء الإسلام الذين يمنعون إقامة حكم الله تعالى على الأرض.

وهذه المواجهة لها أشكال كثيرة: عسكرية وأمنية وسياسية وثقافية، يحددها قائد الجهاد وحامل رايته الحقة. والمطلوب من السالك أن يعلن عن استعداده التام للامتثال والالتزام بأوامر الولي الذي يحدد شكل وطبيعة وحركة وتفاصيل وتوقيت المواجهة. وحد هذا العالم هو الصدق في نية المواجهة. فإذا كان الإنسان في أي بلد وعزم بنيته على الجهاد (أي حدّث نفسه بالجهاد) يكون قد عبر هذا العالم. ولكن كيف له أن يتأكد من صدق نيته؟

إنه بالاتصال بالولي وإعلان البيعة له بإظهار الاستعداد التام لتأدية كل ما يطلبه منه. **فالطاعة المطلقة هنا تكون تثبيتاً وإثباتاً لهذا العالم.**

إن الجهاد الأصغر بحد ذاته يرتبط بظروف الزمان والمكان ومقتضيات العالم. وهو من هذه الجهة تكليف كفائي واستثنائي. ولكن هذا الاستثناء -بحسب علم رسول الله ﷺ- كان وسيبقى إلى عصر إمام الزمان(عج) الذي هو آخر الزمان ولهذا قال ﷺ: "**لكل أمة سياحة وسياحة أمتي الجهاد في سبيل الله**". فعندما يُجعل الجهاد الأصغر أحد العوالم المتقدّمة التي لا بد من عبورها للوصول إلى المطلوب، فذلك بناءاً على تحديد النبي الأعظم ﷺ المنطلق من علمه بالزمان إلى آخر الزمان. وفي البحار عن أنس بن مالك قال: توفي ابن لعثمان بن مظعون فاشتد حزنه عليه حتى اتخذ من داره مسجداً يتعبّد فيه؛ فبلغ ذلك رسولَ الله، فأتاه، فقال له: "**يا عثمان إن الله تبارك وتعالى لم يكتب علينا الرهبانية، إنما رهبانية أمتي الجهاد في سبيل الله..**".

لقد حدد رسول الله ﷺ المنهج العملي للإسلام والذي يختصر بالجهاد في سبيل الله. ومن أراد الوصول إلى الله فلا طريق له إلاّ الجهاد. ويظن البعض من خلال التفريق بين الجهاد الأصغر والجهاد الأكبر أن الأصغر مرحلي، فإذا أداه الإنسان عليه أن ينتقل إلى الأكبر ويستشهدون على ظنهم هذا بالحديث المشهور المروي عن رسول

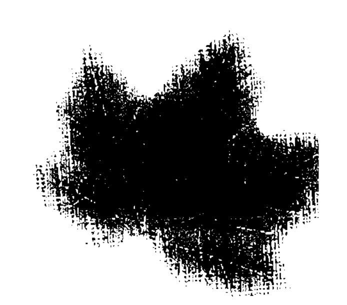
الله حيث يقول: "**مرحى بقوم رجعوا من الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر**".

ويتصور هؤلاء أن الإنسان إذا أتم الأصغر يبدأ بعدها بالأكبر. ولكن هذا التصور ناشئ من قلّة التدبر والدراية بأحاديث أهل بيت العصمة عليهم السلام وعدم النظر في رواياتهم نظرة شمولية مستوعبة. لأن الرسول كان يريد بهذا الحديث أن يلفت نظر المجاهدين إلى الأبعاد المختلفة للجهاد بما يعنيه الجهاد من قتال للعدو. ولهذا لا نجد في الآيات الشريفة أي استعمال لمصطلح الأصغر والأكبر، بل يأتي الجهاد مطلقاً. فالمقصود من هذا الأمر - والله العالم - أن الجهاد له أبعاد مختلفة ويحقق أهدافاً متعددة أهمها:

دفع الظالمين وأعداء الإسلام، والانتصار على الهوى والنفس الأمارة أيضاً. فالمجاهد ضد أعداء الدين هو الأوفر حظاً في القضاء على الأهواء والأمراض الباطنية، والوصول إلى الولاية الكبرى.. قال أمير المؤمنين:

"**إن الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه..**".

فهل هذا الباب هو أحد الأبواب، بحيث يمكننا أن نمر من باب آخر؟! قد يصح أن نتصور هذه الفكرة إذا كنا نعتقد بأن للجنة أبواباً كالبيوت التي يكون لها أبواب مختلفة. ولكن النظر في تتمة خطبة أمير المؤمنين لفت نظرنا إلى خطأ مثل هذا التصور. فلو كان الجهاد أحد الأبواب ا قال :



"**فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء..**"

بل المقصود -والله العالم- أن ما فُتح على أمة الرسول الأعظم ـن أبواب الجنة لم يفتح للأمم السابقة واتباع الرسل الماضين. وفي البحار عن الإمام علي: مجيباً اليهودي الذي قال:

"فإن عيسى يزعمون أنه كان سياحاً"، **قال ﷺ: "لقد كان كذلك ومحمدﷺ كانت سياحته في الجهاد.."**. (البحار، ج15)

ونعود للتأكيد على هذه النقطة. وهي أنه من الخطأ أن نتصور وجود عدة انواع من الجهاد، بمعنى أن كل جهاد يبدأ عند انتهاء السابق، بل هناك جهاد واحد له أبعاد مختلفة، والطريقة العملية فيه هي القتال والدفاع والمواجهة بكل أشكالها. وإذا تعبّد السالك لتكليف الجهاد ولم يحده بأي حد، فسوف ينال جميع بركاته ويحصل على كافة آثاره الظاهرية والباطنية.

وإن من الإشارات اللطيفة في هذا المجال ما يظهر من إحدى خطب الإمام الخميني(س) التي ألقاها عام **1971** في النجف الأشرف. ففي هذه الخطبة يظهر أن الحاضرين كانوا يتوقعون من الإمام أن يحدثهم بحديث أخلاقي معهود ولكنه (قُدس سره) بدأ كلامه هكذا: ".. إنني أشعر بأن التكليف أن أذكّر السادة في بعض المناسبات بما يتعلق بمصائب المسلمين..".

ويستمر الإمام بعدها بذكر المصائب العظمى التي حلّت بالمسلمين بعد وفاة رسول اللهﷺ ثم يقول:

".. والآن هل تريدونني أن أتحدث عن الأخلاق؟! إن جذور الإسلام والمسلمين تتعرّض اليوم للإبادة، ثم تريدونني أن أجلس وأتحدث عن تهذيب النفس؟! إننا لن نكون مهذبين ما لم نفكر (بهذه الأحوال)، ولو كنا مهذبين لفكرنا (بالأوضاع)".

وفي هذا البيان التاريخي نستطيع أن نستخلص نهج الإمام السلوكي والأخلاقي كله. والذي يمكن اختصاره **بالقيام لله في الدفاع** عن الإسلام والمسلمين.

وفي البحار، قال نصر: وحدثني عمرو بن الزبير قال: سمعت الحصين

بن المنذر يقول: أعطاني علي ذلك اليوم راية ربيعة ومضر وقال: **بسم الله سر يا حصين واعلم أنه لا تخفق على رأسك راية مثلها أبداً. هذه راية رسول الله.** فجاء أبو عرفاء جبلة بن عطية الذهلي إلى الحصين فقال: هل لك أن تعطيني الراية أحملها فيكون لك ذكرها ويكون لي أجرها؟ فقال الحصين: وما غناي يا عم عن أجرها مع ذكرها. فقال: إنه لا غناء بك عن ذلك ولكن أعرها عمك ساعة فما أسرع ما ترجع إليك. قال حصين: فعلمت أنه قد استقتل وأنه يريد أن يموت مجاهداً، فقلت له: خذها فأخذها ثم قال لأصحابه: "إن عمل الجنة كره كله وثقيل، وإن عمل النار خف كله وحبيب. إن الجنة لا يدخلها إلاّ الصابرون الذين صبروا أنفسهم على فرائض الله وأمره. وليس شيء مما افترض الله على العباد أشد من الجهاد، هو أفضل الأعمال ثواباً عند الله. فإذا رأيتموني قد شددت فشدوا، وشدوا معه وقاتلوا قتالاً شديداً فقتل أبو عرفاء..".

وقال أمير المؤمنين﵇:

".. ثم أن الجهاد أشرف الأعمال بعد الإسلام وهو قوام الدين والأجر فيه عظيم مع العزة والمنعة..".

وعن رسول الله ﷺ قال:

"لما عرج بي إلى السماء إذا أنا بأسطوانة أصلها من فضة بيضاء ووسطها من ياقوتة حمراء وزبرجد وأعاليها ذهبة حمراء: فقلت يا جبرائيل: ما هذه، فقال هذا دينك أبيض واضح مضيء. قلت وما هذا وسطها؟ قال: الجهاد. قلت: فما هذه الذهبة الحمراء، قال: الهجرة. ولذلك علا إيمان علي على إيمان كل مؤمن".

وقال الإمام الصادق﵇ لعلي بن عبد العزيز:

"ألا أخبرك بأصل الإسلام وفرعه وذروته وسنامه؟

قلت: بلى جُعلت فداك. قال الإمام(ع): **أصله الصلاة وفرعه الزكاة وذروته وسنامه الجهاد في سبيل الله..**".

5. الإسلام الأكبر

في المرحلة الثانية من العوالم المتقدمة على الإخلاص، ينبغي الالتفات إلى الأبعاد الباطنية للشريعة. فمن الملاحظ أن الشريعة الإسلامية تضع برنامجاً تفصيلياً لجعل وجود الإنسان كلّه بمراتبه المختلفة خاضعاً لله سبحانه. هذا البرنامج يبدأ من مقام الظاهر ويتدرج بتربية السالك مراعياً مراتب وجوده من العقل إلى القلب فالسر وسر السر. وهذه الرعاية لا تعني بتاتاً ما تصوره البعض من أن التكاليف الظاهرية تسقط عن الإنسان عندما يصل إلى الباطن أو يعبر مراتبه. فإن من علامات خضوع العبد تجلّي العبودية في كل مراتب وجوده وسريان امتثاله من القلب إلى الجوارح والأعضاء. بل أن من علامات النفاق عدم إطاعة وانقياد الظاهر للباطن. فمن كان يدّعي صدق الاعتقاد بالله فإن اعتقاده إذا وصل إلى القلب يظهر في البدن. والبدن ليس إلاّ آلة تعمل بإمرة القلب كما جاء في الحديث النبوي: "**القلب أمير البدن**". بناء عليه، فإن الوسيلة العملية لتهذيب الباطن هي الالتزام بظاهر الشريعة دائماً. وإن طريقة مجاهدة النفس الأمارة ومحاربة الأهواء هي العمل الظاهر بما أمر الله عزّ وجلّ.

"سبحانك! أخشى خلقك لك أعلمهم بك، وأخضعهم لك أعلمهم بطاعتك" [الصحيفة السجادية].

فكل ما هو مطلوب في المرحلة الثانية أن على السالك التوجه بباطنه إلى مقاصد الشريعة، ويعلم بأن الهدف ليس انقياد الظاهر والبدن فقط. بل عليه أن يجعل كل مملكة وجوده تحت سلطان الحق سبحانه. ولعل الآية الشريفة المتوجهة إلى المؤمنين تشير إلى هذا المطلب:

﴿**يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة**﴾ أي بكافة وجودكم.

ونحن، من خلال التأمل في هذه الروايات التي سنذكرها ندرك أن

الشريعة تأمر الإنسان بالخضوع فوق الخضوع الظاهري. فعن الإمام الصادقعليه السلام:

"لو أن قوماً عبدوا الله وحده لا شريك له وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وحجوا البيت الحرام وصاموا شهر رمضان ثم قالوا لشيء صنعه الله أو صنعه رسول اللهصلى الله عليه وآله: الا لو صنع بخلاف الذي صنع، أو وجدوا ذلك في قلوبهم لكانوا بذلك مشركين.. ثم قالعليه السلام: فعليكم بالتسليم".

فهؤلاء ملتزمون متعبدون بحسب الظاهر. ولكنهم يعترضون بلسانهم أو في أنفسهم على أحكام الله تعالى، لذلك عدّهم الإمام من المشركين حيث جعلوا إلى جانب مصدر التشريع الأصيل (وهو الله ورسوله) مصدراً آخر وهو النفس والهوى. قال الله تعالى:

﴿أفرأيت من اتخذ إلهه هواه..﴾.

وهذا الشرك لا يتنافى مع كون الإنسان مؤمناً بالإيمان الأصغر. فالله سبحانه وتعالى يقول:

﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلاّ وهم مشركون﴾.

ولكنه بحكم قوله تعالى:

﴿ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك﴾.

فهو محبط للعمل. ولهذا توجه الإمامعليه السلام إلى أصحابه قائلاً: "..**فعليكم بالتسليم**".

هذا التسليم هو الذي ذُكر في الآية المباركة:

﴿فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً﴾.

فقد أقسم الله سبحانه بربوبيته لمحمدصلى الله عليه وآله أنهم لن يدخلوا إلى الإيمان الأكبر ما لم يرجعوا إلى النبي في شؤونهم وما يختلف عليهم وبينهم ويسلموا له فيما يحكم. فالرجوع إلى النبي هو الرجوع إلى

الشريعة والتسليم له هو التسليم لأوامر الله عزّ وجلّ.

من هنا كان عالم الإسلام الأكبر عالم التسليم لأحكام الله عزّ وجلّ وترك الاعتراض اللساني والقلبي عليها. ويوجد مرتبة أرفع من هذا التسليم وهي التسليم لأحكامه التكوينية التي تظهر بصورة الحوادث المختلفة كالمصائب والأمراض والآفات أو التدبير للعبد من جانب الحق عزّ وجلّ.

وقد سئل الإمام الصادقعليه السلام عن حقيقة العبودية، فقال:

"ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكاً، لأن العبيد لا يكون لهم ملك. يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم. ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً. ويكون جملة اشتغاله فيما أمره الله تعالى ونهى عنه.. فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاثة هانت عليه الدنيا وإبليس والناس. ولا يطلب الدنيا تكاثراً ولا تفاخراً، ولا يطلب ما عند الناس عزّاً ولا علواً، ولا يدع أيامه باطلاً. فهذه أول درجات التقى..".

وما يعين السالك على التسليم للشريعة هو اعتقاده بأنها تقوم على أساس المصالح والمفاسد. فكل ما أمرتْ به فهو لمصلحة العبد وإن لم يدرك ذلك، وكل ما نهتْ عنه فلمفسدة فيه. وعندما يدخل إلى مقام العمل وفق هذا الاعتقاد فسوف يرى حقّيقته عياناً. نحن، إذا سألنا من وفّقه الله تعالى لأداء فريضة الخمس طائعاً مختاراً ولسنوات عديدة، عما يشعر به تجاه هذا الحكم الشرعي، فإنه سيجيب – ولا شك – بالبركة في ماله. وإذا سألنا مجاهداً قضى في القتال (الذي تكرهه النفس العادية) عمراً عن إحساسه نحو القتال، فإنه يجيب – بلا ريب – أنه أنس لا مثيل له.

فحد هذا العالم هو عدم بقاء أي اعتراض في النفس على أحكام الله في مختلف مجالات الحياة، وخصوصاً تلك التي تمس المصالح الشخصية والدنيوية للإنسان.

ولا ينبغي أن ننسى أن من يمثل أحكام الله تعالى في هذا العصر هو الولي الفقيه. لذلك فإن التسليم له في أوامره المبرئة للذمة والمقبولة عند الله تعالى هو الإسلام الأكبر.

وإن من أعظم ثمار هذا التسليم ما جاء في قوله تعالى:

﴿أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه﴾.

6. الإيمان الأكبر

نبدأ من أمره تعالى المتوجه إلى المؤمنين:

﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله﴾.

فنجده يدعوهم إلى الايمان. ولو سمعنا مثل هذا الأمر عن إنسان عادي لحملناه - بجهلنا - على العبث! فكيف يُطلب من الصائم الصيام، وكيف نأمر المصلي بالصلاة أثناء صلاته؟!

إلاّ أن أمر الله تعالى للمؤمنين بالايمان يُخبر عن مطلب عظيم. فهو يدعوهم إلى عبور مراتب الايمان وعدم الاكتفاء بالمرتبة الأولى منه. ويبيّن لهم علائمه وآثاره حتى يدركوا شروطه ولوازمه، ففي العديد من الآيات القرآنية التي تصف المؤمنين نستلهم أن الإيمان المذكور هو الايمان القلبي. منها قوله تعالى:

﴿قد أفلح المؤمنون * الذين هم في صلاتهم خاشعون * والذين هم عن اللغو معرضون * والذين هم للزكاة فاعلون * والذين هم لفروجهم حافظون﴾.

وقوله سبحانه:

﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً﴾.

وعندما يقول الله تعالى:

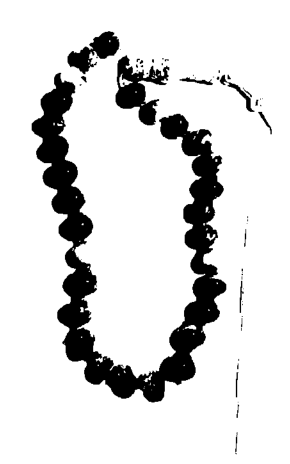
﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق..﴾.

فإنه يعاتب الذين اكتفوا من الإيمان بمرتبته الأولى، وهي الاعتقاد العقلي. فعليهم أن يكتبوا هذا الاعتقاد على لوح القلب، لأن صلاح مملكة الإنسان يبدأ من قلبه. وإذا بقي هذا القلب سقيماً فلن ينفعه شيء. قال الله عزّ وجلّ:

﴿يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم﴾.

والقلب السليم هو القلب الذي لا يكون فيه غلّ ولا غش. أي إنه يكون سليماً من الحقد على أهل طاعة الله وسليماً من أي نوع من الشرك والاعتقاد الفاسد. وقلوبنا إذا لم تنل حظها من الاعتقاد فستبقى مغشوشة، وإذا لم نكتب على صفحاتها كلمات الحقيقة والتوحيد فستبقى بعيدة عن الله تعالى. وبذلك نُحرم من سبب النجاة في عالم المحشر.

إن الاعتقاد الصحيح عندما يدخل إلى القلب فسوف يترك آثاراً مهمة وواضحة. منها الخوف من الله والخشوع له وقشعريرة الجلود. ومنها البعد عن كل أشكال اللغو والملاهي وتضييع الفرص والوقت والجهد. ومنها وأهمها الورع عن محارم الله تعالى. ففي الحديث عن الإمام الصادقg:



"إنّا لا نعد الرجل مؤمناً حتى يكون لجميع أمرنا متبعاً مريداً ألا وإن من اتباع أمرنا وإرادته الورع".

والورع هو رسوخ ملكة التقوى في النفس، بحيث يكون الامتثال لأمر الله سهلاً يسيراً، يصدر عن النفس بدون تكلّف.

إن أهل التقوى في مراحلهم الأولى يجاهدون أنفسهم لأجل الالتزام بالشريعة. فإذا أمرهم الله بشيء لا يرون فيه مصلحتهم العاجلة يجاهدون هذه النفس حتى تمتثل للأمر. وإذا نهاهم الله عن شيء، فإنهم يشدون على أنفسهم لكي لا يقعوا في المخالفة، ولكنهم إذا عبروا مرحلة المجاهدة هذه بالمداومة على الالتزام ترسخ في أنفسهم

ملكة التقوى ويصبح الامتثال والأداء والانتهاء أمراً طبيعياً فيهم.

وسبب كل هذه الآثار واضح. فإن جميع أعضاء الإنسان وجوارحه تأتمر بإمرة القلب، والقلب سلطانها. وعندما يدخل هذا القلب تحت سلطان الحق من خلال الاعتقاد الصحيح، وينقاد للمولى عزّ وجلّ من خلال اليقين بحضوره، فإن هذا التوحيد واليقين يسري إلى مملكة الظاهر فتصبح الأعضاء والجوارح منقادة خاشعة، وهذا هو الورع.

إن الطريق الوحيد لنقل الاعتقاد من العقل إلى القلب هو العمل وفق الاعتقاد العقلي. فالعقل يثبت توحيد الله في مقام الفعل، بمعنى أنه لا مؤثر في الوجود إلا الله، وأنه لا حول ولا قوة إلاّ بالله، وإن القوة لله جميعاً. العقل يثبت بالدليل انحصار الرازقية بالله سبحانه. وهذه الاعتقادات العقلية لها مستلزمات عملية. فمن اعتقد بأن القوة لله جميعاً لا ينبغي أن يخاف من الأعداء. ومن اعتقد برازقية الله المطلقة لا يتهالك من أجل تحصيل المال ولكننا بالرغم من تأكيدنا على هذه العقائد ودفاعنا عنها بالدليل والبرهان - نجد في أنفسنا حالات كثيرة تدل على عدم وجود ما نعتقده حول التوحيد. وسبب ذلك هو عدم سريان الاعتقاد إلى القلب الذي يكون مسؤولاً عن النشاطات والأعمال ويكون ساحة للآمال والمشاعر والتوجهات. والحل بعد هذا الاطلاع هو العمل بمقتضى التوحيد. فإذا كان العقل معتقداً بانحصار التأثير في العالم بالله ولكن القلب لم يكن كذلك، فعلى السالك أن يقوم بالأعمال التي تثبّت الاعتقاد في القلب، كما جاء في الحديث:

"والإيمان لا يثبت إلاّ بالعمل والعمل منه".

وقد تكفّلت الشريعة بالمنهج المطلوب لتحقيق هذا الأمر، ولن يكون السالك بحاجة إلى المناهج الصوفية في هذا المجال. إن الشريعة تأمرنا بالدخول في ساحات الجهاد والوغى حيث نتصادم مع كل القوى التي كنا نحسب لها حساباً في قلوبنا. فإذا نزلنا إلى ميادين القتال

واستحضرنا حقيقة التوحيد نصل بعدها إلى إدراك أن القوة لله جميعاً. يقول الله سبحانه وتعالى حاكياً عن هذه الطائفة من المؤمنين:

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

أما بعض الصوفية -ممن سلكوا منهجاً غير منهج الشريعة الأصيلة- فقد يأمرون اتباعهم بالدخول في المخاطر والمغامرات، كعبور الأدغال المليئة بالحيوانات المفترسة ليلاً منفردين وعلى هذا المنوال!!

الشريعة تأمرنا بالإنفاق والصدقة وبذل المال مما نحتاج في سبيل الله. فإذا أنفقنا وأقرضنا الله رغم عدم اعتقاد قلوبنا برازقية الله تعالى، فسوف نجد بعدها ثباتاً في النفس، وتتصل قلوبنا بمالك السموات والأرض.

أما بعض أهل التصوف فربما يأمرون اتباعهم بإتلاف أموالهم أو رمي متاعهم في البحر للتخلّص من حب المال والوصول إلى اليقين!!

وهكذا نجد الشريعة معنا دائماً، في كل خطوة تهدينا إلى أعلى مراتب الكمال. وفي الحديث القدسي:

"يا بن آدم أعمل ما افترضت عليك تكن أعبد الناس".

7. الهجرة الكبرى

قال الله تعالى: **﴿واهجرهم هجراً جميلاً﴾.**

في هذا العالم من العوالم المقدماتية، على السالك أن يهاجر كمقدمة للجهاد الأكبر. فإذا لم يترك ما يعترضه في هذه المرحلة من موانع وعقبات قد يسقط مجدداً ولا يبقى له سفر.

والأمور التي ينبغي أن يهجرها في هذا العالم هي:

1. **أهل اللغو والفسوق.**

2. **العادات والتقاليد.**

3. **الجاهلين.**

ولكن الهجرة هنا لا تكون بالبدن دائماً، كما فهم البعض من الأحاديث المروية في هذا المجال بأن الإسلام يدعو إلى الاعتزال وترك الناس مطلقاً. وإنما الهجرة تكون بترك العشرة بحسب درجات الموانع. وجميع مراتب وتفاصيل الهجرة الكبرى قد بُيِّنت أصولها في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في الأحكام الشرعية. وما لم يكن السالك متفقهاً في هذا الباب، فلن تكون هجرته في صراط العبودية بل قد تنتهي - والعياذ بالله - إلى أم الأصنام، وهي النفس.

ينبغي أولاً أن نحدد من هم الفاسقون وأهل اللغو، وما هي العادات الفاسدة ومن هم الجاهلون.

فالفاسقون هم الذين يتعمدون ترك الواجبات أو فعل المحرمات رغم عدم إنكارهم لأصول الدين وهم يعيشون داخل المجتمع الإسلامي. وهؤلاء ينقسمون إلى قسمين: أولي الأرحام وغيرهم، فأولو الأرحام لا يجوز قطعهم مطلقاً، ولكن تجوز هجرتهم إذا كانت مؤثرة في نهيهم عن المنكر. أما غير الأرحام فلا تجوز معاشرتهم بأي حال. نعم يجوز الاستفادة منهم واللقاء بهم ضمن الحياة اليومية كما نستفيد من بعض أهل الصناعات لقضاء حوائجنا دون أن يؤدي ذلك إلى العشرة. فالهجرة هنا تعني ترك العشرة وليس الاعتزال. ولكل من الفاسقين حق على المؤمن ينبغي أن يقوم به. وحقهم الأول هو أن يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر. وإن من أهم العوامل المساعدة على حفظ التدين والروحانية الدخول في هذه الفريضة، وليس بترك الفاسقين مطلقاً. وفي حديث أمير المؤمنين﵇ إشارة إلى هذا المطلب بحيث يقول: "**وأمُرْ بالمعروف تكن من أهله..**". فمن كان في الناس بناء على هذا التكليف يضمن لنفسه صفاءً



ونقاء ونزاهة عن فسقهم وانحرافهم.

أما أهل اللغو فهم الذين يلتزمون بظاهر الشريعة في الإجمال، ولا يمكن عدّهم من الفاسقين، ولكنهم لا يهتمون بالجانب المعنوي في الدين، ولا يعطون لتهذيب النفس وإصلاحها قيمة. وهم يعيشون على هامش هذه الحياة، تاركين أمواجها تتقاذفهم دون علمهم بالمصير. ولهذا الصنف من الناس تأثير مباشر على القلب من حيث إيجاد الغفلة أو التزيين. فإنه قلما ينجو السالك من مرض العجب أثناء عشرة أهل اللغو، حيث يرى نفسه أفضل منهم وأتقى، مما يجره إلى الغفلة أيضاً. لذلك نجد الإمام الخميني(س) يوصي ابنه السيّد أحمد (ره) بهذه الوصية فيقول:

"من الأمور التي أودّ أن أوصيك بها ـ وأنا على عتبة الموت، أُصعّد الأنفاس الأخيرة ـ: أن تحرص ـ ما دمت متمتعاً بنعمة الشباب ـ على الدقة في اختيار من تعاشر وتصاحب، فليكن انتخابك للأصحاب من بين أولئك الصالحين والمتدينين والمهتمين بالأمور المعنوية، ممن لا تغرهم زخارف الدنيا ولا يتعلقون بها، ولا يسعون في جمع المال وتحقيق الآمال أكثر مما هو متعارف، أو أكثر من حد الكفاية، وممن لا تلوث الذنوب مجالسهم ومحافلهم، ومن ذوي الأخلاق الكريمة، فإن تأثير المعاشرة على الطرفين من إصلاح وإفساد أمر لا شك في وقوعه. واسعَ أن تتجنب المجالس التي توقع الإنسان في الغفلة عن ذكر الله، فإن ارتياد مثل هذه المجالس قد يؤدي إلى سلب التوفيق، الأمر الذي يعدُّ ـ بحد ذاته ـ خسارة لا يمكن جبرانها."

وللعادات والتقاليد الفاسدة تأثير قوي في النفس، وربما تصل إلى حد تسلب من السالك القدرة على الاستمرار. فهي محيطة به من كل جانب، وتحرِّك مَن حوله، وتتسلل إلى عمق وجدانهم وأفكارهم، لتحل محل الشرع الأنور، وتكون منطلقاً لأحكامهم وتقييماتهم. لهذا ينبغي الاستعداد لمواجهة هذه العادات بسلاح الشرع. ولا يمكن أن يكون هناك

سلوك ما لم يهجر السالك مثل هذه التقاليد. وعليه أن ينهض بعزمٍ ولا يخاف في الله لومة لائم.

ويقصد بالجاهلين هنا أولئك الذين لهم نوع من الاهتمام بالجانب المعنوي ويسلكون طريق تهذيب النفس إلاّ أنهم يجهلون مقام السالك وبسبب هذا التفاوت قد يهاجمونه أو يوبخونه. وقد يشرعون في ملامته على بعض مواقفه دون أن يعلموا حقيقة الأمر. وإلى هذا إشارة في حديث أمير المؤمنين عليه السلام:

"لو علم أبو ذر ما في قلب سلمان لكفّره، ولقد آخى بينهما رسول الله صلى الله عليه وآله".

والهجرة هنا تكون بإخفاء السر والتحمل والصبر الجميل دون أية مواجهة أو مخاصمة. وعلى السالك أن يعرف أن إنكار هؤلاء عليه يعود إلى جهلهم وليس إلى سوء سريرتهم وأنه لو كان مكانهم لفعل مثل فعلهم.

فحدُّ هذا العالم إذاً هو "**لا يخافون لومة لائم**"، ومهماته رعاية أصول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وآثاره صفاء النفس والاستعداد للجهاد الأكبر.

"ومن كلام للإمام الصادق عليه السلام مع مهزم الأسدي قال:

"يا مهزم شيعتنا من لا يعدو صوته سمعه، ولا شحناؤه بدنه، ولا يمتدح بنا معلنا، ولا يجالس لنا غائباً (مستغيباً) ولا يخاصم لنا قاليا (مبغضاً)، إن لقي مؤمناً أكرمه وأن لقي جاهلاً هجره".

8. الجهاد الأكبر

بعد عبور عالم الهجرة الكبرى، يبدأ السالك بنوع جديد من المجاهدة، ويواجه شكلاً آخر من الموانع، لم يكن قد واجهه من قبل. فالموانع في عالم الجهاد الأكبر عبارة عن نفسه التي بين جنبيه. ولهذا

فإن العدو هنا خطير جداً وهو خفي للغاية، ويمتلك جميع وسائل المكر والخديعة، وقد صحب السالك منذ بداية حياته. ففي الحديث: "**أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك**".

ورُوى أن النبيﷺ استقبل سرية كان قد بعثها للقتال، فقال: "**مرحى بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر، فقيل: وما الجهاد الأكبر، قال**ﷺ: **جهاد النفس**".

وإنما سمي هذا الصراع الباطني بالجهاد الأكبر لأن الهزيمة فيه هي الهزيمة الحقيقية، والانتصار فيه هو الانتصار الأكبر. فالخسارة في ساحة الجهاد الأصغر ليست هزيمة في الحقيقة بل هي نيل إحدى الحسنيين. أما في ساحة الجهاد الأكبر، فإن السالك إذا تعرّض للفشل في محاربة النفس الأمارة، فإنه يسقط في أسفل سافلين؛ وقد لا يمكنه جبران خسارته بعدها أبدا.

وبيان ذلك هو أن نفس الإنسان تصاب بمرض خطير جراء التعلّق بالدنيا وزينتها، وتصبح مشغوفة بها، تدعو صاحبها لارتكاب الخطايا، وتزين له السيئات. وهي لا تزال على هذا المنوال، حتى تصبح أمّارة بالسوء؛ لا يهدأ لها خاطر إلاّ إذا دعت إلى السيئات وأمرت بها. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة بقوله سبحانه:

﴿إن النفس لأمارة بالسوء إلاّ ما رحم ربي﴾.

أي أن النفس إذا تُركت وشأنها وأهملت تربيتها وإصلاحها تكون مبادرة إلى المعاصي تأمر دائماً بالسوء. والاستثناء هو ما خرج برحمة الله تعالى بالتربية والمجاهدة.

وعلى السالك أن ينظر إلى نفسه بهذا النظر القرآني ويعتبر أنها أمّارة بالسوء في الأصل. ويتولّد من هذا النظر سوء الظن بالنفس الذي يؤدّي إلى اكتشاف جميع الأمراض الباطنية.

ونظراً إلى أن السالك قبل عبور محطات المرحلة الثانية كان مؤتمراً ومنقاداً للنفس الأمّارة، فإنه في ذلك الوقت لم يكن شاعراً ومدركاً لهذا الأمر. ولكنه بعد عبور عالم الهجرة الكبرى يكتشف هذا العدو اللدود. ويحول صراعه إلى الباطن وتصبح جميع المسائل الأخرى وسيلة لهذا الجهاد. وهكذا فإن همَّه الأكبر يتركّز على هذه الساحة، ويكون مصداقَ قول أمير المؤمنين: "**ولهمّت كل امرئ نفسه لا شيء سواها**".

ولهذا العالم شروط ومهمات، مثلما كان لعالم الجهاد الأصغر شروط لازمة. فالمجاهد في ساحة الجهاد الأصغر عليه أن يعرف عدوه الحقيقي الذي يترصد له ويكيد، ويحدد مراتب الأعداء وأولوية المعركة حتى لا ينجر إلى حروب جانبية تضره أكثر مما تنفعه، والمجاهد في ساحة الجهاد الأكبر عليه أن يتعرّف على عدوه الحقيقي الذي يريد أن يهلكه ويرديه وهو نفسه الأمّارة.

والمجاهد في ساحة الحرب والوغى عليه أن يتعلّم فنون القتال ويتدرّب على استخدام الأسلحة المناسبة. كذلك فإن المجاهد في ميدان النفس عليه أن يستمد من الإمدادات الرحمانية التي هي الأسلحة الوحيدة المناسبة.

والمقاتل في معركة الظاهر يتعرّف على نقاط العدو ومكامنه وحصونه وطرق نفوذه. والسالك في الجهاد الأكبر يتعرّف على أمراض النفس وطرق نفوذ جنود الشيطان ومواقعه.

فإذا حقق المجاهد بسيف الظاهر جميع تلك الشروط، بدأ بتنفيذ الهجوم على العدو. وإذا التفت المجاهد في ساحة الباطن إلى شروط الجهاد الأكبر، يبدأ عملية المجاهدة المباشرة بتنفيذ أوامر جنود الرحمان.

ولنتحدث بشيء من التفصيل عن شروط ومهمات عالم الجهاد الأكبر.

مهمات عالم الجهاد الأكبر

معرفة النفس

قال أمير المؤمنين‌: **"من لم يعرف نفسه بَعُدَ عن سبيل النجاة وخبط في الضلال والعشوات".**

إذا أردنا أن نفهم المقصود الحقيقي من هذا الكلام نرجع إلى عصر الرسالة الأول حينما بُعث رسول الله إلى قوم كانوا يعيشون في أسوأ بيئة عرفتها البشرية وأشدها ظلاماً. كانوا بعيدين كل البعد عن المفاهيم العقلية والأفكار المجرّدة فضلاً عن المسائل المعنوية والأمور الباطنية.

لقد كان من الصعب جداً أن يتصور العربي في ذلك الوقت أي شيء عن عالم الغيب والملكوت، وكان أفق تفكيره محصوراً بحاجاته المادية ومحدوداً بعالم الدنيا. وأراد النبي الأكرم أن يصنع من هذا المجتمع الجاهلي أمة متصلة بعالم الغيب، ويربي أفراداً يصلون إلى قمة الكمال الإنساني. ولأجل تزكيتهم وإيصالهم إلى الحكمة كان يتلو عليهم آيات الله ويبين لهم حقائق الوجود. ومن بين هذه الآيات والحقائق المجرّدة كانت النفس بمراتبها الباطنية التي أراد رسول الله للناس أن يعرفوها ويلتفتوا إليها. ولكن بعض هؤلاء - وبسبب ضيق أفق تفكيرهم - لم يدركوا حقيقة الأمر، فأنزلوا تلك المعاني السامية إلى مستوى فهمهم، وظنّوا أن النفس والقلب والروح أمور مادية محدودة رغم أنها لا ترى. إن الحديث في مثل هذه الأحوال عن النفس فضلاً عن مجاهدتها أمر في غاية الصعوبة. ومن هنا نجد التأويلات العديدة للأحاديث والروايات التي نُقلت في هذا المجال. فالبعض فهم من بيانات النبي حول عداوة النفس بأن النفس هنا هي الجسد فبدأوا بالتنكيل به معتبرين أن الإنسان إنما يسمو إلى كمال إنسانيته كلما عذّب هذا الجسد وحرمه



من ملذاته. والجسد في تصورهم سجن للروح يحبسها عن التحليق إلى عوالم الملكوت. وبناء على هذا التصوّر وضعوا مجموعة من الرياضات التي تحقّر الجسد وتقضي على رغباته. وطائفة ظنّت أن العدو هنا هو ذات الإنسان وعليه أن يذلها ويحقرها ويهينها.

ومن يطالع بعض الكتب الأخلاقية المنسوبة إلى أهل التصوف يجد مثل هذا اللون من التصور. وكل هذا يعود إلى عدم معرفة النفس كما ينبغي. إن حالة "الأمر الدائم بالسوء" هي حالة مرضية تصيب النفس فتصبح أمارة بالسوء. وكما أن الإنسان عندما يصاب بالحمى عليه أن يعالج بدنه المريض دون أن يقوم بحرقه أو تعذيبه لأجل ذلك، كذلك فإن المصاب بمرض النفس الأمارة لا يجوز له أن يقضي على نفسه، بل يجب أن يقوم بمعالجتها بالقضاء على المرض.

فالجسد ليس إلا آلة لخدمة النفس ووسيلة للبقاء في الدنيا: يمتثل لأوامرها ورغباتها امتثالاً تاماً. نعم، عندما تتسافل النفس، ويحصر الإنسان رغباته ولذاته بالجسد ومتعلقاته، نتصور أن الجسد أصبح هو الآمر الناهي. والواقع أن هذا الإنسان قد غفل كلياً عن حاجاته المعنوية وأبعاد وجوده الملكوتي وأضحى لا يرى لذّة في الوجود إلاّ اللذائذ الحسية. وبناء عليه، فإنه يأمر هذا الجسد المسكين ويضغط عليه للحصول على اللذات بأي طريقة كانت، مما يؤدي إلى إهلاكه وإتلافه.

إن حاجة البدن إلى الطعام والغذاء لها مقدار محدد. وإن عملية الأكل والشرب لها تأثير على النفس بجعلها تلتذ بهما. فإذا حصر الإنسان لذات نفسه بالطعام والشراب يدفع بدنه لتناول مقادير زائدة عن الحاجة الفعلية لأنه يريد اللذة الدائمة المطلقة. ومن المعروف أن هذا الإندفاع سيؤدّي إلى الإضرار بالبدن وفقدانه للتوازن اللازم له.

ويا ليت الأمر يقف عند هذا الحد، فهذا المسكين يشعر بعد فترة من هذه الممارسة الخاطئة بنوع من الاحتياج الزائد عن الحد المطلوب. وهذا

الشعور يسمى بالوهم، لأن صاحبه يشعر بالحاجة إلى شيء لا يحتاجه في الواقع. وقد يتألّم إذا لم يسده. وهكذا يصبح أسير الأوهام:

"**كم من عقل أسير تحت هوى أمير**" [الإمام علي(ع)].

أما شريعة الإسلام فقد أوصت وأمرت بضرورة الحفاظ على الجسد وصيانته. ووضعت برامج تفصيلية في هذا المجال لتنظيم علاقته بالطعام والشراب، ولتنظيفه وتطهيره. وبعد هذا كله دعت الإنسان إلى بذله في سبيل الله ضمن برنامج محدد وواضح. والجسد أمانة إلهية ووسيلة أعطيت للإنسان من جانب الله تعالى لكي يعبده في الدنيا ويصرفه في رضا المحبوب عزّ وجلّ. وإن أي إخلال بهذه الأمانة يكون معصية، بالإضافة إلى أنه يمنع الإنسان من الوصول إلى رضا الله سبحانه.

إن الله تعالى أمرنا بالأكل والشرب: ﴿كلوا واشربوا..﴾ وبين لنا الحد في ذلك ﴿.. **ولا تسرفوا**﴾. وواجه أولئك الذين قطعوا الارتباط بعالم الطبيعة على طريقتهم:

﴿**قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة**﴾.

والله سبحانه هو الذي أوجد فينا وسائل التناسل لحِكَمٍ بالغة، وأمرنا بالزواج ومدحه كما قال حبيبه(صلواته عليه وآله):

"**الزواج سنتي فمن رغب عن سنتي فليس مني**".

ووضع له حدوداً تضمن التوازن المطلوب لسلوك طريق الإنسانية.

وبالنسبة لتحقير النفس وإهانتها فقد منع ذلك وحرمه، وقد جاء في الحديث:

"**إن الله تعالى فوَّض للمؤمن أموره كلها إلا أن يذل نفسه**".

العبد الحقيقي هو الذي جعل كل مراتب وجوده خاضعة لله. والسالك نحو العبودية هو الذي لا يتصرّف في ملك الله بدون إذنه، فإنا

لله وإنا إليه راجعون. والنفس ملك لله تعالى وهو الذي يعيّن للإنسان كيف يتصرّف في ملكه.

إن العمل الذي يمكّننا من معرفة أنفسنا هو المراقبة. أما طريقة المراقبة فهي مداومة النظر والتوجه إلى أوامر الله ونواهيه. وهذا التوجه هو الذي يعبر عنه بالتقوى. والتقي هو الذي يلاحظ حضور المولى مالك الملك ومالك النفس. وبمثل هذه المراقبة يتعرّف السالك إلى أفعاله، ومنها يستدل على صفاته، ليصل بعد مداومة النظر إلى معرفة ذاته وباطنه.

معرفة اللّه تعالى

الشرط الثاني من شروط عالم الجهاد الأكبر هو الاستمداد من رحمة الله للخلاص من النفس الأمارة: ﴿إلاّ ما رحم ربي﴾. هذا الاستمداد ضروري في هذا الميدان لأن السالك لا يمتلك سلاحاً آخر. وفي حال أراد الاعتماد على نفسه فإنه يقع فريسة عدوه. لأن العدو هنا هو النفس، ولهذا ينبغي أن ييأس من نفسه ويكسر رجل الاعتماد عليها ويلجأ إلى الله سبحانه وينقطع إليه علماً بأن أزمّة الأمور بيده.

هذا الاستمداد يحصل بطرق كثيرة كالعبادة والدعاء والتوسل، إلا أن له جوهراً يجعل هذه الأعمال طريقاً للاستفادة وتحصيل المدد. فالعبادة حتى تكون مقبولة ينبغي أن تكون نابعة من هذا الجوهر. وكذلك الدعاء والتوسل.

ففي الحديث: **"لا تصح عبادة بدون معرفة"**.

وسئل الإمام الصادقعليه السلام: **"ما لنا ندعو فلا يستجاب لنا؟ فقالعليه السلام: لأنكم تدعون من لا تعرفونه"**.

فالجوهر هنا هو معرفة الله تعالى وإن الاستمداد في ساحة الجهاد الأكبر يقوم على أساس هذه المعرفة.

إن التأمّل في النصوص الشريفة يهدينا إلى هذا المطلب الشريف، ويفتح على قلوبنا أبواب الرحمة والتصفية. ولو أدرك الإنسان أن سبب كل شقاء، وأصل كل خطيئة هو حب الدنيا والتعلّق بها، فإنه سيجعل كل همه التخلّص من هذا التعلّق. وتأتي معرفة الله تعالى لتكون وسيلة للخروج من حب الدنيا. فمن الثابت البيّن أن الإنسان لا يتعلّق بشيء ولا ينجذب نحوه إلا إذا كان يرى فيه قدراً وعظمة. ويستحيل أن يتخلّص الإنسان من حب الدنيا إذا كان يرى لها قدراً وقيمة، إلاّ إذا شاهد ما هو أعظم منها. وإن أي برنامج يطرح لأجل القضاء على حب الدنيا ولا يأخذ بعين الاعتبار هذا الأمر فإنه لن يؤدّي إلى أية نتيجة. لأن الإنسان مفطور على حب الكمال، ويستحيل أن يخلو قلب الإنسان من طلبه، فالخروج من حب الدنيا يتطلّب رؤية كمال أعلى منها وأعظم.

والآن لنتأمل في الروايات الشريفة ليتبيّن لنا المراد:

قال الإمام الصادق عليه السلام:

"العارف شخصه مع الخلق وقلبه مع الله، لو سها قلبه عن الله طرفة عين لمات شوقاً إليه. والعارف أمين ودائع الله وكنز أسراره ومعدن أنواره ودليل رحمته على خلقه، ومطية علومه وميزان فضله وعدله. قد غني عن الخلق والمراد والدنيا، ولا مؤنس له سوى الله ولا نطق ولا إشارة له إلاّ بالله ومع الله ومن الله، فهو في رياض قدسه متردد ومن لطائف فضله متزوّد".

وعنه عليه السلام قال:



"لو يعلم الناس ما في فضل معرفة الله تعالى ما مدّوا أعينهم إلى ما متع به الأعداء من زهرة الحياة الدنيا ونعيمها. وكانت دنياهم أقل عندهم مما يطأونه بأرجلهم. ولنعموا بمعرفة الله تعالى وتلذذوا بها تلذذ من لم يزل في روضات الجنات مع أولياء الله. إن معرفة الله أنس من كل وحشة، وصاحب من كل وحدة ونور من كل ظلمة وقوة من كل ضعف

وشفاء من كل سقم".

وعن أمير المؤمنينﷺ في وصف المتقين، قال:

"عظم الخالق في أنفسهم فسقط ما دونه في أعينهم"

وعنه عليه السلام قال: **"رأس الحكمة مخافة الله".**

وعنه عليه السلام قال: **"من سكن قلبه العلم بالله سكنه الغنى عن الخلق".**

وفي الحديث عن الإمام الصادقﷺ:

"من عرف الله خاف الله، ومن خاف الله سخت نفسه عن الدنيا".

ففي هذه الأحاديث الشريفة نجد أن معرفة الله تعالى تقابل حب الدنيا وتسقطه من قلب الإنسان كلياً. وما كان أصل كل فساد وسوء يزول بهذه المعرفة.

إن معرفة الله عزّ وجلّ تورث الخوف منه. ومخافة الله تمنع الإنسان من تعدي حدوده. كما أن هذه المعرفة تؤدي إلى الاستغناء عن الناس وعندما يستغني الإنسان عن الناس يكون قد ضمن لنفسه النجاة من الذنوب والمعاصي. ولعل جميع المعاصي ترجع إلى تعلّق الإنسان بالناس..

معرفة الأمراض

إن معرفة الله وتجلي عظمته وظهور جلاله على قلب السالك يُسقط هذه الدنيا وما فيها من عينيه، وتنتفي عندها أصول وأسباب الخطايا، ويقطع على النفس الأمارة مدد السوء:

"إذا أراد الله بعبد خيراً لهاه عن محاسنه، وذكّره بعيوبه وكرهه مجالسة المعرضين عن ذكر الله".

إن المواقع التي تنطلق منها جميع المعاصي هي تلك الأمراض القلبية. ولهذا فإن التعرّف عليها يعتبر مقدمة للتخلّص منها. وما لم يدرك الإنسان ما فيه من آفات وعيوب فلن يتم له الفتح والظفر في ميدان الجهاد الأكبر.

وفي الحديث أيضاً: **"إن الله إذا أحبّ عبداً بصّره بعيوبه"**.

ومن العلامات المؤكّدة للتوفيق أن يلتفت الإنسان دائماً إلى عيوبه ويدرك ما فيه من أمراض قلبية. إن السالك كلّما طوى طريق المجاهدة بقدم السلوك الحقيقي أدرك أعماق نفسه واطلع على نقصانه. يقول الإمام الخميني قدس سره:

"فبمقدار ما نطلع على نقصاننا تتنوّر عباداتنا وتصبح مقبولة عند الله تعالى".

وهنا لا بد من الإشارة إلى بعض الملاحظات:

أ. قد يخفي الإنسان ذنوبه عن نفسه لأنه لا يتحمّل الشعور بأنه إنسان سيئ.

ب. أكثر الأمراض القلبية لها مراتب متعددة. والقضاء على آثارها في بعض المراتب لا يعني القضاء التام عليها.

ج. لكل ذنب من الذنوب آثار تكوينية واقعية. وليس الذنب مجرّد نقطة سوداء على صفحات كتاب. ولهذا فإن للذنوب تبعات وما لم يتخلّص السالك من تبعاتها (من خلال التكفير عنها والحصول على المسامحة مثلا)، فلن يتمكّن من التخلّص منها.

برنامج المجاهدة

البرنامج العملي للمجاهدة النفسية هو البرنامج الموجود في الشريعة الإسلامية. فالمطلوب من الإنسان في هذا المقام أن يتعرّف على الشريعة

وأبعادها، ويقدم ما تقدمه، ويهتم بما اهتم به الشارع المقدّس.

ولا يجوز أن ينسى السالك تلك المبادئ والأصول التي تعرّف عليها، وعليه أن لا ييأس عند أول معركة، فبعض السالكين ظنّوا أنهم قد جرّبوا الشريعة ولم ينجحوا في هذا الميدان، ولهذا فقد أخذوا يبحثون هنا وهناك عن برامج أخرى تمكّنهم من الفتح والظفر. فإذا كان الإنسان مجتنباً للمعاصي والمحرمات ومواظباً على الواجبات والطاعات فهو المجاهد حقاً.

ومن لم يوفق في هذا الأمر لن يُوفق في أي أمر آخر. وقد أثبتت المشاهدات الكثيرة أن عمدة الفشل في هذا الباب ترجع إلى عدم مراعاة برنامج الشريعة.

في المرحلة الثالثة من العوالم المتقدمة على عالم الخلوص يدخل السالك في ميدان جديد من ميادين المجاهدة القلبية ويتصل بعالم السر. ففي عالم الإسلام الأعظم يصل السالك إلى مرحلة يرى فيها كل الحوادث شرّها وخيرها بعين الله وعنايته التي تشده كل آن إلى مقام الفناء الحقيقي. ويسلّم لإرادة الله التكوينية ويقول: ﴿أسلمت وجهي لله رب العالمين﴾. ولا يطلب في عالم التكوين إلا ما يريده الله له. ولا يتمنى زوال شيء أو بقائه. ويدخل بعدها إلى عالم الايمان الأعظم حيث تصبح كل الحقائق التي اطمأنّ بها بقلبه مشهودة له. وتنكشف بعض أسرار القدر وحقائق التوحيد.

ويأتي عالم الهجرة العظمى، فيهاجر من بيت النفس المظلم ويدع الأنانية جانباً، ليدخل بعدها إلى عالم الجهاد الأعظم حيث مجاهدة أصل كل حجاب ويتغلّب على الإنيّة كاملاً.



فإذا وفق السالك في ميدان الجهاد الأعظم وتم له الفتح والظفر يدخل إلى وادي المخلصين.

والحمد لله رب العالمين

في لقاء الله وحقيقته



أعلم أن الآيات والأخبار الواردة في لقاء الله صراحة أو كناية وإشارة، كثيرة لا يسع هذا المختصر الخوض في ذلك مفصلاً. ولكننا نشير إلى بعضها بصورة مختصرة. ومن أراد التفصيل في ذلك أكثر فعليه مراجعة كتاب (لقاء الله) للمرحوم العارف بالله، الحاج ميرزا جواد التبريزي قدس سره، حيث جمع إلى حد كبير الأخبار المأثورة في هذا الموضوع.

إعلم أنه قد ذهب بعض العلماء والمفسّرين إلى سدّ باب السبيل إلى (لقاء الله) نهائياً، والجحود للمشاهدات العينية والتجليات الذاتية والأسمائية، زاعمين بذلك أنهم ينزهون الذات المقدّسة، ومفسرين جميع آيات لقاء الله وأحاديثها، بلقاء يوم الآخرة، ولقاء الجزاء والثواب والعقاب.

وهذا التوجيه ليس ببعيد كثيراً، بالنسبة إلى مطلق اللقاء واتجاه بعض الآيات والروايات، ولكنّه بالنسبة إلى بعض الأدعية المعتبرة والأحاديث المأثورة في الكتب المعتبرة، والأحاديث المشهورة التي ارتكز عليها علماؤنا العظام، موهون وبعيد جداً.

ولا بد أن نعرف بأن مقصود من أجاز فتح الطريق على لقاء الله ومشاهدة جمال الحق وجلاله، ليس جواز اكتناه (الإحاطة بالحقيقة) ذاته المقدّس، أو إمكان الإحاطة في العلم الحضوري والمشاهدة العينية الروحانية، على ذاته المحيط بكل شيء على الإطلاق، فإن امتناع الاكتناه لذاته المقدس بالفكر في العلم الكلي ـ الفلسفة ـ وامتناع الإحاطة بالبصيرة في العرفان، من الأمور البرهانية، ومتفق عليه لدى جميع العقلاء، وأرباب القلوب والمعارف. بل المقصود لدى من يدعي مقام لقاء الله هو: أنه بعد حصول التقوى التامة والكاملة، وانصراف القلب نهائياً عن جميع العوالم، ورفض التوجه نحو النشأتين – المُلك والملكوت – ووطأ الأنانية والإنيّة، والإقبال الكلي نحو الحق المتعالي وأسماء ذاته المقدس وصفاته، والانصهار في عشق ذاته المقدس وحبّه، وتحمّل جهد وترويض القلب، بعد كل ذلك يحصل صفاء في القلب لدى السالك يبعث على تجلي أسمائه وصفاته، وتمزّق الحجب الغليظة التي أسدلت بين العبد من جهة والأسماء والصفات من جهة أخرى، ويوجب الفناء في الأسماء والصفات والتعلّق بعز قدسه

وجلاله والتدلّي التام بذاته، وفي هذا الحال لا يوجد حاجز بين روح السالك المقدّسة والحق المتعالي سوى حجاب الأسماء والصفات.

ويمكن أن يرفع الستار النوري للأسماء والصفات لبعض أرباب السلوك أيضاً، وينال التجليات الذاتية الغيبية، ويرى نفسه متدليا ومتعلّقاً بالذات المقدسة، ويشهد الإحاطة القيومية للحق والفناء الذاتي لنفسه، ويرى بالعيان أن وجوده ووجود كافة الكائنات ظلال للحق المتعالي.

وكما قامت البراهين على أنه لا حجاب بين الحق سبحانه والمخلوق الأول المجرّد عن جميع المواد والتعلّقات، بل البرهان قائم على عدم وجود حجاب بين الحق وكافة المجّردات بشكل عام، فكذلك لا يوجد حجاب بين هذا القلب الذي بلغ في سعته وإحاطته الموجودات المجرّدة بل اجتازها ووطئ بأقدامه على رؤوسها، وبين الحق المتعالي. كما في الحديث الشريف المنقول عن (الكافي) و(التوحيد):

"إن روح المؤمن لأشد اتصالاً بروح الله من اتصال شعاع الشمس بها".

وفي المناجاة الشعبانة المقبولة لدى العلماء، والتي يدل مضمونها على أن هذه المناجاة من الأئمة المعصومينعليهم السلام: **"إلهي هب لي كمال الانقطاع إليك، وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعز قدسك. إلهي واجعلني ممن ناديته فأجابك ولاحظته فصعق لجلالك فناجيته سراً وعمل لك جهراً".** وفي الكتاب الإلهي الشريف، لدى حكاية معراج الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله **﴿ثم دنى فتدلى • فكان قاب قوسين أو أدنى﴾** ولا تتنافى هذه المشاهد الحضورية الفنائية، مع البرهان على عدم الاكتناه والإحاطة للذات المقدسة، ومع الأخبار والآيات التي تدل على تنزيه الحق جلا وعلا من كل عيب ونقص وحدّ. بل يكون مؤكداً ومؤيداً لها.

فانظر الآن ما جدوى هذه التوجيهات والتأويلات البعيدة؟ هل نستطيع أن نوجه كلام الإمام أمير المؤمنينعليه السلام الذي يقول **"فهبني صبرت على عذابك فكيف أصبر على فراقك"** هل أن تحرّق وتألّم أولياء الله، من فراق حور العين وقصور الجنة؟وهل يمكن تفسير هذه الجملة (ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعا في جنتك بل وجدتك أهلاً للعبادة فعبدتك عبادة الأحرار) على أن هذا الأنين هو من جراء فراق الجنة وأطعمتها؟ هيهات أن يكون ذلك، إنه لكلام غير موزون، وتوجيه غير مقبول.

هل يمكن القول إن تجلّي جمال الحق سبحانه ليلة المعراج، والمجلس الذي أقيم في تلك الليلة من دون أن يحضره أحد من الكائنات أو لم يطلع على أسراره أحد، حتى أمين الوحي جبرائيل، بأنه مشاهدة للجنة وقصورها المشيّدة، وأن أنوار العظمة والجلال هي رؤيته لنعم الحق؟

هل إن التجلّيات التي حصلت للأنبياءعليهم السلام، والتي ورد ذكرها في الأدعية المعتبرة هي من قبيل النعم والمأكول والمشروب أو البساتين والقصور؛

ومن المؤسف أننا نحن المساكين، المسجونين في الحجب المظلمة، والمصفدين بسلاسل الآمال والأمنيات، لا نفهم إلاّ المطعومات والمشروبات والمنكوحات وأمثالها، وإذا أراد فيلسوف أو عارف أن يرفع هذه الحجب، اعتبرنا سعيه هذا غلطاً وخطأ، وما دمنا مسجونين في البئر المظلم، عالم المُلك لن نستوعب شيئاً من أصحاب المعارف والمشاهدات.

ولكن عزيزي: لا تقارن نفسك مع الأولياء، ولا تظن بأن قلبك يضاهي قلوب الأنبياء وأهل المعارف. إن قلوبنا المشحونة بغبار التعلّق بالدنيا وملذاتها، وإن انغماسنا في الشهوات يمنع قلوبنا من أن تكون مرآة لتجلّي الحق سبحانه، ومحلاً لظهور المحبوب. ومن المعلوم أننا لا نعي شيئاً من تجليات الحق وجماله وجلاله عندما نشعر بالأنانية والذاتية والمحورية بل يجب أن نكذب في هذا المجال أحاديث الأولياء وأهل المعرفة، فإن لم نكذّبها بألسنتنا في الظاهر، لكذّبناها في قلوبنا. وإن لم نجد سبيلاً للتكذيب، بأن كانت أحاديث النبيصلى الله عليه وآله أو الأئمة المعصومينعليهم السلام، لفتحنا باب التأويل والتفسير، وفي النهاية نسدّ باب معرفة الله.

فنفسر قوله "**ما رأيت شيئاً إلاّ ورأيت الله معه وقبله وفيه**" على رؤية الآثار وقوله "**لم أعبد رباً لم أره**" بالعلم بالمفاهيم الكلية التي تضارع علومنا، وقوله "**لي مع الله حالة**" بحالة الرقة في القلب. وقوله "**وارزقني النظر إلى وجهك الكريم**" وتأوه الأولياء وتحرّقهم في معاناة الفراق، بالبعد عن حور العين، وطيور الجنّة. وهذه التفاسير لا تكون إلا نتيجة أننا لسنا رجال تلك الساحات، ولا نفهم إلا المتع الحيوانية والجسمانية دون غيرها، ولهذا ننكر جميع المعارف. والأنكى من كل ذلك، هذا الإنكار الذي يفضي إلى غلق باب كل المعارف، ويدفعنا بعيدا عن السعي والطلب، ويجعلنا نقتنع بمستوى الحيوانية والبهيمية، ويحرمنا من عوالم الغيب والأنوار الإلهية. لقد أصبحنا نحن المساكين المحرومين نهائياً من المشاهدات والتجليات، في منأى حتى عن الإيمان بهذه المعاني التي هي درجة من الكمال النفسي والتي يمكن أن تسوقنا إلى مرحلة متقدمة. إننا نهرب من العلم الذي قد يكون منطلقاً وبذرة للمشاهدات، ونغلق عيوننا وأسماعنا نهائياً ونضع القطن في آذاننا حتى لا يتطرق كلام الحق إليها. وإذا سمعنا حقيقة من لسان عارف هائم أو سالك حزين أو فيلسوف متألّه، نتصدى فوراً نتيجة عدم طاقة آذاننا على استماع تلك الحقيقة، ونتيجة أن حبّ النفس يمنعنا من جعل هذه الحقائق أسمى من قدرة استيعابنا لها، نتصدى فوراً للطعن فيه ولعنه وتكفيره وتفسيقه، ولا نأبى من أيّة غيبة أو تهمة.

إننا نوقف الكتاب ونشترط على كل من يستفيد منه أن يلعن المرحوم الملاّ محسن فيض الكاشاني -

صاحب كتب الأخبار والاخلاق والكلام والتفسير - يومياً مائة مرة. ونرمي صدر المتألّهين الذي هو قمة التوحيد بالزندقة ولا نبخل عن إهانته أبداً، ونقول عنه بأنه صوفي رغم عدم ظهور أي رغبة منه في كل كتبه نحو مذهب التصوّف ورغم تأليفه لكتاب (كسر أصنام الجاهلية في الرد على الصوفية).

إننا نترك الذين يستحقون اللعن، ويكونون ملعونين على لسان الله ورسوله ﷺ، ونلعن من يصرّح بالإيمان بالله ورسوله والأئمة الهادين ﷺ. وإنني أعلم بأن هذا اللعن والتوهين لا يسيء إلى مقامهم، بل قد يضاعف حسناتهم ويرفع من درجاتهم، ولكنه يسيء إلينا وقد يبعث على الخذلان وسلب التوفيق منّا.

الأربعون حديثاً - الإمام الخميني

في الفهم والتحليل

1. اختر الإجابة الأصح

1. **إن تدرّج السالك في مراتب التقوى يؤدّي إلى:**
   أ. تدرّجه في عبور المراتب.
   ب. إيجاد مراحل في السير والسلوك.
   ج. صعوبة السير المعنوي.
   د. سهولة السفر إلى الله.
2. **يمكن للسالك أن يعبر العالم دون المرور بسابقه:**
   أ. لأن العبور ليس في المكان والزمان.
   ب. لأن بعض الناس قفزوا مباشرة.
   ج. لا يمكن ذلك، لأن كل عالم مقدمة للاحقه.
   د. ولكن بشرط التوقف أكثر.
3. **إذا حفظنا أسماء العوالم:**
   أ. نصل بسرعة إلى آخر العوالم.
   ب. ربما لا تزيدنا إلاّ غفلة واحتجاجاً.
   ج. سجح في الامتحانات النهائيه.
   د. لا يهم بتاتاً.
4. **إن البرنامج العملي الوحيد في جميع العوالم هو:**
   أ. التزام التقوى
   ب. اتباع حكم القلب.
   ج. محاربة الكفار والمشركين
   د. الزهد
5. **من العوامل التي تؤدي إلى الشك وتزيد منه:**
   أ. عدم دراسة الأدلة والبراهين الفلسفية.
   ب. المجادلة والخصومة لإثبات النفس.
   ج. كثرة التفكر
   د. التعلم والدراسة المنظمة.
6. **أشد الناس على السالك هم:**
   أ. الجاهلون
   ب. أهل اللغو
   ج. الفاسقون
   د. الكفار
7. **المقصود من حديث الرسول(ص): "مرحى بقوم رجعوا من الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر" هو:**
   أ. أنه بعد الانتهاء من الأصغر ينبغي الانتقال للجهاد الأكبر.
   ب. الثناء على المجاهدين ومدحهم.
   ج. أن الذين جاهدوا بالجهاد الأصغر أهملوا الجهاد الأكبر.
   د. أن للجهاد أبعادا وآثاراً متعددة في المجتمع والنفس.
8. **إن اعتماد بعض الفرق الإسلامية أساليب التعذيب وإذلال النفس يعود إلى:**
   أ. حرصهم على السير والسلوك.
   ب. جهلهم بحقيقة النفس.
   ج. اعتقادهم بأن الشريعة تركت لهم ذلك.
   د. تأثرهم بالفرق البوذية
9. **طريقة إدخال الإيمان إلى القلب:**
   1. من خلال المجاهدة.
   2. بالرياضة القلبية.
   3. بعبور المخاطر.
   4. بالعمل الشرعي على أساس التوحيد.
10. **إن معرفة الله تعالى شرط للجهاد الأكبر:**
   1. لأنها اعتقاد بالغيب.
   2. لأنها ترسخ الإيمان في القلب.
   3. لأنها تزهد في الدنيا.
   4. لأنها تحقّر الحياة.

2. إملأ الجدول بما يناسب

	تعريف العالم بحده	الآثار	الشروط
الإسلام الأصغر			
الإيمان الأصغر			
الجهاد الأصغر			
الهجرة الصغرى			
الإسلام الأكبر			
الإيمان الأكبر			
الهجرة الكبرى			
الجهاد الأكبر			
الإسلام الأعظم			
الإيمان الأعظم			
الهجرى العظمى			
الجهاد الأعظم			

3. أجب باختصار

3.1. ما هو القاسم المشترك بين محطات المرحلة الأولى؟

4. مصطلحات للمذاكرة

النفس اللوامة. الفتح القريب. الفتح المبين. الفتح المطلق. التباين.

ضروريات الدين. الجاهلون. الورع. الفاسقون. أهل اللغو.

5. صنّف أنواع الجهاد إلى جهاد أصغر وأكبر

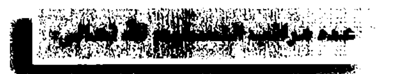
جهاد أكبر   جهاد أصغر

أ. التظاهر اعتراضاً على الظلم
ب. الجهاد الثقافي
ج. الصيام تأديباً
د. قتال الأعداء
هـ. منع النفس عن مشتهى
و. عدم إظهار الكرامات

6. 

الهجرة الصغرى   الهجرى الكبرى   الهجرى العظمى

1. الهجرة إلى أمريكا بأمر من الولي
2. عدم الفرح بالانجازات.
3. صلة الأرحام الفاسقين عندما تقتضي الضرورة فقط
4. الابتعاد عن مجالس اللغو
5. الالتزام بالحدود الشرعية في المصرف حتى لو عاب عليك الآخرون.
6. عدم الاعتناء بالكرامات
7. الهجرة من أسترالية إلى إيران

7. 

.1

.2

.3

اعتمد النموذج التالي للإجابة عن السؤال:

الإجابة: (النتيجة المتوخاة)

فكرة داعمة أولى:

فكرة داعمة ثانية:

فكرة داعمة ثالثة:

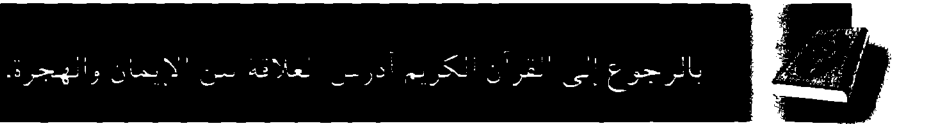
(الفكرة الداعمة تقدم المعطيات، الأسباب، الأدلة، الآيات، الأحاديث الداعمة للإجابة)

الاستنتاج: (كتابة خلاصة تؤكد على النقطة الرئيسية في الإجابة)

أعد صياغة إجابتك في فقرة.

بعد أن حضرت نادية درس العوالم المتقدمة على الإخلاص شعرت أنها ضائعة لا تعرف ما هو مقامها الحقيقي. كانت تظن أنها بعد أن تخلصت من قلقها تجاه ما يجري في هذه الدنيا وباتت تشعر بالروحانية والخشوع في كثير من أحيان العبادة، أصبحت من أهل الإيمان الكامل لكنها الآن لا تدري أين هي حقا. فقد أوضح المدرس أن جهاد النفس الأكبر يكون بعدما يسلّم الإنسان لكل أحكام الشريعة دون استثناء ولا يعترض على أي منها ولو بقلبه. فماذا تفعل.

كيف يمكن مساعدة نادية بالاستفادة من معرفة مراحل السير والسلوك؟



المصادر الأساسية

استفاد المؤلف من عشرات الكتب الأخلاقية والحكمية والعرفانية، واستشهد بالعديد من الأحاديث من الكتب الروائية المشهورة. وهو مدين في كل هذا البحث للعلماء الأجلاء على مرّ التاريخ. ولا يسعه هنا ذكر جميع المصادر.

ونظراً إلى توافر البرامج الكمبيوترية الجامعة للأحاديث المروية عن أهل البيتعليهم السلام، فإنه اكتفى في معظم الأحيان بذكر الحديث دون مصدره والمتتبع يمكنه معرفة المصدر لأي حديث باستخدام تلك البرامج، ومنها برنامج نور.